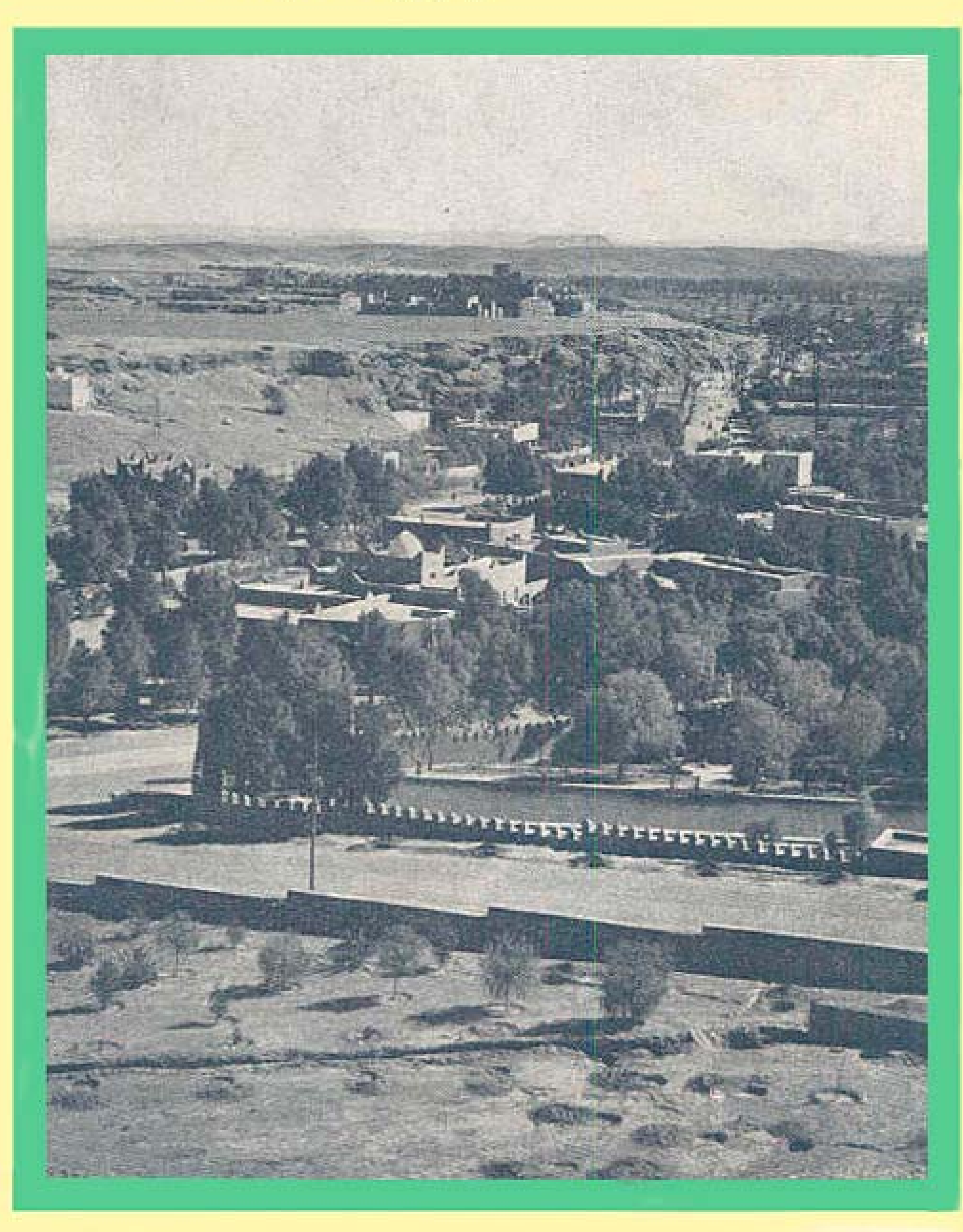
دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر



عدد خاص : في سبيل نهضة فكرية وثقافية بالمغرب

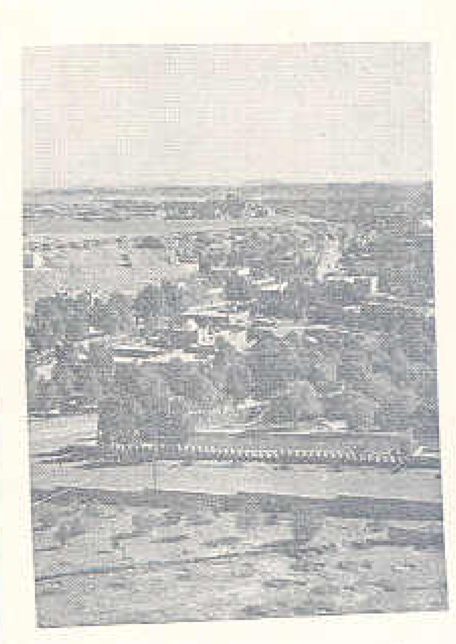
مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

دعوة الحق

العدد الأول
السنة الخامسة
ربيع الثاني 1381
اكتوبر 1961

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



ورزازات :

احدى قرى الصحراء المغربية الجميلة

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة «دعوة الحق» - قسم التحرير - وزارة عموم الاوقاف - الرباط - المغرب .

الاشتراك العادي عن سنة 10 دراهم ، والشرفي 20 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لايقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك فى حساب :
« دعوة الحق » الحوالة البريدية رقم 55 - 485 - الرباط -
DAOUAT AL HAK compte chèque postal 485-55 à RABAT

او تبعث راسا فى حوالة بالعنوان التالي :
مجلة «دعوة الحق» - قسم التوزيع - وزارة عموم الاوقاف - الرباط - المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
فى كل مايتعلق بالاعلان يكتب الى :
« دعوة الحق » قسم التوزيع - وزارة عموم الاوقاف - الرباط
تليفون 308-10 - الرباط



هذا العدد ...

ـ منذ شهرين تقريبا كانت المجلة قد سلخت من عمرها اربع سنوات، واليوم تفتح عامها الخامس بهذا العدد الخاص الذي وعدت به القراء ، وهي تأمل ان تحقق من ورائه مكاسب كثيرة لمستقبل الثقافة وقضية الفكر في هذا البلد العزيز .

ـ لقد عقدت المجلة العزم على ان تصدر كل سنة عددا خاصا تتناول فيه بالبحث والتحليل بعض المواضيع الادبية والفكرية التي تمس ضمير الشعب المغربي آخذة بعين الاعتبار ظروف الحياة الجديدة وما تكمن فيها من رغبة في النهوض ، ونزوع الى التجديد ، وتجاوب حي مع سائر التجارب الانسانية .

ـ ولقد آثرنا ان نبدأ هذه السلسلة من اعدادنا الخاصة بتناول ظاهرة ملحوظة في حياتنا العامة هي ظاهرة الركود الفكري ، وتبين الاسباب والدواعي التي ساهمت في خلقها مع رسم الطريق السوي وارساء القواعد الاساسية لنهضة فكرية أصيلة ومتطورة .

ـ ولهذا الفرض قامت المجلة بطرح المشكلة على كتابها مشيرة الى بعض الجوانب التي رأتها جديرة بالعناية والبحث تاركة للكتاب حرية الاختيار واضافة ما يرونه مناسبا في الموضوع . والعدد الذي نقدمه اليوم الى قرائنا الكرام هو جملة الآراء والابحاث التي تلقتها المجلة في هذا الشأن .

ـ على اننا لا نود ان نطوي البحث في هذه المشكلة التي لا ينكر احد اهميتها بتخصيص عدد واحد لها من المجلة ، ولا بالاقتصار على ما تفضل به كتاب هذا العدد من ابحاث ودراسات ، بل نحن نرمي من وراء هذا العدد الى اثارة اهتمام اكبر عدد ممكن من جمهرة القراء والمثقفين بالمشكلة ، ونتمنى ان تكون الاعداد التالية خلال هذه السنة حافلة بالردود والتعليقات والآراء الجديدة التي يمكن ان يوافينا بها القراء ، ففي اعتقادنا أن عناصر الحل لاية مشكلة تكمن في كثرة ما يدور حولها من ابحاث ودراسات وما تحظى به من اهتمام ، فالى اعدادنا المقبلة والسلام .

دعوة الحق

القرآن والثقافة العربية

دكتور تقي الدين الهلالي

هذا موضوع مهم جدا وواسع يحتاج بيانه بالتفصيل الى تاليف كتاب مستقل ، ولكن نجمل الكلام فيه اجمالا حسبما يسمح به المقام ، فنقول ... ان كل شعب يريد ان يعيش سعيدا يحتاج الى امور ، ... اولها القوة الروحية وهي تتوقف على الدين الصحيح الذي يملا قلوب ابناء الشعب ايمانا وحماسة ويؤلف بينهم ويكون العروة الوثقى التي لا تنفصم . ومن اراد ان يرى بعينه شاهدا على ذلك فلينظر الى العرب قبل الاسلام وبعده . اما حالهم قبل الاسلام فكل من له ادنى المام بالتاريخ يعرفها حق المعرفة. ومن لم يكن له المام بالتاريخ ففي القرآن الذي هو كتاب متواتر ، لا يشك في تواتره احد لا موافق ولا مخالف. فيرى فيه ان العرب كانوا يقتلون اولادهم بسبب الفقر وكانوا يئدون بناتهم لاسباب سخيفة وكانوا لا يورثون الاناث ولا الصبيان ، لانهم كانوا يحصرون امتلاك الاموال في من يحمل السلاح ويقاتل ، لان العاجز عن ذلك كالنساء والصبيان لا يستطيع ان يدافع عن المال ويصد عنه غارات المغيرين المتوالية ، اذ كان يجب على كل من يملك شيئا ان يقاتل عنه ، ضرورة انه لم يكن لهم قانون ولا دولة ولا نظام ولا وازع ديني يكفهم عن سلب الاموال والازواج ، بل كانوا يرثون النساء زيادة على عدم توريثهن ، كما قال الله تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها .) وكانوا يعضلون النساء ويمنعونهن من الزواج لاغراض خسيسة فنهاهم الله عن ذلك في مواضع من كتابه . وانما ذكرنا بعض اخلاقهم قبل الاسلام ليعلم من لا يعلم فضل الاسلام الصحيح عليهم وعلى كل من دان به من غيرهم . واما حالهم بعد الاسلام فهي اوضح واظهر من شمس الضحى يوم الصحو . فما الذي غير حالهم من التشتت الى الاجتماع ، ومن التخاذل الى التعاون ، ومن الجهل الى الحلم ، ومن الذل الى العز ، ومن الفقر الى الغنى ، ومن الخوف الى الامن ومن الضعة الى الرفعة والسيادة ، ومن الضعف الى القوة ، ومن الخمول الى الظهور ، ومن الفوضى الى النظام ، ومن تلك البقعة القاحلة الجرداء ، الى الاراضي المخصبة ، والجنات المثمرة ، والانهار المطردة ، والازهار الجميلة ، ومن البيوت الحقيرة ، الى القصور الشامخة في آسيا واوروبة وافريقية . وكيف صارت الدول التي كانت قبل اسلامهم هي الصالحة للبقاء لا تصلح الا للفناء ؟ الجواب ان علماء التاريخ وعلماء العمران وعلماء تطور الامم قد اتفقوا على امر وهو ان العرب بعد اسلامهم صاروا اقوياء اغنياء سعداء متمدنين ذوي دولة ونظام ، ثم اختلفوا فالعقلاء المؤمنون بالله قالوا ان السبب المباشر في ارتفاعهم من حضيض الهمجية الى سماء المدنية الفضلى هو الدين . واما الذين لا يؤمنون بالله وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون فقد اعتقدوا ان القرآن ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم نفخ فيهم روح الحياة وهذه الروح جعلتهم يتعلمون العلوم من الامم المغلوبة التي اندثرت مدنيتها وقد نسي هؤلاء او تناسوا القاعدة العظيمة وهي ان فاقد الشيء لا يعطيه .

وهذا القرآن وهذه الدعوة المحمدية ليسا من الاشياء التي كانت فبانت ، كما يتوهمه الجاهلون . وليسا من الفصائل الحيوانية والنباتية التي انقرضت وحلت محلها فصائل اخرى ولن تعود الى الوجود ابدا كما يريد الاستعمار القديم والجديد (رحم الله الملك الراحل محمد الخامس الذي انشا هذه العبارة) ان يعلمنا ، بل هما قوة باقية خالدة لا تزول ولا تحول . ولك ان تطلب الدليل البارز المشاهد وعلى ان ادلي به فاقول ... كيف نشات الدولة العثمانية ، ومن اين استمدت قوتها امن هولاكو وتيمور لنك وجنكيز خان ؟ لا والله فان هؤلاء كانوا غزاة متوحشين ، والتاريخ اصدق شاهد وانما استمدت قوتها ووجودها وصارت امبراطورية عظيمة استولت على آسية وقسم كبير من اوربة وافريقية من الاسلام . ودونك شاهدا غير بعيد

ولا منقرض بل هو قائم حاضر وهو المملكة السعودية.
كيف نشأت هذه الدولة في قلب الامبراطورية العثمانية وناهيك بما كان للامبراطورية العثمانية من الحول والطول وقد تصدت بجميع قواها الحربية والدعائية لتحطيم الحركة الدينية الاصلاحية التطهيرية التي اشرق نورها من قلب جزيرة العرب بجوار الحرمين الشريفين اللذين هما شريان الخلافة العثمانية ، لان اجل القاب السلطان العثماني (خادم الحرمين) وزوال هذا اللقب ينذر بزوال الخلافة ثم بزوال الامبراطورية وهو نتيجة محتومة لزوال الخلافة . ولذلك جمع الخليفة العثماني كل قواه ، وعبأ جيشه العظيم تحت قيادة محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا وزحفوا على الامارة السعودية بعد ما شنوا عليها حملات اقلام مضللة ، وتمكنوا من قتل رئيس الدولة السعودية ورئيس الامور الدينية بعد ما اسروهما وخربوا مدينة الدرعية التي كانت عاصمة للامارة السعودية ، وظنوا انهم قد قضوا على الحركة الاصلاحية الدينية والنهضة العربية التحريرية ، فخاب ظنهم ورجعت الحركة السعودية الدينية والسياسية اقوى مما كانت عليه . ولم تزل في تقدم واتساع حتى صارت اعظم مملكة في جزيرة العرب وما يليها الى حدود الشام والعراق . والمراد بجزيرة العرب في حديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال ... اخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب ... هو الحجاز ونجد . وهو الذي عنيت بقولي السابق .

وهناك شاهد ثالث من نوع آخر على ان الاسلام قوة عظيمة معنوية ومادية لمن تمسك به باخلاص : وهو ان جميع دول اوربا بملوكها وجيوشها غزت البلاد المقدسة فلسطين واوقدت فيها نار حرب بينها وبين المجاهدين من المسلمين دامت مائتي سنة وختمت بهزيمة تامة لدول اوربا . ومن قابل ذلك بحال فلسطين في هذا الزمان لا يجد مندوحة من الاعتراف بان الاسلام الصحيح قوة لا تقهر ، وان كل شعب سعد اسلافه وارتفعوا بالاسلام لن يسعد ولن يرتفع الا بما ارتفع به اسلافه . ومن ظن خلاف هذا فهو مخدوع يخبط خبط عشواء في ليلة حالكة ظلماء ومضمون له الخيبة والخسران .

وانما قيدت الدين بكونه صحيحا في اول المقال احترازا من الدين المبدل الذي لايقوم على القرآن بدون تنطع بل كما فهمته العرب في القرن الاول وسيرة الرسول والخلفاء الاربعة . واما الدين المبدل في العقائد والاخلاق والاحكام فلن ياتي بتلك الثمرة ابدا . بل قد يبلغ به التبديل والتغير الى ان يصير شرا وضررا محضا وياتي بعكس المطلوب . وبذلك يفسر نجاح الاستعمار وفشل الحركات الدينية التي تصدت لمقاومته . وانما الدين الاسلامي دواء وصفة طبيب نطاسي بارع في معرفة العلل النفسية للامم والشعوب. فمن خالف وصفة الطبيب في التركيب او الاستعمال فمن تلك المخالفة اتى لا من الدواء فهو صالح كما قدمنا شواهده لكل زمان ومكان الى ان ينتهي اجل هذا النظام الشمسي الذي نعيش فيه . وفي كلام برنارد دشو الانكليزي وديني الفرنسي وكارلايل وتولستوي وغيرهم من فلاسفة الغرب الاوروبي وحكمائه اعتراف صريح بما ذكرته . وبعد هذا التمهيد والبحث المفيد نخرج بالنتيجة التالية وهي . . ان الركن الاول من ثقافة العرب الذين نحن جزء منهم وثقافة المسلمين الذين يؤلفون الامة التي ننتمي اليها هو تعليم الدين تعليما عمليا عقديا اخلاقيا جديا من روضة الاطفال الى آخر سنة في الجامعة . وكل ثقافة تخل هذا الركن الاساسي او تقرره تقريرا لفظيا فارغا من معناه ومن العقيدة والعمل والخلق والجد والمعلمين الاكفاء فنتيجتها صفر على اليسار .

ومن زعم ان الدول الاوربية السعيدة القوية التي مضت على سعادتها وقوتها وتعاونها وثباتها في وثباتها ونجاحها في جهادها في حربها وسلمها مآت السنين قد هجرت الدين وكان ذلك سبب نجاحها فهو لا يخلو من ان يكون جاهلا مقلدا امعة قد استهداه الاستعمار الروحي وافقد فطرته وتفكيره ، او عالما بالحقيقة لكنه منافق مخادع يظهر خلاف ما يعتقد جبنا وخوفا من فوات رغبة شخصية او طمعا في رغبة جديدة تصل اليها نفسه الامارة .

على ان دينهم ليس فيه من الحياة والقوة والمطابقة للعقل والكفالة بسعادة الروح والبدن مثل ما في ديننا .

(لغة القرآن)

واذا تقرر ان الركن الاساسي من اركان الثقافة التي نحتاج اليها هو معرفة الدين الصحيح والعمل به والتقيد باحكامه والدعوة اليه فمفتاح هذه الثقافة هي لغة القرآن والسنة ، فبدونها لا يمكن ان نعرف هذا الكنز العظيم الذي خلفه اسلافنا من العلوم والاداب

الدينية والدنيوية . وهذا فرض مقدس على جميع الشعوب العربية والاسلامية وعلى قدر ادائه والتقدم فيه يكون تقدمها العام ، ولا افشي سرا اذا قلت اننا معشر المغاربة احوج الى هذا النوع من الثقافة من جميع الشعوب العربية لان لغتنا العامية اصابها من الفساد ما لم يصب غيرها من العاميات . فلا يوجد شعب عربي لا يميز في كلامه العام بين المذكر والمؤنث ويا للاسف الا الشعب المغربي الا قليلا من بواديه وقراه ، ولقد جاءني طالب مغربي يدرس في الكلية العسكرية من جامعة بغداد فقال لي ما معناه .. تعسا لهذه اللغة التي تعلمناها من آبائنا وامهاتنا، فاني قدرت على اصلاح لساني واخراج الحروف من مخارجها ، ولكن بقي في لساني عيب كبير يفضحني كلما تكلمت في مجلس من المجالس فتلاحظني العيون بنظرات الاستغراب فاذوب خجلا . الا وهو كسر تاء المخاطب المذكر في الافراد والجمع . اضف الى ذلك ان كثيرا من سكان المدن يعجزون عن النطق ببعض الحروف العربية كالثاء والجيم والسين والذال والشين والظاء والتاء . ولقد اجتمعت بالاديب الكبير الاستاذ احمد البلغيثي رحمه الله على ظهر باخرة بين السويس وجدة وتذاكرنا وتناظرنا وكان في المجلس جماعة من المغاربة منهم الاستاذ الحسن بوعياد ناظر الاوقاف بفاس وجماعة من اهل العراق فلما انفض المجلس تعجب العراقيون من نطق الشيخ البلغيثي لانه كان ينطق بالتاء فيحدث فيها صفيرا ورخوة كالزاي الالمانية وكما لو جمعت بين التاء والسين وكان ينطق بالثاء مثل ذلك فلم يفهموا كلامه فاخبرتهم بمكانته العالية في الادب العربي وان ذلك التلفظ هو الجاري في المغرب ، وهذا التلفظ قد بلغ الى تبديل آيات القرءان . فباذني سمعت القارىء يقرا قوله تعالى (الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) . فقلب الشين من كلمة (شاء) سينا والجيم من كلمة (مجذوذ) زايا ، فتغير المعنى وقد نقل القاضي عياض في كتاب الشفا الاجماع على ان من بدل حرفا من القرآن عمدا فهو كافر . وبقطع النظر عن هذا لا تهاونا به ولكن تنزلا وافتراضا فمن العار على اهل المغرب ان لا يعالجوا هذا الداء ويحسموا مادته ويسعوا في اصلاح المنطق . وقد قال الشاعر .

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقالت العرب .. المرء باصغريه .. قلبه ولسانه وتجويد القرآن فرض . قال بن الجزري في ارجوزته .

والاخذ بالتجويد حتم لازم
من لم يجود القرءان آثم
لانه به الاله انزل
وهكذا منه الينا وصلا
وهو ايضا حلية التلاوة
وزينة الاداء والقراءة
فواجب عليهم محتم
قبل الشروع اولا ان يعلموا
مخارج الحروف والصفات
لينطقوا بافصح اللغات

وانا اقترح على وزارة الاوقاف المغربية المحترمة ان تقوم بهذا الاصلاح وتقضي هذا الفرض بإيفاد الطلبة الى مصر ليتخصصوا في التجويد او تأسيس مدرسة هنا لهذا الفرض وتدعو لها الاساتذة الاكفاء من مصر . ونحن في زمان بلغت فيه عناية الامم المتقدمة بتجويد منطق لغاتها الى حد انها تدرس هذا الفن (فونتك) بالتصوير فتؤخذ صور الفم عند النطق بكل حرف . وتسجل الوف الكتب الناطقة بقراءة الفصحاء المكفوفين وغيرهم .

وسبب هذا النقص في منطق كثير من المغاربة كثرة المخالطة للاعاجم ، فقد استولى المغرب على اسبانيا وبقي مختلطا معها ثمانيمائة سنة ، ثم هاجر كثير من مسلمي الاندلس الى المغرب واختلطوا باهله. وقبل ذلك كان ملوك الدول المغربية تاتي بالاف الجنود العجم من اسبانيا الى المغرب فيندمجون في المغاربة مع مرور الزمن . واهل الاندلس ، وان كانوا قد بلغوا الغاية في الفصحى فان لغاتهم العامية كانت منحرفة ومعوجة وبعيدة من اللغة العربية الفصحى. انظر بحث اللغة من كتاب الاحكام في اصول الاحكام للامام بن حزم

ثم جاء الاستعمار فزاد في الطين بلة، وفي الطنبور نغمة . فاستعجم الشعب المغربي واستعمرت اللغة الفرنسية والاسبانية اللغة العربية وقضتا عليها قضاء تاما . وقد انجر بنا الكلام الى مشروع التعريب من غير قصد . ونحن مع استحساننا لمؤتمرات التعريب التي تنعقد في المغرب نرى ان التعريب له طريق آخر وهو بعث الطلبة للتمرين على مختلف الادارات المدنية والعسكرية في البلاد العربية . والى ان يتم تمرين العدد الكافي من الموظفين يجب استيفاد الموظفين من

البلاد العربية فى كل سنة عدد منهم يحل محل الموظفين العجم والمستعجمين الذين يتوجهون لطلب الاستعراب فى البلدان العربية . ولا ينبغي ان يفهم احد من كلامنا ان الشعوب العربية الاخرى قد قامت بواجبها كاملا مع لغة القرآن . فانها مقصرة كل التقصير ، ومتخلفة كل التخلف عن الامم الناهضة فى ميدان اللغات وآدابها تبعا لتخلفها فى الميادين الاخرى ، والمقام لا يحتمل التفصيل .

واقترح على وزارة التربية والتهذيب المحترمة ان تختار المعلمين الفصحاء والمعلمات الفصيحات من روضة الاطفال الى الجامعة وتلزمهم باصلاح السنة تلاميذهم وازالة ما ذكرناه من الفساد بعد ازالته من السنتهم اعني المعلمين انفسهم .

وكل تهاون بهذا النوع من الاصلاح يترك ابناء المغرب متخلفين فى اللغة العربية مستعجمين . واما العلوم العصرية واللغات الاجنبية فالافضل ان نأخذها راسا من اوربا وامريكا بلا واسطة . وذلك بايفاد البعثات من الطلبة للتعلم واستيفاد الاساتذة بقدر الحاجة والوسع . ولا ينبغي لنا ان نقتصر على شعب واحد من الشعوب الاوربية لا نتعداه ، بل ينبغي لنا ان نطلب العلوم العصرية فى بلدان مختلفة لنجمع خلاصة ما جد من الاكتشافات والاختراعات ونترجم ذلك بانفسنا وننقله الى لغتنا ونعلمه ابناءنا ، ولا نبقى اسراء فى يد دولة واحدة على لغة واحدة . ونحن نرى الشعوب الاوروبية نفسها تتبادل الطلاب والاساتذة ولا يستغني شعب منها بما عنده من العلوم وان بلغ الغاية فى الرقي والتقدم .

واهم شيء يجب ان نوجه اليه عنايتنا من العلوم العصرية العلوم التي تهيئنا الى استخراج الكنوز المخزونة فى ارضنا بانفسنا ونستغلها وننعم بها ولا نبقي منها شيئا مهملا ثم الصناعات والفنون التي نحتاج اليها فى معاشنا ونستورد على الدوام منتوجاتها من الخارج . ثم اعداد الموظفين الاداريين والمهندسين والاطباء والاخصائيين فى سائر الفنون . وينبغي لنا ان نراقب البعثات من التلامذة الذين يدرسون فى الخارج مراقبة كفيلة باداء المهمة التي سافروا من اجلها حتى يكون كل عائد منهم الى الوطن قد اتم دراسته واستعداده لان يحل محل الاستاذ او المدير او الموظف الاجنبي ويدير عمله بنجاح لا يقل عن نجاح سلفه بل يزيد . ويجب ان نحذر من بعث الطلاب غير الاكفاء مع عدم مراقبتهم فى مراحل دراستهم فى الخارج حتى لا يقضوا سنين عديدة تكلفنا نفقات طائلة ثم يرجعوا بخفي حنين او بشهادات ملفقة يحملونها ، حتى اذا كلفوا بالاعمال او الادارة او التعليم يظهر عجزهم وفشلهم . ويحكى ان امبراطور اليابان لما بعث البعثة الاولى من الطلبة الى اوربا قضوا مدة هناك على نفقة حكومتهم ثم رجعوا يحملون شهادات ليس معها معلومات تمكنهم من القيام بالاعمال التي يشغلها الاجانب فى بلادهم . فلما كلفوا بتلك الاعمال ظهر افلاسهم وعجزهم ، فامر الامبراطور بمحاكمتهم فظهر انهم مذنبون وحكم عليهم بعقوبات شديدة . ثم بعث البعثة الثانية وقضت المدة المعينة نفسها فلما رجعوا بشهادات معها علم وكفاءة حل كل واحد منهم محل موظف من الاجانب وقام بعمله خير قيام ، واني لاعرف رجلا درس الادب فى اوربا ثم درس فى جامعة عربية من اشهر الجامعات وتخرج بشهادة الدكتور فى الادب العربي ثم اخذ يدرس ادب اللغة العربية فوصل الى رسالة بعث بها عمر بن الخطاب الى معاوية ، جاء فيها (ولم آل جهدا فى النصيحة) فقال للطلبة يا عجبا . كيف دخلت لم على الاسم (فكلمة (آل) اسم ولم لا تدخل الا على الفعل المضارع فتحير الطلبة ايضا . ودعا بمعجم فأخذ يفتش فيه عن معنى الال فلم يجد ما يحل المشكلة . ثم ذهب الى كلمة (ءال) بكسر الهمزة فلم يحصل على شيء . وبقيت المعضلة على حالها حتى سألني احد اولئك الطلبة وقلت له : ان (لم) لم تنحرف عن سنتها ولم تسلك واديا غير واديها ولا ابتغت بالفها وهو الفعل المضارع بديلا ، وانما اتى صاحبكم من تبلد الذهن وسوء الفهم وخوضه فيما لا يعنيه . وآل فعل مضارع مجزوم بحذف الواو . وهذا الفعل من الافعال الشائعة الاستعمال وهو موجود فى القرءان فى سورة آل عمران (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايالونكم خبالا)

وقد آن لنا ان نمسك عنان القلم ، اذ لو تركناه لجرى اشواطا لا يحتملها المقام وبالله التوفيق .



كان الكتاب الذين قيضهم الله فى مبدا هذا القرن للدفاع عن الاسلام والمنافحة عن شريعته يجعلون مظاهر المدنية الحديثة وقوانين الاجتماع العصري هي مقياس النهوض والتقدم وغاية النجاح والفلاح ، ثم يعمدون الى شريعة هذا الدين الحنيف ونظمه السياسية والمدنية يوفقون بينها وبين تلك المظاهر ويلحقونها بهاتيك القوانين على دعوى ان بينهما وشيجة نسب ولحمة قربى تجعل الفارق بينهما معدوما والمشابهة قوية جدا ، فالاسلام هو روح المدنية، والمدنية الحديثة بالقصد ، واذا كان هناك ما لا يثبت امام هذه المدنية فهو النصرانية لا الاسلام ، وهكذا يمضون فى المقارنة والتطبيق وغاية قصدهم وجل مرادهم ان يساير الاسلام ركب الحضارة الغربية ، ولا يتخلف عنها فى شيء .

اما من يفكر فى ان الاسلام دعوة اسمى واعلى من ان تنزل الى هذا الحضيض الاسفل من مسايرة هذه المدنية الهلوك وانه نظام قدسي النزعات فمدنيته هي المدنية التي تكفل سعادة البشر فمن حقها ان يحكم بها ولا يحكم عليها فهذا قليل من قليل .

واما من يفكر فى ان النصرانية هي والاسلام شيء واحد لانها مثله دين سماوي جاءت لتعديل الانحراف الذي وقع فى اليهودية التي هي ايضا دين سماوي ، كما جاء الاسلام لتعديل النصرانية المنحرفة بموجب قوله تعالى : (وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) فهذا اندر من النادر ، ولعل الاستدلال على ان الاديان الثلاثة اصلها واحد وتابعة من عين واحدة هو مما لايعوز باحثا فى اصول الاديان ويكفي المسلم فى ذلك قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ، وبناء على ذلك فان كل طعن يوجه الى الاسلام وشريعته هو ايضا طعن على النصرانية والشريعة اليهودية التي ابتنتها النصرانية ولم تنقض منها شيئا ، فقد ثبت عن سيدنا عيسى عليه السلام انه قال : « ما جئت لانقض الناموس، الحق اقول لكم الى ان تزول السماء والارض لا يزول حرف واحد او نقطة واحدة من الناموس » والمقصود بالناموس هنا الشريعة الموسوية .

وبهذا النص من الانجيل احتججت على احد الرهبان الاسبان كان راكبا معي فى القطار الذاهب الى مدريد ، وانجرينا الحديث الى قضية الدين وكان ان اقنعته بالمنطق والبرهان فى كثير من المسائل التي اوردها علي وهو يرى انها مطاعن لا تقبل التأويل ولا الرد ، حتى اورد مسالة تحريم اكل لحم الخنزير فجادلته بكونه مستقذرا لاكله القمامة ، وبكون ضرره ثابتا طبيا لما يولده من الديدان الشريطية ، ولا سيما الدودة الوحيدة الخطرة فقال : ان الطب الحديث قد قضى على هذه الاوهام كلها ، وضحك ضحكة منكرة وقال : لو ان محمدا ذاق قطعة لحم من فخذ خنزير لما حرمكم من لذة اكل لحم هذا الحيوان الذي هو من اطيب اللحوم ، فقلت له انا نتذاكر فى دائرة الاوامر الدينية من حيث مطابقتها للعقل والمصلحة ، ومسالة تحريم اكل لحم الخنزير ليست خاصة بالاسلام فهي من قضايا دينكم ايضا وما يلزم عليها فى الاسلام يلزم عليها فى النصرانية فقال محال ، ان ديننا لا يحرم اكل لحم الخنزير فقلت له بلى ، انه يحرمه ، واستدللت عليه بكلام السيد المسيح المتقدم ، وقلت له : ما دام لحم الخنزير محرما فى شريعة موسى فهو محرم عليكم بهذا الدليل ، ولم يثبت ان سيدنا عيسى عليه السلام اكله ، فلم يحر جوابا .

ومثل هذا يقال فى مسالة الطلاق وتعدد الزوجات فانهما معا من شريعة التوراة وقد جمع الانبياء الاولون

بين عدة زوجات ولم يجيء عيسى عليه الصلاة والسلام بما ينقض ذلك ، فاذا كان النصارى قد خالفوا دينهم وسنة انبيائهم الذين يومنون بهم من امثال ابراهيم ويعقوب وداود عليهم السلام ، فاننا يجب ان نفتخر بتمسكنا بدين الله الذي شرعه لعباده ، ونقول للمنتقدين غير المعتقدين ما دمنا نتكلم فى دائرة الدين وحكمة التشريع الالهي : ان الاسلام هو ديننا ودينكم ، ما عبتم منه فانما تعيبونه على انفسكم وما نلتم من نبيه فكانكم تنالونه من انبياءكم ، واما اذا كنتم تنقدون الدين باطلاق لا بقيد كونه دين الاسلام فدعونا ننافح عن كلمة الله المقدسة وشريعته المطهرة، وننازل الزندقة والالحاد بما يزيفهما ويظهر عواريهما وحسبنا حينئذ ان نكون حماة الايمان ودعاة اليقين فى حين انكم تتظاهرون بمهاجمة الاسلام ونبيه عليه السلام وتبطنون الكفر والهرطقة وتبذرون بذور الشك والزيغ فى النفوس الطاهرة والقلوب النقية توسلا لزحزحتها عن اعتقادها السليم وابعادها عن دينها الصحيح .

لكن الكثير من اصحابنا الذين كتبوا فى موضوع الاسلام والمدنية لم يرتكبوا هذا الاسلوب ولم يسلكوا هذا الطريق فى المنافحة عن الاسلام ومنازلة خصومه الذين اكثروا عليه من التقول والبهتان وانما ذهبوا يلتمسون المعاذر والمخارج بعد ان ركزوا الدفاع على اصالة المدنية الحديثة ، وسلامتها من كل عيب ، فمثلا اذا عرض الكلام للمراة فى الاسلام وجاءت مسالة تعدد الزوجات ومسالة الطلاق ترى الاقلام تتبارى فى رد هذه (الوصمة) وتبرئة ساحة الاسلام من عهدتها ، فمن قائل ان القرءان لم يبح التعدد مطلقا ، ومن قائل انه قيده بقيود شديدة تجعله فى حكم المحظور لان الانسان لا يستطيع ان يفعله على الشرط الذي شرعه به الاسلام وهكذا من غير نظر فى لوازم هذه الاقوال ومفاهيمها يحرصون الحرص كله على موافقة التشريع الغربي ليكون ذلك تزكية للاسلام .

اما الطلاق فمنهم من يجعل له شروطا وقيودا ما انزل الله بها من سلطان ، ومنهم من يدعو الى ابطال انواع منه ، ومنهم من يدعي عدم وقوعه فى كثير من الاحوال ليوافق هذه المدنية الخلابة .

كذلك اذا عرض الكلام الى هذه المذاهب الاجتماعية الداعية الى العناية بافراد الامة ولا سيما الطبقات الفقيرة بتمريضهم وتعليمهم والترفيه عنهم فان كتابنا يذكرون الزكاة ويقرنونها الى النظم الاشتراكية ويضربون للاسلام – بارك الله فيهم – بسهم فى هذه الناحية ايضا من نواحي المدنية الحديثة.

ولا ننسى المذاهب السياسية ونظم الحكم والديموقراطية بالخصوص ، فكم اشاد كتابنا ايضا بموافقة الاسلام لها وجريانه على سنتها ، وكم قارنوا بينهما وطبقوا من جزئيات ليقولوا انها توامان لا يختلف فيهما اثنان .

اذا كان الرد على امثال كرومر وسكوت ورينان ونظرائهم اقتضى من كتاب الجيل السابق ان يسلكوا هذا السبيل فى النضح عن الاسلام ودحض اقوال خصومه فان كتاب هذا الجيل يجب ان يعرفوا مهمتهم وان يفرقوا بين الجواهر والاعراض ، والدرر والاصداف ، وان يقوموا لهذا الدين الحنيف بالدعوة اللازمة ويشيدوا باغراضه السامية ومثله العليا ويفهموا العالم ان مدنيته هي مدنية المبادىء الفاضلة والغايات الشريفة والنزوع بالنوع الانساني الى الكمال النفسي والخلقي واهدار الفوارق الجنسية والعنصرية وايثار الخير العام على المصلحة الخاصة ولو كانت لشعب كامل اذا لم تشمل غيره من الشعوب ، هي مدنية قائمة بنفسها لا تستظل بظل هذه المدنيات الزائفة الفاشلة ، وهي نظام الحياة السعيدة التي ارادها الخالق للمخلوق .

لا يحاولوا بعد الان ان يستروا محاسن الاسلام بهذه التاويلات البعيدة ، وليقولوا بمنتهى الصراحة ان تعدد الزوجات والطلاق مثلا هو تشريع اسلامي اصيل لا دخل فيه ولا دغل ، وهو وان لم يوافق (ما كان) عليه التشريع الغربي من استنكاره فاننا غير حريصين على هذه الموافقة ، واقول ما كان لان هذا التشريع اصبح يجري فى اثر التشريع الاسلامي فاباح الطلاق واباحه بكيفية اوسع مما هو عليه فى الاسلام ، وهو يجري ايضا فى طريق تقنين التعدد والاعتراف بشرعيته وان كان عمليا لم يخل من اقراره قط .

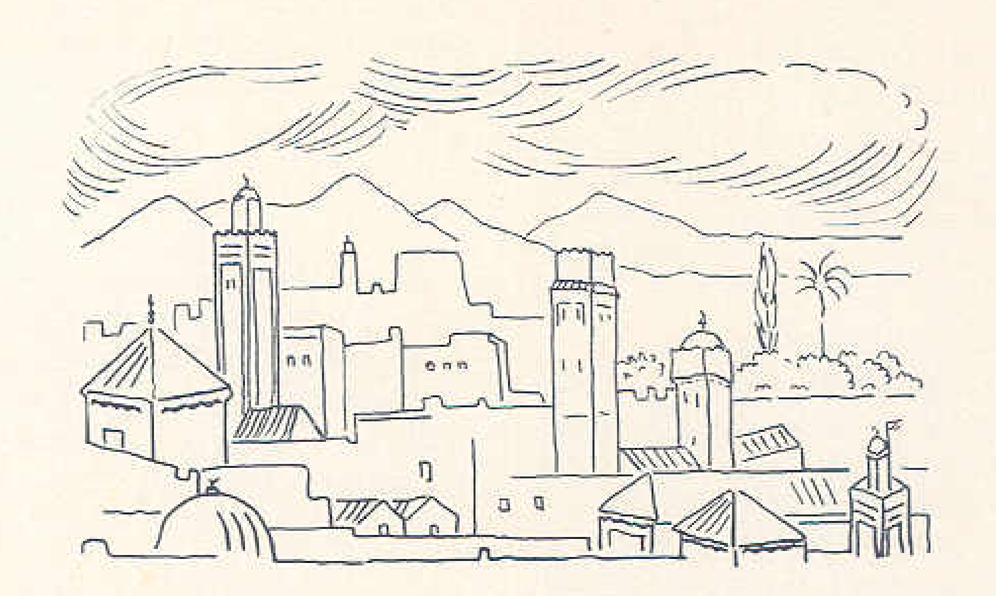
اما امر الزكاة فهو اعظم واجل من كل اشتراكية مدعاة ، هو ضمان اجتماعي يغبر فى وجه كل نظام تدعم به هذه المدنية الحديثة مجتمعها ، وقارن اي مجتمع حديث باحوال المجتمع الاسلامي ايام الخلفاء الذين

كانوا يعنون بجباية الزكاة وصرفها فى مصارفها . تدرك الفرق جليا بين المجتمع الاسلامي السعيد والمجتمع الحديث الذي يدمغه البؤس والشقاء .

وكذلك نظام الحكم فى الاسلام يجب على كتابنا الا يهينوه بمحاولة تنظيره بهذه الديموقراطية الكاذبة، هذه المحكمة التي لا ضمير لها الا الرشوة والتزوير، ولا قانون الا الميز والمحاباة .

هذه ... حرام ان يقاس بها النظام الذي جعل صهيبا وبلالا وسلمان فى مستوى واحد مع ابي بكر وعمر وعلي ، واقتص لقبطي من عامة الشعب من ولد فاتح مصر وحاكمها العام عمرو بن العاص صادرا فى ذلك عن شعاره التعايش السلمي وتقديره لقيمة الانسان ، وهو ما جاء فى الاية الكريمة ـ (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) .

ان الاسلام له مدنيته الخاصة ، وهي فوق المدنيات ولكن كتاب هذه المدنية ما زال لم يكتب منه حرف ! ...





طالما تحدث المغاربة الواعون عن الجمود الفكري الذي خيم منذ زمان ولا زال يخيم على بلادهم، وطالما نددوا بهذا الجمود والقوا تبعته على المثقفين ، سواء منهم من تخرج من المدارس الاروبية او من تلقى ثقافة عربية محض ، وكم استصراخ وجه الى اولئك المثقفين ، وكم آمال علقت عليهم ، ولكن الجمود الفكري هو ، هو ، والميدان يظل فارغا قفرا لاتبدو فيه ادنى حركة .

والحقيقة ان المسؤولية لايمكن ان تلقى كلها على المثقفين فهنالك ، كما سنرى من خلال البحث ، عوامل كثيرة تمنعهم من اداء مهمتهم .

والواقع ان الموضوع لا زال لم ينل حظه من الدرس والعناية ، فجل من تعرضوا له ، اما اخطأوا الطريق واعوزهم التحليل الدقيق ، فلم يستطيعوا النفوذ الى عمقه ولمس عناصره الجوهرية ، واما نظروا اليه نظرة جزئية ، فاستحال عليهم ان يحيطوا بجوانبه ؛ ذلك انه موضوع معقد ، متشعب ، فهو يتصل بحياة امة ، بل بحياة مجموعة من الامم وبتاريخها ومشاكلها القائمة .

فالامر لايتعلق هنا بمسالة ثانوية او جزئية ، ولكن بشان ذي خطورة واهمية ، فالحياة الفكرية النشيطة ، كما يشهد التاريخ ويقرر علماء الاجتماع ، من لوازم كل مجتمع سليم ، بحيث ان التوازن يختل في المجتمع اذا اعوزه عنصر التفكير واذا لم توجد فيه طائفة صالحة من الافراد يكرسون اوقاتهم وجهودهم للتفكير في سائر الشؤون التي تهم بيئتهم .

اذا نظرنا الى الموضوع من هذه الزاوية ، يتضح لنا انه اصبح من الواجب الوطني ان نوجه اهتمامنا لهذه الظاهرة الخطيرة ، ظاهرة الجمود الفكري ، ونسعى في البحث عن علاج لها .

نعم ، ان الجمود الفكري هو علة العلل ، وهو الذي يفسر كثيرا من اخطائنا ومواطن ضعفنا ، وهو الذي يجعلنا فاقدين لهذه الملكة الضرورية لكل تقدم وهي ملكة النقد الرصين الحر النزيه ، وعواقب الجمود الفكري لاتنحصر في دائرة حياتنا الثقافية والعقلية ، بل ان لها آثارا عميقة في سائر ميادين حياتنا القومية ، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية .

ان الجمود الفكري هو في الحقيقة عنوان عن موقف سلبي من الحياة ، انه رفض للحياة ، فعدم جراتنا على المشاريع الجديدة المنتجة ، وانكماشنا ، بل وانطواءنا على المالوف والمعتاد ، وانسياقنا مع العواطف العابرة والاهواء السهلة الفارغة ، كل ذلك انما هو ناتج عن حياة فكرية راكدة وعن عدم شعورنا واقتناعنا بضرورة التجديد .

النظام الاجتماعي والجمود الفكري :

ان التخلف الثقافي الذي يعيش فيه المغرب منذ قرون ما هو في الحقيقة ، الا صورة من صور الانحطاط الذي مني به العالم العربي والاسلامي منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، فقد حمل هذا العالم مشعل الحضارة ردحا من الزمان وساهم مساهمة ايجابية في تنمية المعارف وتقدم العقل البشري ، ولكن ما مرت عليه قرون حتى داخله الضعف وتمزقت وحدته السياسية وخارت قواه المعنوية والحربية ؛ فطمع فيه الاعداء ، واغار عليه المغيرون ، واذلوه بعد ان كان عزيزا ، وطمسوا معالمه ، فاذا المدن والحواضر التي كانت منارات يستهدي بها الناس تصبح وقد ضاع بها العلم وقل المتعاطون له ، وغدت البقية الباقية من العلماء يقصرون كل همهم على حفظ ما ورثوه من الاجداد وتحريم كل محاولة للاجتهاد

والابتكار والتجديد ، وكل من حاد عن سكتهم رموه بالكفر والالحاد واضطهدوه ، وكثيرا ما يؤول امره الى التعذيب والقتل .

وهكذا ، ماتت شيئا فشيئا الحريات النسبية التي كان يتمتع بها رجال العلم والقلم في ابان نهضة الامم العربية والاسلامية ، وقد امتدت هذه الموجة من الانحطاط والتدهور الى المغرب ، فجفت به الاقلام الا من النسخ والتنميق والتزويق ، ونامت القرائح الا عن حفظ بعض المتون والنصوص القديمة.

فتخلف المغرب داخل ، اذن ، في نطاق تخلف العالم الاسلامي ، متصل بحركته التطورية بين مد وجزر ، ورقي وانحطاط .

وهذا التخلف الذي يشخصه الجمود الفكري في ابرز مظاهره ، ما هو الا الثمرة المرة لتدهور المجتمع العربي الاسلامي ونزوله نحو نظام جامد محافظ معاد بطبعه وفلسفته لكل تجديد وابتكار .

وقد بدا المجتمع الاسلامي كمجتمع ثوري يريد ان يتخلص من كل عوامل الفساد والظلم ويريد ان يضمن للانسان كرامته وبعض حقوقه ، فاخرج البدو الرحل من باديتهم وعلمهم كيف يصيرون حضرا ويؤسسون مدنية امتزج فيها كل التراث الحضاري للانسانية ، وبعث فيهم الشعور بانهم امة بعد ان كانوا لا يؤمنون الا بالقبيلة ، واستطاع نوعا ما ان يخلق المساواة بين الناس ويحاول القضاء على نظام الطبقات .

هذه القوة الثورية هي التي مكنت الدولة العربية من بناء مدنية طريفة كاملة تقدمت فيها الآداب والعلوم والصناعات وانواع التجارة .

ولكن ، ما مرت قرون حتى بدا هذا المجتمع يفقد عوامل قوته ، وينسلخ رويدا رويدا ، تحت ضغط القوات الاقطاعية والفوضوية التي تبعث في كل اركان العالم العربي ، من روحه الثورية المتحررة ، وهكذا ، تمزقت وحدة ذلك العالم ، وتقسم الى دويلات وامارات صغيرة تعيش فيما بينها في صراع دائم .

وجاءت حوادث التاريخ الكبرى مثل غارة المغول في الشرق ، وضعف الدولة العربية في الاندلس ، فاجهزت على البقية الباقية من تلك الروح المتوثبة للحياة ، وغدا المجتمع العربي ، سواء في المغرب او في غيره ، يعيش في نظام جديد مخالف في روحه وشكله لما كان عليه في الاول .

هذا النظام الصفة الغالبة عليه هي التفكك والانحلال ، فمن جهة ، نجد في البلد الواحد مناطق تسود فيها الاقطاعية بكل اشكالها ، ومناطق اخرى تستفحل فيها الروح القبلية ووسط الجميع مدن وحواضر تعيش في شبه انعزال مع الارياف المجاورة ، ويكاد يتحول هذا الانعزال في بعض الاحيان الى عداوة ، ومن جهة اخرى ، نجد في نفس البلد السلطة المركزية عاجزة عن بسط نفوذها على مجموع التراب وذلك نتيجة لما اصيبت به من ضعف وقلة راي وانعدام وسائل ، والذي زاد هذا المجتمع رسوخا في تدهوره هو النظام الاقتصادي الذي عاد الى نوع من البساطة البدائية واصبح اثر الدولة ضعيفا في توجيهه وتنظيمه ، فهو ، في معظمه ، يستند على الفلاحة بشكلها الاقطاعي سواء في الزراعة او تربية المواشي ، اما الصناعات فقد ظلت تسير على نسق عتيق ولم تستفد قط من المكاسب العلمية التي ظهرت في اوربا ، ولهذا فقد كان شانها ضعيفا مما جعل الغلبة كل الغلبة للجانب الفلاحي ، وهذا ما قد يفسر لنا ، ولو جزئيا ، غلبة النزعة المحافظة في ذلك المجتمع.

روح الماضي وتيار التجديد :

هذه الصورة عن المجتمع كنا نجدها في المغرب الى بداية هذا القرن ، ونحن لو انتقلنا الى سبعة قرون من قبل اي الى نهاية دولة الموحدين ، سنجد انفسنا امام نسخة طبق الاصل لتلك الصورة ، بمعنى ان الانحلال الاجتماعي ظل سائدا طوال تلك المدة ، وهذا رغما عن بعض الفترات التي كانت الدولة تستعيد فيها شيئا من قوتها .

والحقيقة ان هذا النظام ما كان ليدوم عمره طويلا لولا ان الابواب ظلت موصدة كلها امام التاثيرات الآتية من الخارج ، ولولا نشوء عقلية محافظة اشد ما تكون المحافظة ، متعصبة اقوى ما يكون التعصب ضد كل ما يمثل الحضارة الاروبية ، فقد كان الحجاب مفروضا على المجتمع كما كان مفروضا على المراة ، فهو نظام ضعيف مزعزع الاركان لا يثبت للحوادث ولا يصمد امام عوادي الزمان .

وهذا ما قام عليه البرهان لما اخذ الاستعمار يغزو بلادنا ، ويستولي عليها جزءاجزءا ، فسرعان ما انهار ذلك النظام وادرك المغاربة بالتجربة والعيان انه لايغني عنهم شيئا لما دهمتهم الخطوب ، وبانهيار ذلك النظام بدات تنهار معه العقلية الناشئة عنه .

واخذنا نكتشف يوما بعد يوم آيات جديدة للتفاوت الكبير بين ضعفنا وقوة الخصم ، بين جهلنا وعلمه ، بين فوضويتنا وروحه التنظيمية ، واقتنعنا بان لابد من ان نتعلم عليه ونقتبس منه ان كنا نريد النهوض ببلادنا .

ولكن هذا الخصم الذي نريد ان نستفيد من معرفته وخبرته هو في نفس الوقت الخصم الذي يستعمرنا ويستغلنا والذي نريد ان نناهضه ونكافح ضده .

وهذا ما نشا عنه رد فعل ادى الى تناقض في موقفنا الجماعي ، فنحن ، من جهة ، مقتنعون ، عن طريق التجربة والمعاينة ، بان نظامنا الاجتماعي العتيق والعقلية الناشئة عنه قد افلسا كل الافلاس ولم يعودا صالحين لامة تريد ان تعيش حياة العصر ، ولكننا ، من جهة اخرى ، وجدنا انفسنا مضطرين للدفاع عن كياننا وشخصيتنا القومية امام الاستعمار ، مما دفع بنا الى التمسك بذلك النظام او على الاقل ببعض جوانبه والى التشبث بماضينا وتقاليدنا ، ومعنى هذا ان الشعور الوطني هو الذي حدا بنا الى التعلق ولو عاطفيا ونظريا بالماضي وما ينطوي عليه من افكار ومثل وعقلية .

بحيث ان مجتمعنا اليوم يتصادم فيه تياران : تيار عقلي علمي يرى في التجديد ضرورة حيوية ، وفي التحرر من تاثير الماضي ورواسبه والاتجاه كليا نحو المستقبل الوسيلة الكفيلة وحدها بتحقيق نهضة شاملة ، وتيار عاطفي يرتكز على الماضي وامجاده ويستخرج منه المقاييس والامثلة لاعمالنا في اليوم والغد ، فالتيار الاول يجذبنا نحو التجديد ويدعونا الى الجراة على ماضينا والتمرد عليه في حدود المعقول، بينما التيار الثاني يريد ان ينحو بنا نحو مجتمع محافظ منطو على نفسه وماضيه ويرى البدعة المضرة في كل محاولة اصلاح وتغيير .

فأي التيارين له الغلبة الآن ؟ .

يظهر ان كل واحد منهما له الغلبة في ناحية معينة ، فاذا اعتبرنا الحياة الواقعية العملية ، نجد ان الحضارة العصرية فرضت نفسها فرضا على الجميع ولم يبق هنالك ما يناوئها ، واكبر المجادلين في تلك الحضارة والمستنكرين لها لا يتورعون عن الاستفادة من وسائل رفاهيتها ومخترعاتها ، فيركبون السيارة وينصتون الى الراديو ويتفرجون على الافلام السينمائية .

ولكننا اذا اعتبرنا الحياة الفكرية مجردة ، نجد ان تيار الماضي لا زال له الاثر القوي البالغ في توجيه افكارنا وتكييف عقليتنا ومفاهيمنا ، وهذا ما يجعلنا نشعر في اوقات الوعي واليقظة باننا نعيش في ركود

والحقيقة ان هذا الوضع انما هو موقت ، فلن يطول امد هذا التناقض بين حياتنا الواقعية العملية وحياتنا العقلية ، فلابد من ان يتغلب في النهاية الواقع على الخيال والجديد على القديم ، تبعا لقوانين التطور وسننه .

الركود الفكري :

هذا الركود الفكري نلمسه اول ما نلمسه في حياتنا الاجتماعية العادية التي هي في الحقيقة المرآة الصادقة لمستوانا العقلي ، وفي هذا النطاق الجماعي العادي يصبح الركود الفكري عيبا قوميا ينال من كيان الامة وقوتها ، لانه يتجلى في سائر فروع الانتاج الذي يعبر عن حيويتها ونشاطها ولا ينحصر في دائرة الادب والعلم والفلسفة اي دائرة الثقافة ، فهو يتجلى في انتاج الصانع وفي الحان الموسيقار كما يظهر في اللباس والمآكل .

ولننظر مثلا الى هندستنا المعمارية ، فالتاريخ يشهد على انها لم تتغير عما كانت عليه في الاندلس منذ قرون عديدة ، وصناعتنا التقليدية لم تخرج عن نماذج وضعت لها منذ اجيال ، والموسيقى التي نعيش عليها هي تراث تلقيناه من الاندلس ، وكان كل فضلنا هو الاحتفاظ به .

فاذا انتقلنا الآن الى ميدان الثقافة بمعناها الضيق ، يتشخص لنا الركود الفكري في الحرب التي اشهرها اجدادنا على كل جديد وابتكار ، لقد اقفلوا ابواب الاجتهاد امام المتاخرين من العلماء والباحثين

ورموا بالكفر كل من حاول الاستعانة بعلم الاوروبيين او باساليبهم التقنية ، بحيث كنا نعيش ونحن اقرب الناس جغرافيا الى اوروبا وهم في واد ونحن واد ، فلا نستفيد من علمهم ولا من فنونهم الصناعية ولا من اساليبهم الحربية .

حقا ، لقد استيقظنا الآن وتغيرت نظرتنا الى الاشياء واخذنا نقلع بعض الشيء عن عبادة الماضي ونتجه بانظارنا نحو المستقبل ، عملا بقول الرصافي :
فخير العالمين ذوو حسب قديم

اقاموا لنفسهم حسبا جديدا
ولكن ، هل معنى هذا اننا تحررنا من الركود الفكري ؟ انه ليس من السهل تغيير العادات التي رسخت منذ قرون وتحويل عقلية اشتركت في تكوينها اجيال واجيال .

فكتابتنا اليوم ، مثلا ، لا زالت متأثرة بتلك العقلية ، واكثر من يكتبون يؤثرون المواضيع التاريخية على غيرها ، فالماضي ما فتيء يستحوذ على افكار الناس ولا زالوا يحبون الحياة معه وفي جوه ويغرمون باستعراض صوره اللامعة والوقوف باجلال وخشوع عند عظمائه .

ونحن عندما نسجل هذه الظاهرة بكل موضوعية ، لا نتنكر لماضينا ولا ننكر ما فيه من صفحات مشرقة مشرفة ، ولا يخطر ببالنا ان نعتب على اي احد انصرافه الى التاريخ واشتغاله به ، بل نود ان يكون لدينا مؤرخون جديرون بهذا الاسم .

ومن ذلك فلابد من ان نلاحظ ان نسبة الجهود التي نصرفها في سبيل الماضي هي اكثر مما يجب ونظرة واحدة على المجلات التى صدرت بالمغرب في السنوات العشرين الاخيرة تبين لنا كم يشغله التاريخ من صفحات وصفحات بينما شؤوننا الحالية ومشاكل مستقبلنا تظل في الغالب مهملة او منسية ، وكذلك الكتب التي لها قيمة واهمية ، فجلها عن التاريخ والتراجم والسير .

ينبني على ما تقدم ان سلم القيم الفكرية والروحية عندنا ليس له اساس منطقي واقعي يتلاءم وحاجياتنا الاولى وضرورات تطورنا ، وانما يستند على اساس عاطفي ، نحن نعلم علم اليقين مقدار حاجتنا الى التجديد والتطور ، ومع ذلك ، فنحن نضع في قمة هذا السلم الماضي ، لان حبنا له يتغلب على ما سواه .

الحرية بين ضغط المجتمع وضغط الاستعمار :

اذا اعتبرنا ان الشرط الاساسي والضروري لكل نشاط فكري هو الحرية قبل كل شيء ، فقد رأينا في الصفحات السالفة كيف ان روح الماضي حد من الحرية في بلادنا وضيق المجال امام كل رواد التجديد ودعاة النهوض والانبعاث ، وانه لمن الطبيعي ان يقع مثل هذا التصادم والتفاعل بين الماضي والحاضر ، وبين التقاليد والحرية ، وبين الجيل القديم والجديد ، فتلك احداث لاينكرها علم الاجتماع، بل انه يعتبرها حلقة ضرورية من حلقات التطور التاريخي .

بيد انه انضاف الى جانب اثر الماضي في كبت الحريات ، تاثير آخر ناشيء عن الاستعمار ، الا ان تاثير الاستعمار كان تاثيرا مقصودا منظما يهدف الى تمكين حكم ، وصيانة مصالح ، وهكذا ، فقد عدمت الحياة الفكرية انطلاقتها طول مدة الحماية ، مما ضاعف الفراغ الفكري في البلاد وثبط كل عزيمة ساعية للانشاء والخلق والابتكار .

وبالجملة ، فقد كانت الحريات التي هي الشرط الاساسي لكل تجديد وابتكار ، مكبوتة بين التاثيرات الاتية من النظام الاجتماعي وضغط الحكم الاستعماري .

ونحن لو سلمنا جدلا بان مشكلة الحرية لم تكن موضوعة وانه كان من الممكن ان يتقدم افراد من هذا المجتمع ليعلنوا الدعوة الى التجديد ، فان هذا وحده غير قادر على تحويل فتورنا الفكري الى قوة وحيوية، فالحرية شرط ضروري ولكنه غير كاف ، فهنالك مسألة المناخ الاجتماعي الذي يعيش فيه المفكر والكاتب ، فالفرد مهما كان حظه من العبقرية والنبوغ، اذا اصطدم بواقع اجتماعي معاكس لطموحه ، مميت لقريحته ، فانه لن يستطيع الصمود مدة طويلة ، وسرعان ما يتسرب اليه الركود العام .

حيرة الكاتب وعزلته :

والاوفق للحقيقة ان نقول ان رجل الفكر في هذه البلاد يعاني حيرة دائمة لايجد سبيلا للخروج منها ، فهو امام المتناقضات التي يعيش وسطها لا يستطيع ان يوفق بين ما يهديه اليه العقل والمنطق وبين الواقع الذي يحيط به ، بين ما يراه كمثل اعلى وبين عقلية مجتمعه ، وهو واقف وسط الطريق لايدري اياخذ براي المعتدلين والمحافظين الذين لايقبلون التطور الا بمقدار وفى نطاق محدد أم ينساق مع تيار التجديد ، فيوجه عنايته الى المستقبل ويقبل على الحضارة الغربية بدون تحفظ ليفهمها ويهضمها وياخذ منها الامثلة .

فان قيل له يجب التوفيق بين الاثنين ، ازدادت حيرته وكثر بلباله ، فماذا ياخذ من هذه ويترك ، وماذا يقتبس من تلك وينبذ ، فالمقاييس في هذا الباب تكثر وتختلف .

على ان المشكلة ليست موضوعة فقط بهذه الصورة المجردة البسيطة ، بل ان الكاتب حين يكتب يصادفها بطريقة مباشرة وبصورة اعنف ، فأي الجمهورين من القراء سيخاطب ؟ جمهور الذين لم تتجاوز ثقافتهم الجاحظ والمتنبي والحريري والمنفلوطي والرافعي ؟ أم جمهور الذين الفوا ان يقرأوا « سارتر » و « فولكنر » و « بريشت » والذين قلما يجدون فى الانتاج الادبي باللغة العربية غذاء لفكرهم ؟ فالتنافر بين هذين الجمهورين لا يزيده الا حيرة وترددا .

وقد كان من الممكن ان يجد لنفسه عزاء لو استطاع ان يضرب صفحا عن طبقة المثقفين بنوعيها القديم والحديث ليتجه نحو الجمهور بمعناه الواسع اي جمهور الشعب ، فيكتب له بالاسلوب الذي يفهمه ويؤلف له الروايات والمسرحيات وما الى ذلك ، ولكن، فى هذه الناحية ايضا ، يتجنى عليه الحظ .

ذلك انه لم يوجد بعد عندنا الجمهور الشعبي الذي يقرا ويقتني الكتب والمجلات ، ولم تتهيأ الظروف الكفيلة بايجاده ، فانتشار التعليم وتعميمه لايزال عندنا فى البداية ، ومن المعلوم ان الاستعمار عمل على إن يكون التعليم من حظ اقلية صغرى ، فكيف ينتظر لكاتب ، مهما جادت كتابته وراقت ، ان يصادف ما هو جدير به من نجاح لدى جمهور امي ؟ .

الا اننا سنكون غير منصفين اذا القينا المسؤولية كليا على الجمهور ، فالكاتب من جهته يتحمل نصيبا من المسؤولية ، انه ، اولا ، لايظهر استعدادا كافيا للنزول نحو الجمهور والتعرف اليه ومخالطته والاطلاع على واقعه ، ولعله لازال متأثرا بتلك العقلية الارستوقراطية التي توحي اليه بان الكاتب انما يكتب لطائفة خاصة من الناس ، هم الطبقة الراقية فى المجتمع ، او لعله يعتقد ان الحقيقة لا يمكن ان تنبثق فى فكره الا اذا انزوى فى برج عاجي بعيدا عن ضوضاء الناس وجلبتهم .

وسواء كان هذا او ذاك ، فالذي يجب اعتباره هو ان الحقائق الانسانية التي هي هدف كل تفكير ، لا يمكن ادراكها بهذه الطرق ، ولا سبيل للحصول عليها الا اذا خالط الكاتب مجتمعه مخالطة صادقة لا غش فيها ، وعرفه المعرفة الشاملة الواسعة ، وليس من الممكن ان ينتج الكاتب تفكيرا حيا اذا لم يستمد عناصره من واقع الحياة ويعيش مع الاحياء ويؤاخيهم حقيقة ، ويقاسمهم سراءهم وضراءهم ، واي فائدة ينطوي عليها تفكيره ان خص به اقلية من الناس ؟ واي معنى يبقى لمهمته الاجتماعية والانسانية اذا وضع نفسه فى خدمة طبقة معينة .

ولربما كان الكاتب عندنا لا ياخذ هذا الموقف عن تعمد واختيار ، وانما يلجأ اليه انسياقا مع العادات والافكار الموروثة وخوفا من ان يخرج عن المالوف فيتهم بالشذوذ والتطرف .

ومهما يكن ، فان الوضعية التي يوجد فيها والتي راينا بعض جوانبها تجعله يعيش فى عزلة خطيرة ، فهو لايجد محله المعين فى المجتمع ويشعر بانه مثل الطفيلي لايكاد يجد مكانه وسط الناس الا بمشقة ، فلا جمهور خاص يقبله ويقبل عليه ، ولا جمهور شعبي يتجاوب معه ، ولا سهولة فى الاتصال بالمجتمع والاندماج فيه .

دور الدولة :

وقد كان من السهل عليه ان يتقبل وحدانيته بصبر لو انه وجد التفاتا كافيا من الدولة وعطفا فعالا، ومن شان الدولة ان تتدارك النقص الآتي من المجتمع ، ولكن حظه عاثر هنا ايضا .

فاين هي الاموال التي تنفق في سبيل تشجيع النابغين من حملة القلم ذوي الفكر ؟ واين هي المساعدات المادية التي تخول للعلماء والادباء ان ينشروا ابحاثهم وكتبهم ؟ .

قد يكون للدولة اسباب قاهرة تبرر اهمالها لهذا الموضوع ، وقد يكون تراحم المشاكل وكثرتها تجعلها ترجيء النظر في ما تعتقده كماليا او ثانويا ، ولكن الشيء الذي لامراء فيه هو ان النهوض الفكري بالمغرب في هذه المرحلة الراهنة لايمكن ان يتحقق اذا لم تول الموضوع بالغ اهتمامها وتبذل بسخاء عطفها ومساعدتها .

ونحن نعرف من تاريخنا القديم ما للتشجيع الرسمي من اثر على الحياة العقلية ، فمتى وجد بعض الملوك والوزراء والكبراء الذين يقدرون العلم ورجاله ، نشطت الحركة الفكرية في المغرب ، وهذا ما يلاحظ بالخصوص في عهد الدولة الموحدية ودولة بني مرين .

ولا يؤخذ على مثل هذا التشجيع في عهودنا القديمة الا كونه ذا صبغة فردية ، فهو مرتبط باشخاص تحركهم اريحية او طموح ، فاذا مات اولئك الاشخاص ولم يجدوا من يخلفونهم في سيرتهم، مات معهم التشجيع وركدت الحركة الثقافية .

ولهذا ، فالتشجيع كما يجب ان نفهمه اليوم يجب ان يكون مقررا في انظمة الدولة ورسومها ، معززا بتشريعاتها وضوابطها حتى لايختلف شأنه باختلاف الاشخاص وتغير الاوقات .

مظاهر الركود الفكري :

فالركود الفكري ناتج ، اذن ، عن هذه الوضعية الشاذة التي يعيش فيها الكاتب ، وابرز مظاهره هي :

1) **ضآلة الانتاج الادبي والثقافي بصفة عامة :** فباستثناء بعض الابحاث والكتب التاريخية ، لا نعلم ان دور النشر في المغرب او خارج المغرب اصدرت كتبا ذات قيمة في موضوعات اخرى لكتاب مغاربة ، الى جانب هذا ، نلاحظ ندرة المجلات العلمية والادبية التي تبين اكثر من الكتب مقدار تطور الافكار وتجددها وحيويتها .

2) **عدم وجود مجتمع ثقافي :** كل طائفة تساهم في نشاط الامة تكون مجتمعا خاصا بها ، ولنذكر على سبيل المثال مجتمع التجار ومجتمع الفلاحين ، ويدخل في عداد هذه المجتمعات الخاصة مجتمع رجال الثقافة والفكر ، ويرتكز وجوده وحيويته على الاندية الثقافية باختلاف اشكالها وانواعها ، وعلى المجامع العلمية والادبية التي تضم نخبة من العلماء والادباء والفنانين وعلى الندوات والمناظرات والمؤتمرات التي تنظم باستمرار ، وليس من المبالغة القول بان هذا المجتمع لا وجود له البتة في بلادنا .

3) **مظاهر داخلية للركود الفكري :** هنالك مظاهر اخرى تبرهن على الركود الفكري ، ولكن من داخل هذا الانتاج الضئيل الهزيل الذي تحدثنا عنه .

ونشير اولا الى غلبة التقليد والمحاكاة على الابتكار ، ومعنى هذا ان كتابنا لايحاولون ان يتجاوزوا ما توصل الغير اليه من افكار ، فهم لايبذلون المجهود الا من حيث الصياغة والتعبير .

وهذا الشغف بالصياغة يجعلنا نلمس ظاهرة ثانية للركود وهي ولوعنا باللفظ وتنوعنا به ، وفي هذا المعنى يقول الكاتب الجزائري «مالك بن نبي» في كتابه «رسالة الاسلام» ما نصه :

« لاعجب اذن من كون التفكير العربي الحديث لم يكتسب بعد روح الفعالية فان طغيان الالفاظ والاساليب تطبع كل مظاهر الانبعاث العربي بطابع السطحية » .

اجل ، لقد عودتنا اللغة العربية ان ننساق وراء الفاظها المتراصة وعباراتها المتوازنة المنسجمة ، مما يبعدنا احيانا عن الواقع ويفسد علينا كل عمل ويجعلنا ننهمك بنوع من اللهفة في ذلك الاسلوب الخطابي الواسع السهل الذي لاينتهي ، مع ان هذه الظاهرة دليل ، واي دليل ، على الجمود الفكري .

امكانيات العلاج :

قد يتبين من خلال هذا التحليل ان هنالك وضعا محتوما يفرض علينا في الساعة الراهنة ان نقنع بهذا الفراغ الفكري لانه ليس في طوقنا ان نخرج عنه ، وهذه فكرة ليست ببعيدة عن الحقيقة كل

البعد ، اذ ليس من الميسور علينا ان نمحو في سنوات قليلة الآثار العميقة التي خلقتها في نفوسنا وفي مجتمعنا عوامل دامت عدة قرون ، فلا بد لسنن التطور من ان تجري مجراها .

ومع ذلك ، ففي طوقنا نحن ان نساعد هذا التطور على السير بسرعة حتى لايطول بنا امد هذه المرحلة ، مرحلة الركود الفكري .

وقد راينا منذ البداية ان الداء ياتي من النظام الاجتماعي الذي ساد في المغرب منذ قرون ، فالعمل الاول ، اذن ، هو السعي لتغيير هذا النظام بالسرعة الممكنة ، وقد اخذ يتغير ، بالفعل ، اذ نرى مجتمعنا الفلاحي يتحول شيئا فشيئا نحو مجتمع مرتكز قبل كل شيء على الصناعة .

وغير خاف ما يصاحب هذا التحول من تغيير في العقلية وانقلاب في الافكار وتقدم في ميادين الثقافة والعلم ، فالصناعة تتطلب وجود اطار تقني يتوفر على المعرفة والمهارة ، وهذا لايكون الا اذا نما التعليم ، وخاصة فروعه العلمية والتقنية ، وانتشر على نطاق واسع وبلغ مستوى رفيعا .

فالمسالة تنحصر ، اذن ، في الاسراع بخلق مجتمع صناعي وذلك بتاسيس الصناعات على اختلاف اشكالها وانواعها ، وهو عمل يجب ان تساهم فيه الدولة باوفر نصيب .

ناهيك بما سيكون لانتشار التعليم من تكوين جمهور ضخم من القراء يمتاز بوعي وادراك ويشعر بالحاجة الى المزيد من الاطلاع ، والتعليم ، حسب قيمته وجودته واتجاهاته هو الذي سيرتفع او ينخفض بمستوى التفكير الجماعي ، وما علينا الا ان نستعرض بعض الاقطار الاروبية لنرى كيف يتفاوت فيها مستوى التفكير الشعبي وهذا التفاوت يرجع الى روح التعليم ومحتواه وقيمته في كل قطر من تلك الاقطار .

على ان للدولة الى جانب هذا وذاك وسائل اخرى للنهوض بالحياة الثقافية ، وذلك بتاسيس المكاتب العمومية على نطاق واسع واحداث المجامع العلمية والادبية وعقد المؤتمرات ، وبذل الجوائز للنبغاء ومساعدتهم على نشر آثارهم .

فالدولة كما راينا لها اهم دور في معالجة هذا الوضع ، لكن رجال الفكر والقلم لايجدر بهم ان يقفوا مكتوفي الايدي منتظرين المبادرات الرسمية ، فلا بد من ان يبرهنوا على وجودهم وعلى شعورهم بمهمتهم ازاء المجتمع .

فمن واجبهم ، قبل كل شيء ، ان يتصلوا ببعضهم ويتعارفوا ويتضامنوا وينبذوا ظهريا ذلك التحاسد العقيم وتلك الغيرة الصبيانية التي تجعلهم يعيشون جنبا دون ان يلتفتوا الى بعضهم ويجروا الحديث البسيط الواضح الصريح الذي يجب ان يسود دائما في وسطهم .

ومن واجبهم ان يؤسسوا الاندية التي تكون ملتقى للافكار ومسرحا للمناقشات الحية ، وان يحاولوا اصدار المجلات وتنظيم المحاضرات في شتى المواضيع وتشكيل لجان للتعريب والتاليف والنشر ، والمحاولات في هذا الباب لايمكن ان تدخل تحت الحصر .

* * *

تلك بعض الوسائل الناجعة في معالجة ركودنا الفكري باسرع الطرق ، وقد راينا ان العوامل التي ادت بنا الى الوضع الحالي ليست باليسيرة ولا بالسطحية ، بل ان لها صبغة تاريخية عميقة تتصل بنظامنا الاجتماعي وبنفسيتنا الموروثة ، وليس من المعقول ان تظل امة كامتنا متخلفة عن الركب متنكبة جادة اليقظة الفكرية ، ففي مثل هذا الموقف استهتار بكل منطق واستخفاف بكل مصلحة .

عندما يصبح الأدب في خدمة الشعب

للأستاذ إدريس الكتاني

في القرن العشرين ، هذا الذي نعيشه اليوم ، حيث يقدر كل شيء ، حتى العلوم والفنون ، بمقدار الفائدة التي ترجى منه لاكبر عدد من الناس ، يجب ان نتساءل اولا ، ونحن نتحدث في موضوع الادب ، الاسئلة التحديدية الاساسية :

ما هي وظيفة الادب ؟

من يؤديها ؟

ولمن يؤديها ؟

وللجواب عن هذه الاسئلة ، نجد ان وظيفة الادب قد تطورت منذ عصور الحضارة التقليدية ، الى عصر الحضارة الصناعية الحديثة تطورا كبيرا . كان الادب يستعمل اداة لخدمة بعض الاغراض الشخصية ، والتعبير عن انواع من العلاقات والمشاعر والصفات الانسانية ، وانتهى ادب الفخر والمدح والهجاء والرثاء ، ليصبح في عصر الطباعة والصناعة اداة عامة لتلبية الحاجات الفكرية المختلفة للملايين من الناس . وخدمة الاهداف والمذاهب التي تومن بها الملايين من الناس . وكان يقوم بهذه الوظيفة الشعراء والخطباء والكتاب . فاصبح يقوم بها اليوم ، فضلا عن هؤلاء ، القصاص والنقاد والروائيون والمسرحيون وغيرهم . وكانت هذه الوظيفة تؤدي لفائدة نخبة محدودة العدد من طبقة المثقفين او المترفين او الامراء ، واصبحت اليوم في خدمة الملايين من قراء الكتب والصحف ، ونظار التلفزيون ، ومستمعي الاذاعات ، من جميع طبقات الشعب ، وهذا يعني ان وظيفة الادب اليوم ، قد تطورت واتسعت آفاقها وميادينها عما كانت عليه بالامس ، كما تغيرت تبعا لذلك شروط القائمين بها ، وتضخم عدد المنتفعين منها .

وعلى ضوء هذه الحقائق يجب ان نتساءل مرة اخرى : ما هي الغاية من وجود ادب مغربي في الفترة التاريخية الحاضرة ؟ وهل لا تزال هي نفس الغاية التي كانت في القرن الثالث عشر مثلا ؟!

بعض الادباء لا يزالون – مع الاسف – يعتقدون ذلك ، لانهم ما فتئوا يعيشون في اطار عقلية الادب القديم . فالاديب الذي يعيش لنفسه ، يقول الشعر في مناسباته ويقضي الوقت مع ندمائه وخمرياته ، وينسى العالم من حوله ، ولا يعبر ادبه عن حياة مواطنيه ، عن آلامهم وآمالهم ، عن افراحهم واحزانهم ، هذا الاديب لا يمثل الا « ادبا متخلفا » لا ترضاه الشعوب التي تومن بالتطورات لانه لايساهم معها ، بصورة او باخرى ، في محاربة التخلف ، وانما هو « يجتر » موضوعات الادب القديم اجترارا .

ان صديقي الاديب الشاعر سليم حيدر قد لا يتفق معي في هذا الراي ، وقد يعتبره خلطا بين الادب والسياسة ، لان الاديب عنده يجب ان يظل حرا لا يلتزم بمذهب او باتجاه معين ، وهو يرى ان وصفا رائعا لوردة جميلة ، قد يخدم اللغة العربية ، وهذا صحيح من وجه ، غير صحيح من الوجه الآخر ، فحرية الاديب الفكرية مبدأ محترم نومن به ، ولكن الاديب الحر يفترض فيه الناس انه اكثرهم حساسية بانسانيته ، واكثرهم قدرة على التعبير عن خلجاتها ومشاعرها العميقة ، وهو بهذا الاعتبار ، يتحمل في نظر الناس مسؤوليات قومية وانسانية ووطنية ، اكثر مما يتحملها غيره من المواطنين بوصفهم اعضاء في مجتمع خاص . ان هذه المسؤوليات الادبية من شانها أن تقلل من حريته المطلقة ، وتفرض عليه نوعا من « الالتزام » في اداء وظيفته الادبية ، والقيام بدوره « الخاص » في المجتمع . ولست انكر أن الاديب الذي يبلغ غاية السحر في وصف الغادة الهيفاء ، والوردة الحمراء ،

قد يخدم اللغة العربية ، ولكنه لايخدم فى نفس الوقت اصحاب هذه اللغة الخدمة المنتظرة منه كاديب . الا انه عندما يجيد فى وصف العربي المتشرد ، والعربي اللاجىء ، والعربي المتسول ، والعربي العاطل ، والعربي الفقير ، ويطالب بحق هؤلاء جميعا فى الحياة الحرة الكريمة ، ويشيد بمبادىء العدالة الاجتماعية ، والمساواة ، وتكافؤ الفرص ، ويثور ضد الاستغلال والاقطاعية والظلم الاجتماعي ، ويصف حياة البؤس والشقاء التي يعيش فيها مئات الآلاف من مواطنيه سكان الاكواخ والخيام ومدن القصدير عندما يصف الاديب المغربي ذلك ، لا يخدم اللغة العربية وحدها ، وانما يخدم ايضا اصحابها ، ويخدم الانسانية قاطبة

ان تاريخ حياة اللغة العربية مليء بالادباء الذين برعوا فى وصف الزهور ، والربيع ، والجمال ، وافتتنوا فى وصف اشواق المحبين ، وهيام العاشقين ودلال الحسان ، هؤلاء كانوا يضيفون فى كل قرن مجلدات ضخمة الى مكتبة الادب العربي ، ولكنهم لم يضيفوا اي تحديد فى احساس العربي ، ولم يثيروا اي تحول فى تفكيره او نظرته الى الحياة .

ان اكبر وهم عند ادبائنا اليوم ، هو ان يعتقدوا ان هدف الادب العربي لا يزال هو خدمة اللغة العربية، واظهار عبقريتها ، وقدرة صاحبها على سبك المعاني ، وعرضها فى اشكال رائعة من البيان والبديع ، بينما اصبح هدفه الاسمى المباشر ، هو خدمة الامة العربية نفسها ، والعمل على رفع مستوياتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، ودفعها فى طريق التطور والتحرر والتقدم ، من اجل حياة اسعد ، وبناء مجتمع افضل .

وهل يمكن ان نزعم ان فيكتور هيجو عندما كتب قصته « البؤساء » كان يهدف فقط الى خدمة اللغة الفرنسية ؟ ، ان الاديب الفرنسي قبل ان يكتب هذه القصة التي اشتملت على نحو 500 صفحة ، لخص هدفه منها فى المقدمة التالية :

« ما دامت مشكلات العصر الثلاث : 1) تدهور قيمة الانسان فى الطبقات الدنيا ، 2) وسقوط المراة بفعل الجوع ، 3) وهزال الطفولة بفعل الجهل ، ما دامت هذه المشكلات باقية لا تحل ، .. وما دام الاختناق الاجتماعي لا يزال ممكنا فى بعض البقاع ، او بتعبير آخر ، وبنظرة اوسع ما دام ثمة على الارض جهل وبؤس ، فان كتبا من هذا النوع لا يمكنها ان تكون بلا فائدة » .

ذلك نموذج من ادباء القرن التاسع عشر ، وفى القرن العشرين ، هل يمكن لاحد ان يدعي ان بوريس باسترناك عندما انفق عشرة اعوام من حياته فى كتابه « الدكتور زيفاغو » كان يهدف لخدمة اللغة الروسية؟ وهل من اجل هذا الهدف نال جائزة نوبل للسلام ؟ !

ان الاديب المعاصر يعتبر انسانا نموذجيا تنعكس عليه مشاعر امته ومطامحها ، وادبه ، سواء كان شعرا، او قصة ، او مقالة ، او مسرحية ، يجب ان تشع منه انوار هذه المشاعر ، وان تخترق الحواجز والحجب لتضيء ظلام الفكر الانساني ، وترشد النفوس الحائرة والجاهلة ، وتهدي الناس الى معرفة الحق والخير والجمال ، وتثير فيهم الطموح للحصول على حياة كريمة فى ظل مجتمع كريم .

اديب القرن العشرين يجب ان يحس بحاجات امته ، وان يعيش فى غمرة هذه الحاجات ، وان يصورها ويدافع عنها ، وان يستجيب لمتطلبات التطور الاجتماعي والاقتصادي ، من غير ان ينسى القيم الخلقية والروحية التي يقوم عليها كل مجتمع انساني سليم .

ان مشكلة «الاديب المغربي» لا تختلف عن مشكلة « الفلاح المغربي » و « الصانع المغربي » ، انها مشكلة « تخلف » . فاذا كان الفلاح فى حاجة الى جرار بدل المحراث ، والصانع فى حاجة الى آلة النسيج بدل النول ، فان الاديب فى حاجة الى التخلص من «اجترار» الموضوعات التقليدية ، واعطاء مفهوم جديد للادب ، ينسجم مع وظيفته الحديثة فى خدمة المجتمع الانساني عامة ، والمجتمع المغربي العربي خاصة .

وعندما يصبح عندنا ادباء يقدرون واجباتهم الانسانية نحو شعوبهم ، ويعيشون لاداء هذه الرسالة باخلاص .. عند ذلك سيتحول تاريخنا فى اتجاه ثورته الاجتماعية الكبرى .

نحو انعاش ثقافي جذري ...

لنبدأ بالتعليم أولاً

للأستاذ محمد عبد الواحد بناني

كل المتصفين متفقون على ان « المغرب » قد ورث عند استقلاله تركة ضخمة من المشاكل المزمنة التي انتجتها الظروف الشاذة التي خلقها الاستعمار في المغرب لعهد الحماية المشؤوم ، ومن اهم تلك المشاكل واخطرها مشكلة « الثقافة » في المغرب ، وهي مشكلة متعددة الاوجه ، كثيرة الانحاء ، تتطلب اكثر من حل ، نظرا الى ان طبيعة الثقافة ذاتها مركبة غير بسيطة ، فروافدها كثيرة ، وزواياها متعددة ، ومجالاتها جد واسعة ، وان الذي يقارن بين المغرب لاول عهده بالاستقلال وبين غيره من الدول يجد دون ان يبذل كثيرا من الجهد في محاولة الاستنتاج ـ ان المغرب من الاقطار المتخلفة في الميدان الثقافي ، والسبب واضح هو السياسة الاستعمارية التي كانت ترتكز في هذا الميدان على مبدأ « تجهيل » الشعب وعدم اتاحة الفرصة لابنائه كي يتثقفوا ، لما في الثقافة من خطر ساحق على الوجود الاستعماري بصفة عامة ، ومن هنا لم يكن يسمح في المغرب أيام الحماية لافراد الشعب بان يتثقفوا الثقافة الحرة الكريمة ، اللهم الا قلة نادرة استطاعت ان تخترق الحصار ، وتخلق لنفسها الظروف المساعدة على ذلك ... ولكن ندرة هؤلاء لاتخلق قاعدة ، ومن هنا تبقى المشكلة قائمة .

ذلكم هو التفسير البديهي لما نلمسه من حال الثقافة في المغرب اثر الاستقلال ، فضعف الثقافة ظاهرة عامة لاتحتاج الى برهنة ، تلمسها دون كبير عناء في قلة ما يكتب او يذاع ، وفي ضعف المستوى العام فكريا واسلوبيا لاغلب ذلك الذي يكتب او يذاع ، وتلمسه اكثر في مختلف طبقات الشعب المغربي التي لم ينضج عندها بعد الوعي الكامل الذي يعطي للثقافة اولا وقبل كل شيء الاعتبار الكامل والدرجة الممتازة في سلم الحيثيات والمؤهلات ..

غير ان بادرة خير وبركة على الثقافة في المغرب قد انبثقت مع فجر الاستقلال ، حيث هب الشعب والمسؤولون يضعون الاسس لتشييد ثقافة مغربية منتجة تشق للمغرب طريقة نحو حياة افضل ومستقبل لامع ، ومن الانصاف ان أذكر ـ كاحد المشتغلين بالثقافة والتعليم ان اشواطا لا باس بها قد قطعت في هذا المجال ، وان انتصارات ذات قيمة ستحقق قريبا فيه عن طريق «المدرسة» اولا و «الجامعة» ثانيا ...

ولكن على الرغم من النشاط المشكور الذي تبذله كل من «المدرسة» و «الجامعة» في المغرب وعلى الرغم من الاشواط التي قطعتاها في مضمار التطور والانطلاق ، فان الحركة الثقافية في المغرب ستبقى مشلولة غير قادرة على الانعتاق الكامل اذا لم تراع «الظروف» التي يعيشها المغرب عند تخطيط السياسة العامة للانعاش الثقافي في المغرب .. واذا لم تساند بعض المؤسسات الاخرى المدرسة والجامعة في العمل ، وهذه المؤسسات هي : الاذاعة ودار الصحافة ، ونوادي الشباب ، وما شابهها .

* * *

ان « الظروف » التي اشرت اليها ، والتي ذكرت ان المغرب يعيشها الآن ، هي تلك الحالة من البلبلة والقلق التي افلح الاستعمار في زرعها بالاذهان، والتي تشكك الكثيرين وتبعث فيهم الحيرة في انفسهم . اي الاتجاهات الثقافية المعاصرة يتبعون ؟ اهو الاتجاه المادي الصرف الذي يعتمد على مظاهر القوة الآلية ، والتي تسخر لخدمته اغلب المؤسسات الثقافية في كثير من الدول الاجنبية بحكم الصراع الذي تعيشه ؟ ام هو الاتجاه الروحي الذي ينظر الى

الثقافة على انها تهذيب للنفوس ، وارهاف للارواح ، وسمو بالافكار ، وخروج بالانسان من ميدان الحيوانية المحضة الى ميدان « الانسانية » فى نظرتها السامية الى الوجود والغاية من هذا الوجود ؟

ولست اذيع سرا اذا ذكرت أن لنا اخوانا في الشرق العربي قد عاشوا نفس هذه التجربة ، واكتووا بنارها زمنا ، ولكنهم اهتدوا دون شك الى الحل المعقول المنطقي حين قرروا فى سياستهم التثقيفية سلوك منهج وسط يعتبر المادة وسيلة والروح غاية ، وان الثقافة تعتمد على المادة حقا ولا تهملها ، ولكن لا على اساس التفوق المادي وحده ، بل على أساس أن المادة سند ودعامة ، ان لم تستعمل للهجوم وجب أن تستعمل للدفاع ؛ اما الغاية من الثقافة فهي فى التحليل النهائي روحية معنوية : هي ضمان الكرامة الشخصية للفرد ، والسعادة للمجموع عن طريق حمايته بواسطة الثقافة من اعدائه التقليديين : الجهل ، والفقر ، والمرض ؛ ان كرامة الفرد وسعادة المجموع قد تبلورت فى الشرق العربي المتحرر تحت شعار « القومية العربية » فأصبحت جميع الاجهزة الثقافية تخدم هذا الشعار وتوجه نحو اهدافه وغاياته . يكفي لتتاكد من صدق ذلك ان تلقي نظرة ولو عجلى على اي كتاب من الكتب الدراسية المقررة بالجمهورية العربية المتحدة فتجد ان الروح العامة التي تنتظمها مطبوعة بطوابع هذه القومية مصقولة بصقالها ، فلم لانبدا نحن ــ الامة المغربية العربية ــ من هذه النقطة التي انتهى اليها اخواننا فى الشرق .
سوف تقول : ان المغرب هو الآخر قد أعلن عن « القومية العربية » كمبدا له فى اكثر من مناسبة ، على لسان جلالة المغفور له « محمد الخامس » قدس الله سره ، وعلى لسان صاحب الجلالة « الحسن الثاني » اطال الله عمره ، وعلى لسان المسؤولين من الدوائر الرسمية ...

اجل ... لقد كان ذلك كذلك ، ولكن ثغرات جد واسعة لاتزال فى المغرب ، يتسرب منها الشك ان لم يكن الهدم والتخريب نحو هذا الهدف السامي يجب ان تسد بكامل العناية وبالغ الحذر ، هذه الثغرات يجب أن يتعاون الشعب مع المسؤولين فى وضع اصابعهم عليها ، واعطي اقرب مثال لذلك هؤلاء الاساتذة «الاجانب» الذين يدرسون مادة «التاريخ» لتلامذتنا فى المدارس الثانوية ، اذ ثبت بأكثر دليل على أن اغلبهم يتخذون هذه المادة وسيلة الى تشويه وقائع التاريخ ، خصوصا الاسلامي العربي، تشويها يبعث التلاميذ على الشك فى قيمة الاسلام والعروبة ، ويتجه بهم نحو التنكر لماضيهم ، وأي مستقبل للثقافة يمكن أن يبنى على اساس الكفر بالماضي ؟ أو ليس «التاريخ» هو «ذاكرة الشعوب» كما يقررون ؟

ان مادة التاريخ يجب ان تسند لاساتذة عرب ، آمنوا بماضيهم العربي المشرف ، ونظروا الى «التاريخ» كمادة طبيعية وروحية لصنع الافراد وبناء الشعوب ، كما يجب ان يكون محورها الذي تدور عليه الايمان بالفكرة الاسلامية والقومية العربية .

وفى نطاق هذه الظروف التي نعيشها تبرز «اللغة» كمشكلة لها هي الاخرى خطورتها ونتائجها على مستقبلنا الثقافي فى المغرب ، فمن الملموس أن لغتين اجنبيتين قد تجاذبتا اطراف الثقافة بالمغرب اثناء فترة الاحتلال ، وهما وان لم تفلحا فى اخماد جذوة اللغة العربية القومية بالمغرب ، فقد اضطرتا فئات من المثقفين بهما الى الدفاع عن وجودهما لا على اعتبار ان اللغات الحية لها دورها الهام فى حياة القرن العشرين بشتى مظاهرها السياسية والثقافية والاجتماعية ، بل على اساس التعصب لهذه اللغة الاجنبية او تلك على حساب اللغة القومية ، تعصبا يدفع اليه شعور هؤلاء الناس الداخلي بأن وجودهم مستمد من وجود هذه اللغة الاجنبية بالمغرب ومستند اليه ، لقصر باعهم فى اللغة القومية للبلاد ، أو جهلهم اياها جهلا كاملا اضطرتهم ظروفهم الثقافية الخاصة اليه ، ومن الحسنات التي اذكرها للمسؤولين بكامل التقدير «حملة التعريب» التي شنوها لتعليم الموظفين المغاربة اللغة العربية ، ولكنني من باب الاخلاص لله والوطن اذكر ان الوسائل التي اتخذت لتحقيق الغاية من هذه الحملة وسائل فى نظري جد قاصرة ، بسبب عقم «الطريقة» وعدم الدقة فى اختيار كل من المشرفين والمدرسين ، ففي رأيي ان الطريقة «السمعية البصرية» وهي طريقة معروفة فى دوائر رجال «التربية الاساسية» بالمغرب ــ اجدى الطرق واقومها واسرعها فى تعليم اللغة للكبار ، كما ان الاستاذ يجب ان يختار من بين الذين سبقت لهم خبرة واسعة فى ميدان ارتياد العقول وفتح الاقفال ، واما المشرفون فيجب ان يكونوا هم ايضا من ذوي الحنكة الواسعة فى ميدان تعليم اللغة العربية بالذات، ومن المطلعين على مغالقها واسرارها .

ان الثقافة في امة يجب ان تستند على اساس متين هو «لغتها القومية» المنحدرة معها منذ فجر تاريخها ، لان اللغة القومية للامة ليست وسيلة للتعبير والتفاهم فحسب ، بل هي شحنات من عواطفها وروحانياتها ، انها في مفرداتها وتراكيبها عقلها المفكر ، ووجداتها الشاعر ، وكيانها المتماسك ، ان الكلمات والجمل « المغرب ، الوطن ، الراية المغربية، الامة العربية ، محمد الخامس ، الحسن الثاني ، الام ، الحرية ، الاستقلال ، الاندلس ، طارق بن زياد » ، في لغتها ومعانيها تحمل اشعاعات وشحنات روحية خاصة بالنسبة للمغاربة لا اعتقد انها تحملها اليهم في ترجمتها الامينة للغات الفرنسية او الانجليزية او الاسبانية ، كما لاتحملها الى الفرنسيين او الانجليز او الاسبان قراءة هذه الكلمات او الجمل في نصها العربي ومن اراد التأكد من صدق هذه النظرية فليراجعها في كتاب «اللغة» لفندريس ، وفي كتاب «من بلاغة القرآن» لاحمد احمد بدوي .

وكم اثلج الصدر ان جاء القانون الاساسي الذي وضعته حكومة جلالة الحسن الثاني اثر اعتلائه العرش ناصا على ان دين المغرب الرسمي هو الاسلام، ولغته الرسمية هي العربية ، فاصبح على المسؤولين والشعب منذ تلك اللحظة ان يجعلوا من ذلك حقيقة واقعة ، وظاهرة ملموسة ، بواسطة سن المناهج الموصلة الى ذلك وتطبيقها .

واذا كان التعليم قد قطع في هذا الميدان مرحلة نوهنا بها في مكانها من هذا الحديث بصفة اجمالية فاني اعتقد ان من الواجب - وانا بصدد تقديم اقتراحات للانعاش الثقافي بالمغرب - ان اعود فانظر الى مسالة «الثقافة في المغرب» ككل يتكون من اجزاء اهمها «التعليم» ، وان اصنف ملاحظاتي واقتراحاتي حول اصلاح الاساس الذي هو التعليم على الشكل الآتي : معتمدا عدم التعرض للميادين الثقافية الاخرى لعدم اتصالي المباشر بها ، وقلة معلوماتي عنها :

1 - المرحلة الابتدائية - يجب ان يراعى في اختيار معلميها «الكفاءة العلمية والتربوية» لكون هذه المرحلة بالذات هي الاساس الذي تبنى عليه ثقافة الجيل ، ومن ثم وجب ان نضمن «العافية» لهذه الثقافة عن طريق اختيار المعلم المكتمل وذلك هو الشأن في جميع البلاد الواعية اليوم ، كما يجب الا يراعى ذلك في ناحية دون اخرى بالمغرب ، وان يشمل ذلك الحواضر والبوادي على السواء ويجب ان تزود مدارس هذه المرحلة - ومدارس المرحلة الثانوية ايضا - بالخرائط والرسوم التوضيحية والمكتبات الفنية بكتب الاطفال ، لكون ذلك ضروريا جدا لها كي تفلح في اداء مهمتها ، كما يجب ان يقتصر في هذه المرحلة على تعليم لغة واحدة هي اللغة العربية القومية لما ثبت من ان قدرات التلاميذ في هذه المرحلة لاتحتمل الارهاق بتعلم لغة اخرى لها نحوها وصرفها ومشاكلها الخاصة ، وعلى هذا النهج تسير اغلب الدول اليوم بما فيها سويسرة التي لها ثلاث لغات رسمية ، ولكنها تقتصر في المرحلة الابتدائية على تعليم ابنائها لغة واحدة منها فقط ، ومن اراد زيادة بيان حول هذا الموضوع فليراجع الجزء الثالث من حوليات الثقافة العربية للاستاذ ساطع الحصري ، في الفصل الذي كتبه حول «تعليم اللغات الاجنبية» او مقالا لي في نفس الموضوع باحد اعداد السنة الثالثة من مجلة « دعوة الحق » على ما اذكر .

2 - المرحلة الثانوية - ارى ان تزود «الثانويات» بالاساتذة الاكفاء اولا وقبل كل شيء وهذا يقتضي في نظري ادخال تعديل جوهري على الاطار العام للاساتذة في سلك الوظيفة العمومية ، اذ من الواقع المر مايلاحظ من كون الاساتذة حاملي الشهادات الجامعية « المجازين » بسلك التعليم يتقاضون اجورا اقل مما يتقاضاه حاملو نفس المؤهل في الوزارات الاخرى ، الامر الذي يجعل الغالبية العظمى من خريجي الجامعات يتجنبون الاشتغال في ميدان التعليم ، مؤثرين عليه العمل في ميدان آخر اكثر سخاء ، واقل تكليفا للجهود المضنية التي يعانيها الاستاذ من اجل تحضير الدروس ، وتصحيح الواجبات المدرسية ، وقيادة التلاميذ على اختلاف سلوكهم واهوائهم . يضاف الى هذا ان الذين قدر لهم منهم العمل بسلك التعليم الثانوي يعانون حالة نفسية ممرضة ، الامر الذي سيدفعهم - عاجلا او آجلا - الى الفتور في القيام بمهمتهم بدافع شعوري محض ليس لهم عليه أي راد الا من عصم الله !

كما ارى ان تزود «الثانويات» بالخرائط ووسائل الايضاح ، وبالمكتبات الفنية بالكتب التي تناسب هذا الطور من سني التلاميذ وخصوصا العربية منها ، والا يهمل عند بناء «الثانويات» تزويدها بقاعة صالحة للعرض السينمائي والمحاضرات، والاجتماعات العامة وان تطبق فكرة انشاء «جمعية

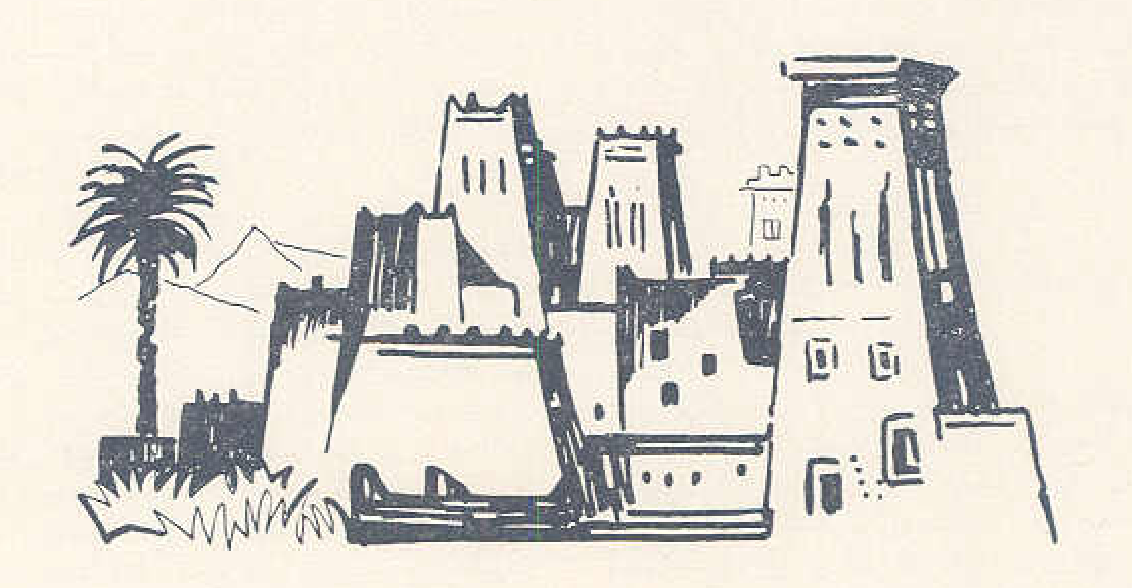
آباء التلاميذ » التي استحدثتها وزارة التربية بكامل الدقة ، لما فيها من مساعدة على خلق «التلميذ المثالي» داخل المدرسة وخارجها ، ومعاونة للادارة المدرسية والاساتذة في ميدان عملهم المرهق ، وان تستحدث اوجه النشاط الاجتماعي والفني الى جانب النشاط الرياضي الموجود فعلا بالثانويات ؛ لما لذلك من اثر على المستوى الفكري العام للتلاميذ .

وعند السنة الاولى من المرحلة الثانوية فقط ياتي زمن تعليم التلاميذ لغة او لغتين اجنبيتين ، على ان تكون اللغة العربية لغة المواد جميعها ، وان تدرس اللغات الاجنبية كلغات اضافية ، تعتبر غاية في ذاتها ، لا وسيلة الى تلقين المواد المختلفة .

3 ــ التعليم الجامعي ــ ولن اترك الكلام عن التعليم قبل ان انوه في كثير من التقدير والاعجاب المشفوعين بالفخر والاعتزاز على اقدام المغفور له جلالة محمد الخامس ــ رحمه الله ــ على تاسيس الجامعة المغربية الحديثة بالرباط ، واحداث دراسات عليا حتى مرحلة «الدكتورا» بها ... ويستطيع ان يقدر هذا العمل الجلل قدره كل من تشجم اعباء الغربة واهوالها من اجل الدراسة الجامعية خارج المغرب من قبل ، وما عانوه هم واهلوهم من جراء ذلك ماديا وادبيا .

على ان الجامعة المغربية الفتية ــ لكي تكون مشعلا ينير للشباب المثقف الطريق ويفتح لهم الآفاق البعيدة المدى في عالم الفكر ، ودنيا الحياة ــ يجب ان تمنح شخصية اعتبارية ، تجعلها قادرة على التوثب والانطلاق ، وفتح نوافذ الثقافة جميعها امام عقول شبابنا في حرية تامة كاملة ، وعندها سيجدون عن ايمان كايمان العجائز ان تحقيق وجودهم وسيلته واحدة وهي : « انعاش الشخصية المغربية في تراثها الخالد الذي يستمد البقاء والخلود من الثقافة الاسلامية والروح العربية » .

تلكم خواطر حول انعاش التعليم بمراحله الثلاث ، اغفلت التعرض لبعض انواعه الاخرى كالتعليم الاصلي والفني والمهني لبعد مجالاتها عني ؛ اقدم معها اقتراحات بناءة الى المشتغلين بشؤون الثقافة في هذه البلاد ، لست ارجو من ورائها الا مساعدتهم على اداء مهمتهم في التطور ببلادنا العزيزة ودفعها الى الامام ، وكلي يقين انها ستحظى منهم بما تستحق من اعتبار ، تضامنا من الجميع في العمل لما فيه الصالح العام .



الأسس السليمة لبناء حياة فكرية في المغرب

بقلم الأستاذ
جعفر الطيار الكتاني

توصف الحياة الفكرية فى المغرب بانها فى ركود ، وهو وصف من صحفنا السيارة او الدورية فى غير محله ، اذ الركود صفة لاتنطبق على واد لم يجر الماء فيه ، والواقع ان شؤون الفكر فى المغرب قاحلة ويباب .

واذا كان يسهل الحكم من بعض المشتغلين بشؤون الفكر ، على فترة ما قبل الاستقلال ، بانها كانت فترة خصب انتج شعراء وكتابا ، فان تلك الفترة فى واقع الامر ، ليست سوى علامة النهاية لمرحلة المراهقة فى المجال الفكري الحق داخل بلادنا ، ولم تكن نضجا لا فى الوسيلة ولا فى المضمون ، واعلام تلك الفترة بالنسبة لسائر فترات الادب ببلادنا ، هم كيف ما كان الامر ، طليعة الكفاح الثقافي والاجتماعي، وقد ادوا مهمتهم خير اداء بالقياس الى امكانياتهم ، فردوا مجتمعنا الحديث الى مرحلة بداية الرجولة من حياتنا ، واختفوا هم لا عجزا ، ولا خوفا ، وانما انتهاء لم يكن لهم محيد عنه ، بحكم الطاقة التي مكنوها .

ولم يكن بد من ان تفرف ظروف الفكر فى بلادنا من امكان استمراره ، لتفدق على ظروف الحياة السياسية والادارية التي دبت فيها الحياة بعد الاستقلال ، ذلك ان الذين كانوا يستخدمون القلم للتعبير عن خواطرهم اوافكارهم ، اصبحوا يستخدمونه لاداء الثقل الاداري ، والذين كانوا يفكرون ، اصبحوا يتكلمون ، ومعنى ذلك باختصار : انتهاء مرحلة المراهقة فى الحياة الفكرية ببلادنا ، وبداية البداءة من مرحلة الرجولة منها ، وتلك فترة ، لوقلت عنها اكثر من ذلك ، لخفت من الادب ان يرحل عنا الى الابد ، ولا احسب الذين يحسنون الظن من كتابنا ، فيصفون ظروف الادب الحالية ببلادنا بالركود الا انهم يتخيلون الفترة التي سبقت ، ثرة معطاء ، ولو قدر للفترة الحالية من يصفها بحق ، لقال عنها : انها فترة انشاء الدولة ، ولم الشعث ، والاستشعار بالذاتية ، وهي فترة تعكس رد فعل نفسي عنيف ، احدثه الانتقال من طور المراهقة الى بداية الرجولة ، وفى هذا الطور ، من الرجات الخلقية والسياسية والعقيدية ما لا يسمح الا بالرغبة فى الاستقرار ، والادب اذا كان فى راي بعضهم ناتج عن الالم والامل ، فان مكان الشعور بالالم او بالامل ، لايتأتى الا بعد شيء من الاستقرار ، ولم اقل من الطمانينة ، اذ الطمانينة قد تاتي بالبطنة وكثرة النسل ، ولكنها لن تاتي ابدا بشاعر او بكاتب.

اذن ، فالادب عندنا ــ او الحياة الفكرية ــ ليس فى ركود ، والذين منا يشتغلون بالادب ليسوا عقيمين، لاننا لم نلقح بعد ، حتى يجوز ان يحكم على نتاجنا ، والذي يحدث الآن ، اننا فى طور الاعداد للخلق .

ولكن ماذا اعددنا لهذا الطور ؟

ماذا اعددنا فى هذه المرحلة الانتقالية من مراحل حياة الفكر فى بلادنا ؟ .

هؤلاء الذين كان المفروض فيهم ان يتلقفوا القلم من اولئك ، قلنا عنهم : بانهم اعطوه فى مرحلة دقيقة من حياتنا السياسية كدولة حديثة العهد ، وبانهم لما يشعروا بالاستقرار كي ينتجوا ، فهم تبعا لذلك ، ليسوا مسؤولين عن نمو الادب وشؤون الفكر في ظروفهم الراهنة ، فهل المسؤولون بيننا عن التربية

الوطنية يتيحون لهذا النشء مايغذي به رجولته ، ويذكي حماسه ، ويقوي فيه ملكة الخلق والابداع ، وييسر له سبيل التفكير الحر ؟ .

ان اللقاح اي لقاح ، لكي ينتج لابد له من دم يغذيه وحرارة تدفئه فما هو الدم والدفء اللذان اعددناهما لجيل بداية الرجولة من حياتنا الفكرية ؟

ان ما يطيب لبعض صحفنا او مجلاتنا ان تتحدث عنه ، هو ظاهرة « الركود الفكري » حسب ما يحلو لهم تسميته ، وان يمقت الجائع شيئا ، هو ان يسمع بملء اذنيه عجب المتخمين من كون الفاكهة تقدم لهم في نهاية الطعام مرة ،وهم يطلبونها حلوة ، وهؤلاء الذين يطيب لهم ان يصفوا الحياة الفكرية في المغرب بالركود ، هم المتخمون الذين لايعرفون ولا يقدرون ان الملايين من ابناء هذا المغرب اميون ، لايقرؤون ولا يكتبون ، وبان الشرذمة القليلة التي تقرا وتكتب ، بضاعتها من ذلك لاتكفي لان تجعل من ابنائها انصاف مثقفين .

والذين يتحدثون عن « الركود الفكري » وفي حسبانهم انهم يتوجهون بحديثهم الى « النخبة » في هذا الوطن ، انما هم يتلهون من عل ، ويدركون مصير « النخبة » وكيف تم دخولها التاريخ ، فجيلها قد اضطر الى العدول عن كتابة خواطر الفكر ، الى ممارسة التراتيب الادارية ، وشغله الكلام ، فاوقف موران التفكير ، ولا يصح تحميل جيل سلف مسؤولية جيل خلف ، وقد ادى ذلك مهمته في تلك المرحلة الفكرية ، وهو يؤديها في هذه المرحلة الادارية ، وان تباينت المرحلتان في الهدف والغاية ، وانما اذا اصح ان يحاسب في وقت ما ، فعن المسؤولية التي هو بصددها اليوم .

لكن مسؤولية الخلف ، ليس من النقد الرصين ان يسال عنها ، او يوجه اللوم اليه ان هو لم يف بها ؛ ذلك لانه يربى مؤرجحا بين لغتين ، لا الاولى منهما لغة احساساته ، ولا الاخرى التي ينتمي تفكيره اليها يلقنها بطريقة سليمة ، مما يجعله في حل من المسؤولية. طالما هو يعيش نتيجة هذا التوجيه ، في خضم من الجهل ، وتفكك الشخصية ، وانحلال مستوى الثقافة، في حيرة من نوع الرسالة التي يتطلب منه الايمان بها فضلا عن الدعوة اليها .

ففيم اذن هذه الصيحات ، ممن يكلفون انفسهم مشقة النكر على الحياة الفكرية في بلادنا مثل هذا الركود ؟ افما كان الاجدر باصحاب هذه الاقلام عندنا ، ان يطلبوا للجياع غذاء يبعث فيهم الدفء قبل ان يطلبوا لانفسهم فاكهة حلوة في نهاية الطعام من هؤلاء الجياع ذواتهم ؟ .

ماذا اعددنا اذن نحن المسؤولين عن التربية الوطنية لهؤلاء الجياع ؟ ما الذي اعددناه في هذه المرحلة الانتقالية من مراحل حياة الفكر في بلادنا لهؤلاء ، لهذا الخلف الذي يتوقع ان يحاسب عما اتجه للحياة الفكرية في المغرب ؟ .

اذا لم يكن الاستقلال القومي ، هو دم ودفء هذا الاعداد ، لهذا الخلف ، فلا — ودم شهداء الاستقلال — لن يكون الا عقيما .

* * *

لقد كان الاحراز على الاستقلال السياسي نتيجة كفاح مرير وذلك هو التفسير للكلمة المأثورة : الاستقلال يوخذ ولا يعطى ، والكفاح المرير ، ليس معناه فقط استعمال القوة ، وانتزاع الحق من الدخيل ، ولكن معناه قبل كل ذلك ، ما يحدث من اصطدام عميق الجذور بين الشخصية ذاتها وبين مقوماتها ، وذلك ما كان يسميه الرسول محمد (ص) بالجهاد الاكبر ، ومعناه ايضا ما يتولد عن ذلك الاصطدام العميق من تسابق بين الشخصية المتكاملة وبين :

ا — ايمانها بما هو حق اولا .

ب — اندفاعها للمطالبة بذلك الحق ثانيا .

وبمدى نجاح الشخصية المتكاملة في هذا التسابق ، يتقرر مصير :

ج — حصولها على ذلك الحق اخيرا .

واذا كان استعمال القوة ، هو وسيلة من وسائل تاكيد هذه المرحلة الثالثة ، فانه قبل الوصول اليها يكون الكفاح المرير قد اجتاز فعلا مرحلتين اثنتين هما :

ا — ايمان الشخصية باحقية مطلبها .

ب — مطالبتها عملا بذلك الحق .

ويكون هذا الكفاح في هاتين المرحلتين ، ليس بين اجنبيين ، ولكنه بين الشخصية المتكاملة ذاتها ، وبين قدراتها ، ولن يتوفر لهذه الشخصية المتكاملة صفة التحرر ، الا بقدرتها على تخطي المرحلة الثالثة والاخيرة .

واحسب ان الاستقلال السياسي في بلادنا اجتاز هذه المراحل جميعها ، ولكنه لم يشرع بعد للاسف في اجتياز المرحلة الاولى من تلك المراحل الثلاث في قضية الاستقلال القومي .

والاستقلال القومي ، او الشخصية المتحررة امر عظيم المنال ، خطير الشان ليس ذلك فحسب بالنسبة الى وجوده ، ولكنه كذلك بالقياس الى ما يضفيه من صفة النضج على الشخصية المتحررة ، مما يؤدي بالضرورة الى تاخير الاستقلال السياسي ذاته ، والمحافظة عليه من ثغرات الدخلاء والانتهازيين، ولا سبيل الى جعل الاستقلال القومي حقيقة نحياها، الا باجتياز ناجح ، لطور الايمان به ، الى طور المطالبة به فعلا ، ولا يوجد في الدولة ـ اي دولة ـ جهاز يعتمد عليه في تحقيق ممارسة الاستقلال القومي والحصول عليه ، اذ لم تكن للتربية الوطنية راية الرائد فيه .

واذا كانت المرحلة الاولى من مراحل الاستقلال السياسي والمرحلة الثانية والمرحلة الثالثة تعتمد على الافراد ، اي على الشعب ، فان ذلك كفاح من اختصاص الافراد فعلا ، اما تحقيق الاستقلال القومي اذا اريد له الانجاز الفعلي المباشر ، واريد له التنفيذ السريع ، فانما تقوم بمسؤوليته ، وتتكلف بتحقيقه الدولة ، واقصد هذه المرة بالدولة رجال الحكم في البلاد .

والاستقلال القومي يفتقر تحقيقه الى عناصر ، اذا كان من بينها تنظيم الاقتصاد الوطني ، والجيش ، والعلاقات الخارجية ، والعدل ، فان للتعليم والتعريب بالنسبة لظروفنا اهمية اساسية اعظم واخطر من كل ما يتوقف عليه تحقيق الاستقلال القومي في بلادنا ؛ ذلك ان حماية حدود بلادنا ، وتطوير اقتصادنا ، وتنظيم علاقاتنا بالخارج ، ونشر العدالة ، بين مواطنينا ، كلها مسؤوليات لاتتناسب ومستوى التعليم والمعرفة بين ابنائنا ؛ كما ان مصيرنا المربوط برسالتنا في الحياة داخل المجموعة العربية والاسلامية، لاينسجم ولغة الدخيل علينا ، التي فرضها وفرض معها تقاليدها وآمالها ، وحيث ان الاستقلال القومي مفتقر باستمرار الى التربية الوطنية ، فان تربيتنا الوطنية لاتقوم لها قائمة الا بنشر التعليم وبتعميم التعريب ، ذلك ان التعريب بالنسبة لنا هو العمل البناء الاساسي في استقلالنا القومي ، ولقد كانت فرنسا تعرف ذلك جديا فعمدت في سياستها الاستعمارية الى العمل على فرنستنا ، لا حبا فينا او ترقية بمداركنا ـ كما يحلو للمملوكين ان يدعوا ـ ولكن من اجل ان تقطع الصلة بيننا وبين مراحل تطور تفكيرنا ، وبيننا وبين طريقتنا في الاحساس ، بقصد ادماجنا في تاريخ مراحل تفكيرها وآمالها ، ونحن كأمة تتمتع بجميع مقومات الامة ، لم يمكننا ان ننصهر في تقاليد وآمال غيرنا ، فلا يسعنا اذا ـ وقد انفصلنا عن النشاز ـ ان نحيا بدون المحافظة على رسالتنا ؛ وانه لا سبيل لنا لتحقيق القيام باداء تلك الرسالة الا بنشر التعليم وبتعميم التعريب .

ولعله مما يستوجب منا ارساءه الآن ، بعد ان احرزنا على الاستقلال السياسي ، ان نعيد لتفكيرنا طريقته في الاسلوب وان نرجع لاحساساتنا وسائلها في التعبير ، اي : ان نمارس لغتنا لكي يتأتى لنا ان نعود الى الارتباط بمراحل تطور تفكيرنا ، فنستشعر كيان ذاتنا ، ونستلهم طبيعة تكويننا ، لنتمكن من تحمل رسالتنا التاريخية باستمرار وجودنا .

وهنا مما سند للاوضاع اختصاصها ان تحتضن **وزارة التعليم والتعريب** واجب القيام بمسؤوليتها فدورها يعادل بل يفوق وزارة الدفاع في حماية استقلالنا ، وتاكيد قوميتنا ، والذود عن طريقة تفكيرنا ، واسلوب احساسنا ، اي عن اللغة التي هي وسيلة للتعبير وفحوى للشخصية في آن واحد .

* * *

ويومئذ سوف يجوز لنا ان نتحدث عن تقييم الادب في بلادنا ، فيحق لنا ان نصفه بالركود او ننعته بالثرة ، اما في بداية طور الرجولة من عمرنا الادبي ، فليس من حقنا ان نقيم الادب في بلادنا ، والجهل يفتك بابنائنا ، ولغة الدخيل تحيق ببيئة تفكيرنا . وليس هناك جيل معين يمكن ان نحمله مسؤولية « الركود الفكري » جيل السلف ادى مهمته في حدود امكاناته ودعته مسؤولية اخرى فانصرف ، وجيل الخلف لايستقر ويوجه التوجيه الخلاق ، والادب في بلادنا لما يحن الاوان لوصفه بالنشاط او بالركود ، وانما الاساس السليمة لبناء حياة فكرية في المغرب ، هو موضوع النقد الذي ينبغي ان تنصرف اليه عنايتنا، اصحاب اقلام ، ومسؤولين عن التربية الوطنية في البلاد .



واقعنـــا الاجتمـاعــي :

ان الامة التي تريد ان تبنـي كيانهـا يجب ان تقيم من نفسها رقيبا على سلوكها وتصرفاتها وناقدا لاساليبها في الحياة ووسائلها ، والنتائج التي انتهت اليها ، اذ بدون نقد ذاتي لاتستطيع ان تبتر عوامل التعويق لنهضتها وتعويضها بعوامل دافعة وفعالة لحركتها وتسديدها نحو الاهداف بكل دقة واتقان وسرعة ، ولكي تكون كذلك ، لابد ان تتصف بنوع من الصراحة والجراة والثقة بالنفس لتقدم على تجريد نفسها ووضعها في معمل النقد والاختبار والتحليل والمحاسبة لتحدد مكامن الضعف من جسمها وتحلل اسبابه وتتبع اعراضه لتصل الى منابعه الاصلية التي توزع سمومها في اعضاء جسم الامة ، وبذلك تضمن لنفسها القضاء على المرض وبالتالي التمتع بالعافية والقوة .

وليس من علامة الحياة السليمة ، ان تنصاع الامة لعقدها فتتجاهل المشاكل التي تتخبط فيها ، وتدبر عن معرفة معالجة الامراض التي تمزق اوصالها وتعتور كيانها ، خوفا من (الفضيحة) او الظهور (بالنقص) امام الامم الاخرى ، مثلما يفعل المريض (المعقد) حينما يخفي مرضه عن الطبيب بدافع عقده ، ويتظاهر بالسلامة واخيرا يكون المرض قد استشرى ، فقضى عليه او كون فيه عاهة مستديمة ، وتلك الامة تضطر الى ان تلجا الى تعويض النقص بتكديس الاشياء والتعلق بالاشكال والمظاهر ، وبذلك تتيح لتلك الامراض الاستفحال والتاصل فتجعل من حياتها سلسلة من الامراض والشقاء والعجز ، وتعرقل حركتها ونهضتها وتطرحها ارضا عندما يكون الاصحاء يحلقون في الاجواء .

فالنقد الداخلي ضروري اذن ، ليس فقط لاستمرار الحركة بل لضمان سلامتها وفعاليتها وتزويدها بعوامل القوة والسرعة والسداد للحصول على اعظم النتائج من اقرب طريق وايسرها ، ولذلك فسأتحدث اولا عن واقعنا الاجتماعي وساكون صريحا في هذا الحديث .

لقد استلمنا شؤون انفسنا ، واصبحنا نحن ـ لا الاستعمار ـ المسؤولين عن تلك الشؤون فهل استطعنا ان نخطط لايجاد مجتمع سليم من الامراض، اي مجتمع مثقف ، ان الصفوة التي كان الامل يعلق عليهم لتحقيق هذا الامر قد امتصتهم عوامل واطارات ابعدتهم عن معالجة المشاكل لاجتماعية ، وكان يمكنهم ذلك اكثر قبل هذا الاوان ، ولكن الفرصة ضاعت كما ضاعت وتضيع كثير من اخواتها ، بل اني ارى انه قد برزت في المجتمع المغربي ظواهر خطيرة ، كما اختفت منه او كادت ظواهر طيبة كان من الواجب استغلالها وتنميتها لايجاد المجتمع الذي نريد . وان اهم ظاهرة برزت في مجتمعنا وسيطرت عليه واصبحت عنوانا لهذه الفترة من حياتنا هي ان «المثل العليا» قد ضمرت في حياتنا الاجتماعية وتوارت اشعاعاتها فوجد الظلام فرصة سانحة لينشر علينا رداءه ويتجاوب مع الشهوات .

واذا انعدمت « المثل » او ضمرت فان ذلك يعني تغييرا في طبيعة العلاقات الاجتماعية وتركيبا جديدا للمجتمع .. مما يفسح المجال الواسع للشهوات وللاغراض الخاصة ان تسيطر على تلك العلاقات وتنحو بها مناحي خطيرة وتدفع بها الى مهاوي التاخر والسقوط ، لتضارب المصالح الفردية ولتحكم منطق الشهوات في الحياة الاجتماعية ، واختفاء قيادة الروح

التي تختفي بوجودها اخطر المشاكل ، ولا ننكر ان المجتمع الانساني المثالي لا يخلو من تضارب المصالح الفردية ، ولكن السيطرة الروحية التي تنتظم جميع افراد المجتمع وترتبط بضمائرهم واخلاقهم وافكارهم كفيلة بحل تلك المشاكل على نحو مرض وجميل بصفة عامة .

فمجتمعنا يسوده التفكك في العلاقات الاجتماعية لانها لم تعد تستند على مثل عليا مشتركة وانما اصبح كل فرد يسعى لتحقيق ما يشبع (شهوته) واغراضه الخاصة ، ولا اعني انعدام كل نزعة اجتماعية وانما هذه النزعة لم تعد قوية بحيث يكون لها تاثير بارز وشامل ، فالمجتمع أصبح مكونا من وحدات مستقلة في عمومه لا تماسك قويا بينها ولذا فهو يعاني حالة (مرضية) واذا نظرنا الى هذه الوحدات فسنجدها خاضعة لسحر « الاشياء » وصارفة طاقاتها في مختلف الميادين للاستيلاء على « الاشياء » وتحقيق « المثل » المادية التي فرضتها علينا حضارتنا الشيئية – حسب تعبير مالك بن نبي – لاشباع حاجات محدودة لاتسهم في نهضة الامة ولا تنشط حركتها ، وانما تكثر من سلعها الاستهلاكية وتكدس من تلك السلع هنا وهناك .

وهكذا اصبح للتنافس ميادين مادية صرفة واصبحت المواهب مشدودة بتحقيق نوع من الحياة الخاصة يشبه من ناحية الشكل تلك الحياة الخاصة التي نشاهدها – من الخارج – عند الاوروبيين المترفين .

ومن الواقع الذي لا مفر منه وجود حيرة وبلبلة في الاتجاهات والاهداف وان المسيطر علينا هو لاتجاه الغربي الذي يحارب كل مسعى نحو تهييء الفرص للتفكير الجدي في ايجاد تيار مغربي ينبثق من ضمير الشعب وتاريخه وعناصره النفسية ، ولهذا الاتجاه بعض العذر .

وبسبب تلك الحيرة اصبحنا نرى انماطا مختلفة من السلوك والحياة ، وتفككا اجتماعيا سائدا ، واختلالا في المقاييس واختلافا في المشارب .. وما تزال وضعية المغرب التعليمية والاجتماعية والسياسية تساعد مساعدة قوية على نمو هذه المظاهر وترعرعها.

وذلك كله طبع مجتمعنا بالسلبية واصبحت هذه السلبية تواجهنا في كل امر من امورنا ، ولا نستغرب اذن ان وجدنا النوايا الطيبة والمشاريع الخلابة تموت فور وجودها لانها تفتقر الى شروط الحياة ، الى محيط خاص وهو محيط الثقافة .

وبروز تلك الظاهرة كان تماما على حساب ظاهرة طيبة كانت تسود ايام الاستعمار ، والظاهرة هي السيطرة الروحية التي كانت القاسم المشترك بين المواطنين ، مما دفع الامة الى التضامن والتعاون والثقة وتحقيق الاهداف التي رسمت لهم .

ولولا بعض عوامل التمزيق الداخلية التي كانت تصاحب وجود تلك الظاهرة وتؤثر عليها وتجزئها لاعطت نتائج اعظم من التي رايناها ايام كفاحنا مع الاستعمار ، ولكتب لها النمو والاستمرار ولكن هذه الظاهرة لفظت نفسها او كادت عندما رزئت «بالهوى» وبما خيب الآمال وصدم الاماني والاحلام .

ولكن هذا لا يسلمنا الى قبضة الياس وسجن القنوط فليس من شيم المومنين ذلك ، وما ينبغي لهم ان ييأسوا من رحمة الله ، ولنا في الخميرة الروحية التي ما تزال مستقرة في اعماق الشعب المومن خير مشجع على ضرورة تلمس طريق الخلاص وتخطي هذا الحاضر نحو مستقبل يحقق للامة ما كانت تصبو اليه من قبل .

الخلاص هو الثقافة :

فما الحل اذن ، لنصل الى المستوى الذي نريد ، ونحقق الآمال التي من اجلها كنا نسعى ، فنوحد المشاعر والعواطف والافكار ، ونمتن الروابط على اساس حضاري يكون لنا الاطار العام الذي يغذينا بكل نزعة خيرة وميل كريم ، ويتعهد بطبع الاجيال الصاعدة بطابع الثقة والوفاء والاصرار على البناء ؛ والضمير الحي وبالمعاني السامية والاحساسات الجميلة ؟ ان الحل في الثقافة .. اي ان نصبح مثقفين .. ولعل البعض يرد فور قراءته هذا السطر بقوله : اننا مثقفون .. أو على الاقل عندنا طبقة مثقفة لاباس بها ؛ ومع ذلك فان الخلاص مايزال بعيدا .. بل قد يزيد قائلا : ان معظم البلاء جاءنا من هؤلاء المثقفين . والقائل ذلك عذره مادامت الثقافة في عرفه هي العلم وقراءة الصحف وحيازة الشهادات ..

مع ان الثقافة ليست علما ولا شهادة فكم من حامل شهادة ليس مثقفا .. وليست تحذلقا ولا رطانة اجنبية وانما الثقافة (مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال اولي في الوسط الذي ولد فيه ..) وهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة (1) ، وهذا المحيط ليس خاصا بالرجل المتعلم والطبيب والمحامي دون رجل الشارع والزارع والعامل ، وانما الجميع يشترك في تلك القيم فتكون الروابط الاجتماعية متقاسمة بين جميع افراد الامة وتمنح الجميع حصانة حضارية ضد التقهقر والسقوط وتزودهم باحساسات متشابهة متجانسة وبالتالي بسلوك متميز بطابع خاص .

وقد شهد التاريخ ثقافات كثيرة كانت متسمة بطابعها القومي والعنصري فلم تستطع ان تتخلص من شوائب الذات ، والنسبية ، ولهذا راى بعض الكتاب ان الثقافة متعددة ، وبان الثقافة القومية هي : التجلي العلمي لعبقرية شعب في شكله ونظريته في الحياة وتصرفاته (2) ولكن الثقافة مادامت في طبيعتها قومية فانها لن تكون شاملة للقيم الانسانية جميعها لانها حينئذ تكون مرتبطة بجنس معين وبدم خاص ، وبذلك لايمكن لها ان تكون الاطار العام الذي يسع في رحابه الانسانية كلها .

والثقافة لن تكون انسانية الا اذا كانت تحمل في طبيعتها القيم الانسانية المثلى واولها احترام الانسان والمحافظة على كرامته وتعزيزها ، وتكريم الانسان معناه ، ضمان العدل والمساواة ، وصيانته من العدوان والتحكم ، وتحريره وجدانيا واجتماعيا من العبودية للبشر مثله ، وان تكفل له الحياة في رغد وامن في سربه واهله ، وان تهييء الفرص له لكي يسمو نحو الكمال ويزود بوسائل هذا الكمال الانساني .

والثقافة التي تحقق هذه المعاني للبشر هي التي اختارها الله لهم وهي : الثقافة الاسلامية لانها تضم في كيانها جميع عناصر الخير التي تحقق السعادة الروحية والمادية لمن تخالط قلبه بشاشتها ، ولا اعني بالثقافة الاسلامية معلومات تلقن ، ولا قواعد تلقى ، ولا فروعا تدرس ، ولكن احساسات ومشاعر تضم بين حناياها تعاليم السماء وتفيض على الجوارح سلوكا كريما وخلقا رفيعا لتقديم القدوة الصالحة .

فالانسان في الثقافة الاسلامية مكرم بعهد من ربه الذي كرمه قبل ان ينزل للأرض فأمر الملائكة بالسجود له احتراما ، وخلقه في صورته ، وانزله للارض لتحقيق معاني السماء وصرح له بقوله تعالى : ولقد كرمنا بني آدم . ولقد اشاع الله هذا التكريم في ثنايا تعاليمه ، فجعل المساواة للحياة الانسانية فلا تفاضل في جنس ولا في لغة ولا عائلة وانما في التقوى والصلاح (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) ، ومن خطبة نبي الاسلام عليه افضل الصلاة والسلام : ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى الا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

والفرد كريم في الاسلام عزيز على الله ولذلك يكون الاعتداء عليه اعتداء على الناس جميعهم لان المجتمع الانساني في نظر الاسلام كل متماسك يشعر بشعور واحد ويكون جسما واحدا اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى يقول رب العالمين : من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكانما قتل الناس جميعا ومن احياها فكانما احيا الناس جميعا .

ولقد كان الاسلام كريما حتى مع الحيوان فكان قاسيا على المراة التي عذبت هرة .. وكان كريما مع امريء انقذ حياة كلب وادخر الجزاء لامثال هؤلاء ولهذا راينا اوقافا خاصة بالبر بالحيوان .. ولتكريمه للانسان جعل العلاقة بين افراده مودة ورحمة وليس في وقت عادي ولكن في ظروف متوترة وجعل من صفة المومنين انهم يدراون بالحسنة السيئة ، وجعل الدفع بالتي هي احسن خلق المؤمن اتجاه عدوه : ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي

1) شروط النهضة 79 ـ 80 ط 1
2) التربية الوطنية عدد ـ 1 ـ 1959 ـ الثقافات الوطنية والحضارة الانسانية للدكتور عزيز الحبابي

بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ولا يلقاها الا الذين صبروا ولا يلقاها الا ذو حظ عظيم .

والدارس للاسلام يقف على المنابع الثرية لتكريم الانسانية واحترامها في كل ناحية من نواحيه .

ومن تكريم الاسلام للانسان تحريره من عبودية البشر والاحجار والسمو بكرامته عن ان تمتهن بهذه العبودية المزرية وذلك عن طريق الايمان بالله وحده خالق كل شيء وما اجمل هذا النداء الرباني : قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ..

اما تحقيق العدل للانسانية في الاسلام فهو سمة بارزة في هذا الدين وليست العدالة وقفا على المومنين به بل تشمل الناس كافة ممن يقعون تحت مسؤوليته ، والكلمة الخالدة التي قالها عمر رضي الله عنه : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ، كانت بمناسبة ظلم وقع من ابن حاكم مصر عمرو بن العاص على قبطي مصري . والاسلام ليس دين العدالة فحسب بل هو فوق ذلك دين الرحمة والعفو والتسامح ولكن في دائرة واقعية تطبيقية لا مثالية خيالية .. واذا كانت القيم الاخلاقية عنصرا جوهريا في الثقافة فان الاسلام رسالة اخلاقية قبل كل شيء ولهذا كان رسول الله موصوفا من لدن ربه بالخلق العظيم ، وبعث ليتمم مكارم الاخلاق اي ليعمم القيم الانسانية على الناس جميعا وليتمم النقائص الموجودة في ثقافتهم البشرية بثقافة مختارة من لدن خالق الانسان ، ومتفقة مع كيانه البشري وفطرته السليمة التي خلق عليها .

فالاخلاق في الاسلام ليست ذات اشعاعي داخلي ومغلق كما نرى في الثقافة الاوربية التي هي البنت الشرعية للثقافة الامبراطورية الرومانية ، وانما تشع انوارها نحو الجميع (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) وما اروع أسلوب القصر هنا ..

وبذلك تكون مكارم الاخلاق قد شملت الجميع ولم تعد وقفا على علاقات امة معينة كاليهود الذين يرون انهم ليس عليهم في الاميين سبيل ، ويفرقون بين اليهود – شعب الله المختار – وبين الجرييم اي الحيوانات التي خلقها الله على صورة انسان لتخدم شعب الله المختار ، وهذه النظرة المنحرفة قد تجلت في الثقافة الاستعمارية كما نشاهد ذلك مطبقا في المستعمرات .. وفي امريكا ايضا بين البيض والسود.

فمثل هذه الثقافة تحتوي على عنصر اخلاقي ولا شك ، ولكن في دائرة ضيقة وذات اشعاعي داخلي مغلق لاينفذ منه خيط من شعاع نحو الخارج . فالاخلاق هناك في اطار علاقة افراد امة معينة اما خارج ذلك الاطار فتتحول طبيعة العلاقات الى نوع آخر وعلى اسس غير انسانية وغير اخلاقية ، وهكذا يكون الاوربي متقفا من ناحية علاقته باخيه ، ومنحطا من ناحية علاقته بافراد البلاد المستعمرة (بالفتح) اما الثقافة الاسلامية فهي بطبيعتها لاتعرف التفرقة بين الناس ، فالخلق كلهم عيال الله احبهم اليه انفعهم لعياله ، لان هذه الثقافة تستهدف خلق مجتمع انساني متماسك ، وهذا التماسك لن يوجد في ظل ثقافةعنصرية ، أو قومية وانما في ظل ثقافة انسانيةتجمع بين مقتضيات المادة والروح ولكن تجعل المادة خاضعة للروح (وان قوة التماسك الضرورية للمجتمع الاسلامي موجودة بكل وضوح في الاسلام .. وقوة التماسك هذه جديرة بان تؤلف لنا حضارتنا المنشودة وفي يدها ضمانا لذلك تجربة عمرها الف عام وحضارة ولدت على ارض قاحلة وسط البدو ، ورجال الفطرة والصحراء (1))

والثقافة الاسلامية لاتؤمن بالسيطرة والتحكم والاكراه .. لا اكراه في الدين .. لان في ذلك فساد للعلاقة بين المثقف الانساني (المسلم) وغير المثقف وتنفيرا لهذا الاخير عن الارتباط بالانسانية عن طريق الاسلام ولذلك جعل الله الدار الآخرة لمن يريدون الاصلاح لهذا البشر بالتي هي احسن : تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين .

والثقافة الاسلامية من طبيعتها تمتين الروابط وتقويتها بين افراد المجتمع ، ولا تفوتها فرصة دون ان تبث تعاليم لخدمة ذلك الهدف ونظرة الاسلام للجوار خير دليل على ذلك ، والثقافة الاسلامية ليست ذات اتجاه مادي ولا اتجاه روحي ولكنها ذات

1) شروط النهضة ص 7 – 8 – ط 1

اتجاه فطري بسيط واقعي ، لاتساق مع المادة ولا تشايع الروح وانما تستجيب لهذه وتلك في اطار من الانسجام والتعاون بشرط ان تكون الروح قوامة على المادة ولكن فى غير ظلم ولا تعسف ..

والثقافة الاسلامية تكون وحدة متناسقة منسجمة لا تقبل التجزئة او التنازل عن بعض عناصرها والتضحية بطبيعتها فى سبيل اتحادها مع غيرها وادخالها فى اطار مزدوج لان الذي خلق الثقافة الاسلامية جعل وجودها وحياتها في وحدتها فلا ينبغي الايمان ببعض والكفر ببعض ، وما يقال عن ترقيع فى الثقافات فانما هي محاولة لايجاد سقط مشوه يقال له الثقافة ، لان هذه الثقافة ستكون فاقدة لعناصرها الحيوية وجامعة لعناصر سلبية تتبادل بينها عوامل النفور والهدم ولكنها لا تتبادل عوامل الحياة والانسجام

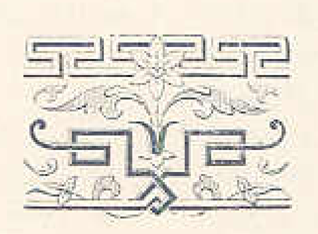
واذا كنت اوليت العنصر الاخلاقي من الثقافة عناية اكثر من العنصر الفني والجمالي فلان الانسانية لفي اشد الحاجة الى الاخلاق لتعيد لها الامن والطمانينة وليستعيد الانسان فى ظل هذه الاخلاق كرامته التي خسرها فى ظل العلم كما فقد راحته فى ظل الصناعة والفن. اذ اصبح العلم مسخرا للضمائر المتعفنة التي جنت شهواتها واصاب غرائزها السعار واصبحت تندفع فى رعونة نحو خراب الارض .

والموضوع ـ اخيرا ـ اكثر من ان يحيط به مقال ولذلك اكتفيت باعطاء فكرة عامة عن الثقافة الاسلامية وبينت فى ايجاز بعض عناصرها ، واعتمدت على اهم مصادرها : (القرآن والحديث) وعسى ان نجد فى المغرب من يؤمن بضرورة هذه الثقافة فيدخلها فى حيز التطبيق لتغيير هذا الواقع الاجتماعي المريض .

واحب ان اقول كلمة اخيرة قبل ان اغادر الموضوع :

ان الاستعمار يراقب سير المغرب من البلاد الاسلامية ـ مراقبة واعية ودقيقة ويعمل جاهدا على ابقائنا فى واقعنا المتعفن لان فى ذلك تحقيقا لاهدافه ويستعين فى تقوية وتركيز هذا الواقع وتغذيته بالغذاء اللازم بخبراء يبثهم فى مراكزه وقواعده الثقافية ليحولوا بيننا وبين ثقافتنا الاسلامية عن طريق تزييف الحقائق ، تلك الثقافة التي ان طبقت فى واقعنا ستكون القضاء على الاستعمار ليس فحسب فى المغرب بل فى افريقيا المتعطشة للاسلام ، والاستعمار لا يهمه ان كان المغرب اكبر مصدر للخمور لافريقيا ولكن الذي يهمه ان يكون المغرب مصدر المومنين والدعاة المخلصين بالثقافة الاسلامية فى افريقيا .

ولهذا كانت دعوتنا لوجوب الاخذ بالثقافة الاسلامية لانها ستخلصنا من الكارثة الاستعمارية وستحلنا مقعد القيادة الروحية والفكرية فى افريقيا وتجعلنا نسهم فى انقاذ الانسان المعذب وتزويده بعناصر الحياة : بالدين القيم .



الانتاج الادبي والعقبات التي تقف في طريقه

للاستاذ عبد القادر زمامة



اذا استعان الباحث بالموضوعية والنزاهة والاطلاع الواسع عما انتجته الاقلام المغربية منذ مفتتح القرن العشرين الى الآن ... واذا كان بامكانه ان يقرأ مجموعات الجرائد والمجلات المغربية التي صدرت في الشمال والجنوب .. وان يستقصي المؤلفات المغربية بين ديوان وبحث وقصة .. فانه ولا شك يكون رأيا ناضجا نزيها في الانتاج الادبي بالمغرب .. وسيكون هذا الراي المبني على الاستقصاء والتتبع مغايرا كل المغايرة لهذه الاصوات الببغاوية التي تردد النغمة الواحدة ، وتحكي الصدى الواحد في كل الظروف والمناسبات ...

ولنبدأ القصة من اولها كما يقولون .. هل هناك انتاج ادبي في المغرب ؟ واذا كان فما هي الصفات العامة لوجهته ؟ والى اي حد يمكن ان يكون هذا الانتاج معبرا عن البيئة المغربية والحياة المغربية الجديدة ؟ وهل هناك عوائق تحول دون اداء هذا الادب لرسالته في الفكر بالمغرب والمجتمع المغربي...؟

ولعلك ادركت انني ابحث عن الانتاج الادبي بالمغرب منذ مفتتح القرن العشرين اي منذ ازيد من نصف قرن من الزمن .. وهي حقبة طويلة مر المغرب فيها بثلاثة اطوار هي .. عهد الاستقلال الاول .. عهد الحماية .. عهد الاستقلال الثاني .. ولنسر في البحث على ضوء هذا التقسيم .

فعهد ما قبل الحماية كان في انتاجه الادبي والعلمي مرتبطا بملابسات الزمان والمكان والحياة الاجتماعية والسياسية .. فكان هناك الادباء الرسميون المرتبطون برجال الحكم والسياسة يمدحون ويهنئون ويصفون .. وهناك الادباء الاحرار الذين غلبت عليهم النزعة الشخصية فعاشوا بين ماجن خليع همه الانغماس في حمأة الرغبات المادية .. وتقي متصوف همه الفرار من واقع الحياة وصخب الاحياء الى وجدانياته وسبحاته .. واجتماعي واع عاش الاحداث الخطيرة التي كانت تعصف في الداخل والخارج باستقلال المغرب ووحدته ... وشاهد الاوضاع التي زيفت المقومات الاساسية لحياة الافراد والجماعات .. وكل هؤلاء تركوا انتاجا ادبيا عرفنا بعضه في ديوان الشاعر المغربي الفحل الحاج ادريس السناني الذي يدل دلالة واضحة على ما بلغه الانتاج الادبي المغربي في ذلك العصر من تنوع ومتانة وخيال وجداني بديع .. كما عرفنا بعضه في آثار الشاعر المغربي ابي العباس ابن المواز شيخ الادباء وامام الشعراء في عصره .. وقد طوي عنا واخفي كثير من انتاج هذه الحقبة من تاريخ المغرب لعدة اسباب .. ترجع في معظمها الى استئثار ورثة الشعراء والكتاب بآثار آبائهم واجدادهم وتركها مهملة في خزائن خاصة لاترى النور ولا يسمع الناس عنها قليلا ولا كثيرا .. كما انه قد ضاع فعلا كثير من انتاج هذه الحقبة

بسبب الاهمال وانعدام وسائل النشر من صحف ومجلات ومطابع .. على ان الباحث المتتبع يعثر بين الحين والآخر على بعض هذه الآثار في اوراق مخطوطة اتى عليها الزمان .. وقد تبين من هذه الاشعة التي ارسلناها على الانتاج الادبي في حقبة ما قبل الحماية ان هناك حياة ادبية زاخرة تمثل عصرها اصدق تمثيل وتحتاج الى عناية ونشر ودراسة .. وقد نسيت ان اقول ان حادث دخول الفيل الى المغرب كهدية من بريطانيا العظمى لجلالة ملك المغرب قد احدث ضجة ادبية بين الشعراء والكتاب فتبارت الاقلام وتسابقت القرائح .. وكتب اصحاب المقامات على الطريقة المعروفة مقامات عديدة عرفنا منها شيئا وفاتتنا اشياء .. ثم اختيرت بعض هذه المقامات وكتبت بخط رائق وزخرفت .. وارسلت الى البلاط الامبراطوري في لندن ...

اما حقبة الحماية فلها طابع خاص في الفترة الممتدة من الاحتلال الى نهاية الحرب الريفية .. كما ان لها ميزة خاصة بين الحرب الريفية واعلان الاستقلال .

فالفترة الاولى كانت استمرارا لعهد الاستقلال مع طابع خاص هو الاعراض عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاستسلام للحياة الشخصية في محاسنها ومباذلها .. لان الخوف من الحماة الذين تدخلوا في كل شيء جعل الادباء يفرون من الحياة الاجتماعية فهذا يصبح مؤرخا يؤرخ المدن او الملوك او الآثار .. وهذا يصبح قاضيا نوازليا يجلس لفض الخصومات وسماع المرافعات .. وهذا يصبح كاتبا في نظارة او وزارة .. وصار الشعر لايسمع الا همسا في مناسبات خاصة .. او جهرا في مدح كبير .. او تهنئة عظيم .. او تملق وجيه .. على ان هناك طائفة فاتها الركب وخانها الحظ فلم تنل منصبا ولم تكتسب جاها فقادها اليأس الى حياة المجون والعبث تدور حول نفسها وترسل نفثاتها في خمريات وهزليات وغزليات وهجويات ..

ولسنا في مقام سرد الاسماء والمسميات والآثار الادبية لكل شاعر او كاتب او على الاصح ممن كان يسمى شاعرا او كاتبا .. ويكفي ان نقول ان آثار هؤلاء لم تضع تماما فقد حفظت بعض المؤلفات المغربية شيئا منها .. كما ان بعض الصحف كانت تنشر شيئا منها في مناسبات عديدة ..

فاذا انتقلنا الى الفترة الثانية من حقبة الحماية وجدنا روحا جديدة ونهضة ادبية حية طموحا تتجلى في هذه المجلات وهذه الصحف التي اخذت تظهر في الشمال والجنوب طافحة بالانتاج الادبي شعرا ونثرا وقد دبت فيه روح جديدة من الشعور بالوطنية المغربية والتحفز الى الاصلاح والبناء .. وظهرت فيه آثار الاتصال بالنهضة الادبية والعلمية والاصلاحية في الشرق العربي .. وكانت النزعة التاريخية تسيطر على اهم البحوث والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات .. كما ان الشعور القومي كان هو الآخر بارزا في جل القصائد التي ظهرت لشعراء كثيرين .. والباحث المتتبع لمجموعات : السلام – والمغرب الجديد – والثقافة المغربية – ومجلة المغرب – ورسالة المغرب – «في اطوارها الاربعة» والملحقات الثقافية لجريدة – المغرب – يطلع على انتاج ادبي وفكري جدير بالخلود .. وكما قلت في الحقبة الاولى لن استعرض اسماء ولن ادخل في التفاصيل لان ذلك موضوع بحث مدقق بالمصادر والارقام شغلت به نفسي منذ زمان .. وكانت المناسبات تعمل عملها في الانتاج الادبي كيوم شوقي .. ويوم المتنبي .. وذكرى مراكش .. ومأتم البلغيثي .. وحصار .. وابي شعيب .. وابن القرشي .. وذكرى الهجرة النبوية .. وذكرى المولد الشريف .. وعيد العرش .. وذكرى الظهير البربري . والمتتبع لما نشر ولما لم ينشر من الانتاج الادبي في هذه المناسبات يظفر بدرر غالية جديرة بالاذاعة والنشر ويجدر بالباحث الا يهمل هنا ملاحظتين اثنتين :

الاولى : ظهور القصة المغربية في محاولات موفقة باقلام مغربية بارعة اقتصرت على القصة القصيرة .. ولو خرج اصحابها من طور المحاولة الى طور التخصص لكنا اليوم امام قصص طويلة ذات طابع مغربي ممتاز .. وقد استطاع الاستاذ عبد المجيد بن جلون السفير المغربي بالباكستان أن يشب من «وادي الدماء» الى « في الطفولة » فسجل نصرا ادبيا للانتاج المغربي لن تنساه الاجيال .

على ان القصص القصيرة كانت في معظمها مشرفة لا تخلو من فن طريف وتحليل عميق .. واقرا – عمي بوشتاق – و – في هدوء الشارع – و – داء النبوغ – و – الطاوس الانساني – و – مجذوب زالاغ – و – حتى الطيور في حيرة – و – الفقيه البركة – على سبيل المثال لترى المحاولات الجريئة الموفقة التي حققها هؤلاء النوابغ ...

الثانية : بوادر الادب المترجم عن الفرنسية والاسبانية فان الثقافة الاجنبية بدات تعطي نتائجها في هذه الفترة .. فهناك ادباء اصبحوا يحاولون نشر ترجمات عن الفرنسية والاسبانية بلغتهم العربية .. كما انه وجد منهم من كتب قصة مغربية عميقة التحليل رائعة الاسلوب بلغة فرنسية بليغة .. وكذلك وجد الشاعر المغربي الذي انتج شعرا فرنسي اللغة نال به اعجاب وجوائز المجامع الادبية في فرنسا ..

واذا كان لنا ان نسجل شيئا عن هذه الحقبة من تاريخنا الادبي فاننا نسجل انها الميلاد الحقيقي للمغرب الجديد بكل اتجاهاته الادبية وفيها تكونت البذور الكاملة لما نشاهده اليوم من صراع في معركة الحياة والبقاء .. وسنكون اوفياء لماضينا وحاضرنا الادبي او عملنا على نشر ما نسي او جهل من اثر هذه الحقبة الزاهرة بالانتاج الادبي وان كانت مظلمة مليئة بالفواجع والآلام ...

ولننتقل الى الطور الثالث طور الاستقلال ، وكما كان الاستقلال نعمة وثب المغرب بسببها وثبة تاريخية زلزلت ارض الطغاة والحماة والجناة ، وعرف طريقه لبناء حياة جديدة ذات مسؤوليات وتبات وواجبات في الداخل والخارج .. فانه كان ايضا فرصة ذهبية للانتاج الادبي شعرا ونثرا .. وكان المنتظر ان يتشجع الجبان .. ويستأسد الضعيف .. ويثب الخجول الحيران .. وتاتي البذور بمحصول عظيم الكم .. رائع الكيف ..

ولكن ــ وما اقسى ولكن وما امرها ــ انقلبت الآية فسكت الناطق .. وهدا المتحرك .. وضعف القوي . ونضب المعين او كاد واصبح الفراغ الادبي شبحا مخيفا يتراءى في كل ميدان .. ويضج الناس بالشكوى منه في كل مناسبة ..

والى هنا ينتهي العرض لنبدا في مناقشة العقبات التي تقف في طريق الانتاج الادبي .. وتحول دون ازدهار الحياة الادبية بالمغرب .. وهذه العقبات في طبيعتها ترجع الى نوعين اثنين : عقبات مادية ترجع الى الحياة الاقتصادية واسلوبها .. وعقبات ادبية ترجع الى الحياة الفكرية واسلوبها .

فالمغرب لحد الآن غير مجهز بأدوات النشر والطبع من مطابع ودور تجارية تغامر بنشر الانتاج المغربي القديم منه والحديث .. ومساهمة المطبعة في الحياة الفكرية اصبحت ضرورية لاتتحقق اية نهضة بدونها .. وفي يقيني ان هذا النوع من الاقتصاد يجب ان ندعو اليه بكل الوسائل وسنظل نعاني ازمة فكرية وثقافية خانقة اذا لم نعمل على تجهيز البلاد بالمطبعة كما جهزناها بالراديو والهاتف والتليفزيون ..

وهنا اتوقع ان يعترض ناقد ويقول : ان المطابع الموجودة على قلتها كافية لان الادباء المغاربة لا ينتجون .. ولا يؤلفون فماذا ينشرون .. ؟ والجواب عن هذا الاعتراض ان المطابع ودور النشر في الامم الاخرى تبحث بطبيعة عملها التجاري عن المؤلف الذي تنشر له انتاجا .. وعن المصحح الذي يصحح لها مخطوطا .. وهي الى جانب عملها الاقتصادي الذي قد يدر عليها ارباحا .. تسهم في خلق حياة ادبية وازدهار ثقافي .. واخراج كتاب الى القراء .. لا يتوقف على مجهود المؤلف فقط .. بل يتوقف على مجهود الطابع .. والناشر .. والمصور احيانا .. فكل هؤلاء لهم حظ في وصول انتاج ما الى ايدي القراء ..

وهذه هي العقبة المادية الكبرى وعنها تتفرع عدة مشاكل لا مجال لذكرها الآن باستقصاء .

اما العقبة الادبية فهي ظاهرة طغيان الثقافة الاجنبية على الثقافة العربية حتى كاد التوازن ينعدم فالذين ينتجون ادبا عربيا مغربيا هم في الغالب من الذين يحملون ثقافة عربية خالصة .. او من الذين يحملون ثقافة عربية متينة الى جانب ثقافة اجنبية مكملة .. وهذا طبيعي لا مناص منه لانتاج ادب مغربي عربي اللغة والروح .

وهذا الجيل من الادباء قد ادى رسالته في مرحلة الكفاح الوطني فاسهم بنسبة متفاوتة بين افراده في الانتاج الادبي وهو الآن يملأ فراغا كبيرا في مناصب الدولة والوظائف المتعددة .. وقد ترك انصرافه عن الميدان الادبي فراغا ملحوظا عمت منه الشكوى .. على ان هناك من الاسباب الظاهرة والخفية لانصراف بعض الناس عن الانتاج الادبي ما لا تمكن مناقشته الآن وستحتفظ بها ذاكرة التاريخ التي لا تنسى ولا تنسى .

ثقافتنا بين القومية والإنسانية

للأستاذ محمد السرغيني

الحضارة فعل انساني يقوم على مختلف ما يبديه الانسان من نشاط ثقافي . فالثقافة بمختلف فروعها ، هي مجموع الحضارة ، فهي التي تحيل النظريات المجردة الى واقع يلمسه التاريخ حين يتناول الحضارة بالدرس : النظريات الهندسية تتحول الى جسور ومشاريع ، والنظريات الفلسفية تتحول الى نظم وقوانين تعطي المعنى الحقيقي لحرية البشر وسلوكهم ، والنظريات العلمية تتحول الى مخترعات ، وهكذا . هذه التطبيقات الناشئة عن النظريات يتناولها المؤرخ لحضارة ما ، على اساس انها وثيقة تشهد بالدور الذي لعبته هذه الحضارة في اطار الحضارة الانسانية الشاملة . واذن ، فالثقافة عنصر هام في بناء الحضارة بشكليها : العام والخاص .

والواقع انه منذ بدء التاريخ ، والحضارات تتعاور عليها الامم المختلفة : حضارة الصين ، حضارة مصر القديمة ، حضارة اليونان ، حضارة الرومان ، حضارة العرب ، حضارة العالم المتمدن . وما دامت الحضارة فعل انساني ، فهي حق مشاع بين جميع الشعوب والامم ، وعلى هذا الاساس ، لا نستطيع ان نحكم بجزم ان هذا الشعب دون المستوى الحضاري للآخر ، فهذا شيء لم يحدث مطلقا في التاريخ ، اذ ان كل شعوب الارض ساهمت على قدر امكانياتها في التنمية الحضارية العامة . والذي حدث ان شعبا سبق آخر في هذا العمل ، وحينما اضمحلت حضارته، سلمها بطواعية وبتلقائية للآخر ، حيث اضاف اليها الكثير وطبعها بخصوصياته .

ويمكن ان نجد بعض الشعوب الملونة قد تأخرت عن ان تسهم في بناء الحضارة ، وذلك يرجع الى ظروف تاريخية قاسية ، عاشتها هذه الشعوب ، هذه الظروف عاقت ذكاءها ومفاهيمها للحضارة عن التفتح . والآن ، وبعد ما اتيح لها الانطلاق ، فانها لم تتقاعس عن تحمل دورها في معركة البناء .

والعرب كغيرهم قد اسهموا في بناء الحضارة الانسانية ، وكان هذا الاسهام محل نقاش عنيف بين كثير من الاجانب الذين كتبوا عن هذه الحضارة ، فهناك من يحاول اثبات حضارة اسلامية ، لان مختلف الاقليات التي انصهرت في الاكثرية العربية ، حملت معها مفاهيمها الحضارية ، وامكانياتها الذكائية ، وافرغتها في القالب العام للتاريخ الاسلامي، هذا الفريق أكثره من المستشرقين ، فبعضهم اقتنع بالفكرة لايغاله في مسيحية متعصبة (1) وبعضهم الآخر ، اخذ بنفس الفكرة ، ليسير في دراساته على مقتضى منهاج ، وذلك ان الحضارة الاسلامية متشابكة في مظهرها الفارسي والعربي والرومي والتركي ، فهناك كثير من المؤلفين القدامى تركوا تراثا ازدواجيا ، اي انهم كتبوا بالعربية وبلغتهم الاصلية ، كالخيام صاحب الرباعيات مثلا . وهناك مسائل معقدة في الحضارة الاسلامية ، لا يمكن ان تدرس الا عندشعبين، فنحن عند دراستنا للصوفية، لابد ان ندرسها في وجهيها الفارسي والعربي ، بل والتركي احيانا ، اذا اردنا دراسة صوفي كجلال الدين الرومي . وهناك قضية التاريخ العثماني الذي كتب باللغتين : العربية والتركية ، اذ ان بعض متقدمي مؤرخي الدولة العثمانية من الاتراك ، كتبوا تاريخ دولتهم بلغتين ، وخصوصا اولئك الذين تأثروا بمقدمة ابن خلدون : كحاجي خليفة 1609 — 1657 . صاحب كشف الظنون . وهناك مثلا التراث الفلسفي العربي ، الذي بقي بين ايدي (الموريسك) حال سقوط الحضارة الاسلامية في الاندلس ، هذا التراث ترجمه اليهود الى العبرية ، خوفا عليه من اسبانيا المسيحية ، عدوة الفكر

1) كالمستشرق الاب لامانس .

العربي الاسلامي آنذاك . فلقراءة هذا التراث ، لابد من تعلم العبرية . والعربية نفسها نتاج القريحة السامية ، فلتعلمها ، لابد من ثقافة سامية ضليعة . وهكذا ، فالحضارة الاسلامية مرتبطة ارتباطا قبليا بالساميات ، وارتباطا بعديا بحضارة الاقليات التي انصهرت فيها .

والخلاصة ان هذا الفريق الثاني من المستشرقين ارتأى ان يطلق تعبير الحضارة الاسلامية ، كما فعل ادام ميتز ، في كتابه : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ، وديمومبين ، في كتابه : النظم الاسلامية ، ودي بور ، في كتابه : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، وغيرهم (1) ليشمل ذلك جميع الشعوب التي عاشت في كنف الاسلام ، ولهذا فحين يطلق تعبير الدراسات الاسلامية ، يهدف ذلك الى تاريخ حضارة الشعوب التي عاشت مع الاسلام مؤثرا فيها ، أو قبله مؤثرة فيه .

والواقع ان هناك طائفة من العرب المسلمين تروقهم هذه الفكرة ، لانهم يعتقدون ان شفاء مضمونا من هذا التردي ، هو في وحدة اسلامية شاملة ، وهذا يتمشى مع منطقهم العام . كما ان الشعوب المسلمة غير العربية ، تعطف على هذا الاتجاه . ومن المهم أن نشير هنا الى ان كتابات صهيونية متاخرة في هذا المضمار ، نفت نفيا باتا ان هناك حضارة عربية ، فقد ظهر في فرنسا قبل سبع سنوات ، كتاب ليهودي فرنسي ، تحت عنوان : دولة اسرائيل ، والبلدان العربية . سار فيه مؤلفه في هذا الاتجاه . ولم يكن السير في هذا الاتجاه بالنسبة الى اليهود اخلاصا في تقرير حقيقة تاريخية ، ولكنه اتجاه قصد منه طمس معالم الدور الذي أسهم به العرب في بناء الحضارة العامة ، فهم يهدفون بنتائج هذا الاتجاه الى توسيع شقة الخلاف وبث الحقد الاعمى في القلوب .

وهناك فئة من المتاخرين العرب ، ممن اقتنعوا بدسائس اولائك وهؤلاء ، قامت تؤطر تفكيرها وتحاول تعميمه ، هذه الفئة ، تبنت اتجاه الحضارة العربية ، فكانت كل اعمالها الانتاجية تنعكس على هذا الاطار فقد بدانا نرى كتبا تتناول الماضي على انه ماض عربي بحت ، وذلك ككتاب (تاريخ الفلسفة العربية) لحنا الفاخوري وخليل الجر ، وكتاب : (معالم الفكر العربي في العصر الوسيط) لكمال اليازجي ، وكتاب (تاريخ العرب) لفيليب حتى وجرجي جبور .

والحق ان العرب برزوا في تاريخ الحضارة العام بروزا منقطع النظير ، ولا مجال هنا لاظهار ذلك البروز في جميع مرافق الحضارة حتى اللغوية منها ، انما المهم ان نذكر هنا ان الفرس والروم والقبط والسريان والترك ، وكل الاجناس التي عاشت مع العرب ، انتجت انتاجا حضاريا بأدوات عربية محض : الفكر واللغة ، اما مادتهم الخام تلك المتأثرة بمحليتهم ، والتي تتجلى في الميراث المنحدر اليهم عبر اجدادهم، فقد بدات تفقد خاصياتها كلما ازدادوا اقتناعا بسلطة الفكر واللغة العربيين .

ان هذه الفئة التي تجد من اجل ابراز دور العرب في الحضارة ، قد ركزت جانبا مهما من قواها في البحث عن الماضي ، باعتبار انه يولد في الجيل الحاضر حاسة الاقتناع بالدور الحضاري الذي لعبته امته ، ومن ثم يكون وجوده استمرارا لذلك الدور . على انها لم تهمل الجانب البعدي في حركتها ، ولكي تجعل هذه الحركة في انسجام مع النزعات الحالية ، وعلى الخصوص منها تلك النزعات التي تخدم المجتمعات المتخلفة ، كالاشتراكية في صورتها المعتدلة ، أو التي تخدم الفكر في مفهومه الفلسفي البحث ، كالوجودية في دعوتها الانسانية للحرية وتحقيق الذات عن طريق الاختيار الحر الواعي . ولهذا جاءت الدعوة العربية اليوم ، مجموعة من آراء وافكار قبلية وبعدية ، اتحدت لتضع الاسس لبناء حضاري جديد ، كل هذا ، ليستطيع الفكر العربي اليوم ، أن يؤكد استمرارية عطائه وخصوبته . ولكي نبين هذا ، ينبغي أن نشير الى الموجة الجديدة التي تكتسح دعاة الحضارة العربية اليوم : فهي (شوفينية) (2) من ناحية الاعتزاز بالجنس وبالماضي ، واشتراكية من ناحية أهدافها الاجتماعية والسياسية ، ووجودية من ناحية منهاج تفكيرها وتقييمها للانسان : اننا نجد اتجاها وجوديا في الانتاج الذي تطلع به علينا مجلة الآداب البيروتية ، كما اننا بدانا نطالع لسارتر ، ولسيمون دوبو فوار ، ولكافكا ، بناء على ترجمات لبنانية ، بعضها لرئيس تحرير المجلة الآنفة الذكر ، كما ان موجة كاسحة من « الضياع والقلق » بدات تطغى على شعر شعراء الموجة الجديدة

---

(1) كبروكلمان في كتابه : تاريخ الشعوب الاسلامية

(2) CHAUVINISME

وقصاصيها : ان (خليل حاوي) يفصح عن وجودية صريحة في ديوانيه : (نهر الرماد) و (الناي والريح) ، كما ان (مطاع صفدي) يفسر التمزق الذي يعانيه الجيل العربي الحالي تفسيرا وجوديا ، بل يتعدى ذلك الى ان يفلسفه ، وذلك في قصتيه : (الآكلون لحومهم) و (جيل القدر) . كما اننا بدانا نقرا قصصا (ساجانية) بلغة عربية صريحة : (كوليت سهيل : ايام معه : وليلة واحدة) و (ليلى بعلبكي : انا احيا ، والآلهة الممسوخة) .

اما في المجال السياسي والاجتماعي ، فقد قامت بعض الاحزاب بالدعوة الى الاشتراكية ، وبذلت في ذلك وسعها لتجعلها تنسجم مع مجتمعاتنا المتخلفة .

كل هذا يصلح ان يكون مدخلا لما نحن بصدده ، ولكني احب ان اشير الى مفهوم القومية والانسانية، قبل أن يتاح لي ان اقترح الحلول التي ينبغي ان تنتهجها ثقافتنا .

ان القومية عند (ماركس) ، هي مجموع الوطن والجنس واللغة والتاريخ ، وان كان هذا المفهوم الآن، لم يعد مستقرا ، فهناك قوميات متحدة ، تتحدث عدة لغات ، كما أن الهجرات المتكررة من البلدان المتخلفة ، الى البلدان التي تطفو بالفيء ، قد جعلت من العسير ان تكون قومية ما ، ذات اصل سلالي واحد ، ويظهر ان الارض هي التي تلعب دورها في تقنين وتحديد هذه القومية وتاطيرها في كثير من الخاصيات والامتيازات. وعلى هذا الاساس ، فالقومية العربية وجدت نفسها امام هذا التصدع التطوري ، فلم تشترط لذلك نقاوة الاصل السلالي ، بل جعلت كل من يعيش في ارض عربية التاريخ عربيا . هذه القومية قومية بالمعنى الواسع ، وهناك قومية بالمعنى الضيق لشعب واحد من الشعوب ، ويمكن ان ترادفها كلمة : (محلية او مغربية) . والحق ان المحلية ايضا لها خصائصها وطابعها بالنسبة الى الاقطار الاخرى التي تندرج جميعا في قومية بالمعنى العام ، وفي هذا المجال ، يمكن ان تضيق المحلية الى محليات كل منها ذو خصائص وميزات . فاي القوميتين نريد لثقافتنا ؟ انكتب ادبا يعكس آمال العرب باعتبار القومية العامة ، وفي هذا الوقت نتنازل عن تلك الخصوصيات التي تجعل انتاجنا محليا فقط ، ام ننتج ادبا يهدف الى ابراز خصوصياتنا كشعب في اطار قومية كبيرة تضم عدة شعوب ؟ الواقع ان الاتحاد السوفياتي والاحزاب الشيوعية في العالم ، يؤكدان على محلية فنون وآداب الاقليات المنصهرة في الاكثريات ، على شرط ان تنسجم هذه الفنون وتلك الآداب رغم محليتها مع الدعوة الاشتراكية ، اي انها تستطيع ابراز الماضي في شكل طيبوبة مستغلة ، والحاضر في شكل تفاؤل في الغد . فنحن نشاهد الرقص المختلف لمختلف شعوب الاتحاد السوفياتي ، خاضعا لعبقرية وتقاليد الشعب الذي وضعه ، كما اننا نرى أن الاتحاد السوفياتي يشجع لغات الاقليات المنضوية تحته ، وذلك بتدريسها وتسهيل مهمة التاليف بها ، وهذا يعني ان الاشتراكية وحتى في صورتها المتطرفة عند الاتحاد السوفياتي ، لا تجد مانعا من التاكيد على الخصوصيات المحلية . اذا استطاعت ان تدفع التيار الانساني العام الى الامام ، فاذ تناقض اتجاه المحلية مع الاتجاه الانساني ، بحيث كان الانتاج نازيا او استعماريا او فاشيا ، فان الاشتراكية لن تفتح له المجال في كنفها للظهور .

وهكذا ، فالانتاج الفني الانساني ، يسمو عن الفردية ، ويتجه الى الانسان ليجعل منه موضوعه الابدي ، وهنا مفترق الطرق بين كل من الوجودية والشيوعية ، فالوجودية تسمي الادب انسانيا ولو كان مجرد خطرات انسانية تصلح لان تكون تجربة حياتية ينتفع منها الآخرون ، بينما تؤكد الشيوعية على المعنى النضالي للانسان من اجل اسعادنفسه واسعاد الاخرين

فاذا اخترنا ان تكون ثقافتنا انسانية ، فاي الاتجاهين نفضل ؟ الى هنا ، فقد طرحنا سؤالين ! ومن خلال الجواب عنهما ننفذ الى موضوعنا .

اننا نود لثقافتنا (انسنة) شاملة تظهر للاخرين عبقريتنا ومدى اسهامنا في بناء الحضارة الحالية ، ولكننا نرى من الاجحاف لفكرنا ان نجعله يسير وفق مناهج خطها غيرنا ، مع انه في امكاننا ان نعطي لانتاجنا لونا خاصا بنا ، لا يتعارض مع خطة (انسنة) ثقافتنا فنحن شعب له عبقريته كبقية الشعوب الاخرى ، وفي امكان هذه العبقرية ان تمد بالخصب وبالثراء الفكري، هذه العبقرية نريد ان تبرز لتحدد مدى مسؤولياتنا اتجاه الحضارة الانسانية ، ولا يمكنها ان تبرز الا اذا زودناها بطاقات محلية ، تكون مع طاقات المحليات الاخرى التي تتفرع عن قوميتنا العامة ، نصيبنا الوافر في دفع عجلة الحضارة الى الامام .

اذن ، ما هي السبل الصحيحة التي تؤدي الى ابراز عبقرية ثقافتنا المحلية ؟ وما هو علاج هذا الركود الذي يكتسح بلادنا رغم انها في فترة مخاض ؟

الواقع ان تبني احياء التراث المغربي ، هو اسهام منا في ابراز عبقريتنا المغربية والعربية على السواء ، لكن هذا الاتجاه ، لا ينبغي ان يستوعب كل اعمالنا ، اذ ان المبالغة فيه (شوفينية) غير واعية ، فنحن لا نحيي تراثنا الا لنصل بين ما انقطع من حلقات الحضارة العربية في بلدنا ، وبالتالي ، بين بلدنا وبين العالم ، فقد عشنا فترة غموض جهلنا فيها التاريخ ، لاننا كففنا عن العطاء الحضاري . هذه الفترة الغامضة بالذات ، نريد ان نجلوها خدمة لماضي الحضارة ، وحين يتم لنا ذلك ، فسنتجه بعمق الى المستقبل . واذا كان لي ان اوجه بعض ملاحظات الى بعض الذين تخصصوا في بعث تراثنا ، فانني اقسمهم الى قسمين : قسم يستغل المناهج العلمية ، فيطبقها على ابحاثه ، وهؤلاء اتيح لهم ان يتصلوا بالفكر الغربي ، هذا القسم يفهم مهمته خير الفهم ، اما القسم الآخر ، فهو وان اتيح له ان يعرف اكثر ما يعرف عن الموضوعات التي يزاولها الا ان اعماله ينقصها الربط بين موضوعاته وبين الحضارة ، فاصحابه يزاولون ابحاثهم بحيادية غريبة ، هذه الحيادية تجعل انتاجهم رغم وفرته ، عقيم القيمة. هذه الحيادية تتلخص في انهم يجمعون الاخبار ، اخبار الافراد ، ويلقونها في تناسق او عدمه ، من غير ان يلتفتوا الى قيمة الفرد الذي يؤرخون له ، ومدى اسهامه في حضارته التي عاشها ، ومن هنا ، ينبغي ان نؤكد انه على اساس القيمة الحضارية لتراثنا يجب أن يبنى كل تنقيب .

على ان انشاء ادب مغربي بكل فنونه ، لمن أول الواجبات علينا لمغربة ثقافتنا مغربة لا نبعد بها عن جوهرها العربي العام . وهذا الاتجاه لايقل اهمية عن بعث التراث المغربي ، اذ فيه تأكيد لشخصيتنا الحاضرة ، ولاستمرار عبقريتنا الماضية . وهذا يتم بقيام الدولة بتشجيع الطبع والنشر ، ومد الناشرين والمؤلفين بمختلف الاعانات التي من شانها ان تساعدهم على الاستمرار في اداء رسالتهم .

وان المادة الخام لحركة ادبية فنية ، هي البحث بدون انقطاع عن الوسائل التي من شانها ان تدفع بالناشرين الى الميدان ، وذلك بخلق جوائز ومسابقات تهدف الى ابراز العبقريات التي يكاد يعلوها الصدا ؛ وهي مغمورة في هذا النسيان الكاسح . على ان هذه الجوائز وتلك المسابقات ، لا ينبغي أن تكون تعبيرا عن مناسبات ، او دفعا لانتاجنا لان يسير في ركاب تقليديات مدحية ، وان اتحاد ادباء المغرب العربي ، ليتحمل مسؤولية عظمى في هذا السبيل .

والواقع ان المشكلة في مجموعها ، مشكلة انتاج، ومشكلة اظهار ذلك الانتاج ، ويتم هذا الاظهار بتعاون الطابع والناشر والقارىء ، فاذا استطعنا ان نذلل الانتاج والطبع والنشر ، وذلك باتباع الوسائل التي قدمت ، فان مشكلة القراء ، نستطيع التغلب عليها اذا عرفنا أن ندعو اليها بطريقة اجتماعية : اي اننا ملزمون بالقيام بدعاية واسعة النطاق للكتاب وللقراءة، فصحفنا ومجلاتنا واذاعاتنا ، عليها أن تفتح في اعمدتها وبرامجها ، بابا لنقد الكتب الحديثة الصدور ، والتعليق عليها ، على أن يكون هذا التعليق وذلك النقد يتناول الكتب التي صدرت في جميع اللغات ، وينبغي ان نفهم حاجتنا الاستهلاكية ، فلا نقدم الا الكتب التي من شأنها أن تفتح أمام ثقافتنا آفاق الازدهار والتفتح . وان وزارة الشؤون الاجتماعية تستطيع أن تسهم في هذا المضمار بنصيب وافر ، وذلك باستغلال الادوات الفنية التي تملكها . على اننا يجب أن نلاحظ أن الانتاج الاجنبي الذي يغزو المغرب في صورة كتب وصحف ومجلات ، يجد اقبالا عند بعض المغاربة ، مما يؤكد ان النية (الحسنة) متوفرة فقط ، يجب ان نقدم اليهم شيئا دسما. وتبقى المشكلة الاقتصادية للقراء ، فان الجبايات والجمارك ، اذا استطاعت ان ترفع ايديها عن الكتاب ، فسيكون الباب مسدودا أمام بعض (المرابين) ممن استطاعوا ان يملأوا خزائنهم بالمراباة بالكتب وبالثقافة، فسيكون آنذاك في استطاعة القارىء العادي أن يشبع نهمه الى الكتاب ، ويبدو لي بناء على هذا ، ان مشكلة القراء انما هي مشكلة اقتصادية فقط .

يبقى شيء واحد ، وهو : تخفيض ثمن المطبوعات في المغرب ، وهذا شيء تستطيع الدولة ان تنفذه ، كما ان جشع الناشرين ، اذا استطاع ان يكبح جماح نفسه ولو لمدة قليلة ، ريثما يتم لنا وضع اللبنة الاولى ، فان المغرب سيعرف نهضة ثقافية شاملة .

أزمة إنتاج واستهلاك

للأستاذ المهدي البرجالي

تتفق الاراء على القول بان المغرب يعيش ازمة فكرية بعيدة الغور ، عميقة الجذور ، على الرغم من ان وجودها لا يحتل اية منزلة بارزة في منطقة اهتماماتنا الوطنية الملحة ، ولا يستأثر باي جانب من اتجاهاتنا نحو الاصلاح والترميم في مختلف الميادين ، ولا يماري احد في ان استمرار هذه الازمة وتشعب نواحيها من شانه ان يبقى على حالة التخلف الحضاري الفكري الذي يؤثر على تطور الجوانب المعنوية من حياة الانسان المغربي المعاصر ويحول دون توافر الشروط الضرورية لضمان انبعاث هذا الانسان ، وانطلاق امكانياته العقلية الحبيسة وتحرر طاقاته ومقدراته الذهنية الخبيئة ، ونمو استعداداته للابداع والانتاج في مختلف ميادين الفكر ومجالاته .

وكما تتفق وجهات النظر في تقدير حقيقة المشكل الذي تعكسه هذه الازمة ، وتقييم الخطورة التي ينطوي عليها فان هذه الاراء ايضا لا تتباين كثيرا عندما يكون الامر متعلقا بتقدير الاصول التي ساعدت على وجود هذا المشكل والعوامل المختلفة التي تسهم في تعقيده واستمراره .

ويمكن ايجاز هذه الاصول والعوامل فيما يلي :

1 ـ طبيعة الظروف الحضارية التي كانت تحيط ببلادنا في عهد ما قبل الحماية ؛ هذه الظروف التي كانت تتميز بما كنا نعيش فيه من عزلة فكرية وثقافية شاملة ، وما كان لهذه العزلة من تاثير على اتصالاتنا بالتيارات الحضارية الحديثة التي غيرت وجه الحياة الانسانية في كل انحاء العالم ، وقلبت الاوضاع الفكرية والاتجاهية بين ربوعه قلبا شاملا وجوهريا .

2 ـ الاساليب التحكمية المباشرة التي كان يلجأ اليها نظام الحماية في مقاومته لمظاهر التحرر الفكري بهذا البلد ، ومحاولته تحديد مد هذا التحرر بكل الوسائل الرادعة الممكنة .

3 ـ نوعية المشاغل الجديدة الملحة التي انبثق عنها عهد الاستقلال . . تلك المشاغل التي استغرقت ـ بالفعل ـ اهتمام طائفة هامة من طبقة «الانتلجنسيا» المغربية واستوعبت القسط الاكبر من طاقاتها الفكرية واستعداداتها الانتاجية المحدودة . اضف الى ذلك :

4 ـ انعدام توافر اسباب التشجيع المادي الحكومي سواء على الصعيد المادي او المعنوي .

5 ـ انعدام وجود الحياة الجامعية فيما قبل ، ومحدودية اشعاعها الثقافي والفكري بعد ان اصبح لها وجود فعلي .

6 ـ انعدام الاقبال العام على شؤون الفكر والثقافة وما في بابهما وصدوف جمهرة المتعلمين عن استهلاك المحاولات الانتاجية الضئيلة المحدودة التي تتصل بهذا المضمار .

7 ـ انقطاع الصلة بين ما يمكن ان يكون هناك من قراء وبين المنتجين من شعراء ورسامين وغيرهم ؛ وانعدام اسباب التجاوب الضروري بين هؤلاء واولئك

هذه بعض العوامل التي ـ وان لم تكن مجزئة في التدليل على معقولية الركود الفكري ببلادنا فانها مع ذلك ـ وكما يرى الكثيرون ـ قد تلقي قليلا من الضوء على بعض موجبات هذا الركود ، وتعين على ادراك نصيب من الحقائق التي هي في اساس نشوئه واستمراره بصورة مباشرة او غير مباشرة .

وبالطبع فان هذه العوامل تختلف عن بعضها البعض من حيث التاثير الذي تحدثه في هذا المجال ، وباعتبار الاهمية التي يكتسيها هذا التاثير ، والنتائج التي ينطوي عليها وقوعه ، واذا ما حاولنا ان ندرسها على ضوء هذا الاعتبار فاننا نلاحظ ان من اشدها مفعولا وابعدها اثرا تلك الظاهرة الغريبة التي تتمثل في انعدام اسباب التجاوب والتصادي بين اصحاب المحاولات الانتاجية في هذا البلد ، وبين الجمهور المتعلم

بالاخص ، الذي يجب ان يكون قبلة هذه المحاولات ، وقاعدة انطلاقها نحو النجاح او الاخفاق .

هذه الظاهرة السلبية هي من البروز والوضوح بمكان كبير ، وتكاد تصبح بما تتسم به من استمرار واطراد العنصر الاكثر بروزا في افقنا الاجتماعي والفكري المتخلف ، ونحن اذا ما حللنا جوانب التاثير الذي تسهم به في تاييد وتركيز هذا التخلف الفكري الذي نعاني منه ، فانه سيكون في ميسورنا حينئذ ان ندرك حقيقة الاهمية البالغة التي تنطوي عليها في هذا المجال ، والفاعلية الشديدة التي تتوافر لها بهذا الاعتبار ، فقد يجوز ان يصبح في امكاننا التغلب على عوامل التجمد الفكري والثقافي المنحدرة الينا من الماضي القريب والبعيد ، والمتخلفة لنا عن عصور الانتكاس والتقهقر ، وقد يصبح في مستطاعنا ايضا تصفية آثار الانغلاق الفكري المحكم المنحدرة الينا من عهود الحكم الاجنبي وذلك بسبيل من السعي في ازاحة السدود والحواجز التي كان يقيمها هذا الحكم امام تطور الفكر المغربي وتفتحه على موطنه الاصلي وعلى العالم ، كما انه قد يضحي في ميسورنا — الى حد ما — التحكم في توجيه اهتمامات بعض المثقفين المنتجين الذين غمرتهم المسؤوليات الادارية وغير الادارية وانبعاث الوعي الانتاجي لديهم ، واستدراجهم الى معاودة حياة الفكر وملاحقة قطاره ، وذلك عن طريق الاهتمام بتوفير المشجعات وتيسير الوسائل ، واصطناع الظروف المساعدة ، وقد يجوز ايضا ان تصبح الدولة اكثر وعيا لمسؤولياتها وواجباتها نحو الفكر والاداب والفنون ، فتصبر اكثر استعدادا لاحتضان المشاريع الفكرية المنتجة في مختلف الميادين واوفر اهتماما بتشجيع الاعمال والبوادر الثقافية والفنية التي يمكن ان تكون اساسا لنجاح هذه المشاريع، وواضح ان طبيعة التطور والتحول الذي يميز هذه الفترة المرحلية من حياة المغرب المعاصر سوف يتيح للمسؤولين فرصة الشعور بمسؤولياتهم في هذا المقام وقد يسوغ كذلك ان تتحرر الجامعة من محدودية النطاق الثقافي الذي تعيش فيه ، وتضحى — كما يجب ان تكون — مبدا اشعاع ثقافي قوي التاثير ، مديد الابعاد ، واسع المدلول ، ومنطلق تيار فكري دافق يسهم بنصيبه في تركيز الجو الفكري بالبلد ، وامداده بعناصر الخصوبة والنماء ، ومن الضروري ان يتم ذلك عندما يتوافر للجامعة سائر مظاهر النمو والترعرع ، وتترسخ القواعد التي تنهض عليها ، ويتوافر لها جهاز تعليمي كامل التعرب ، متوافر الاستعداد للخلق والانتاج قد يجوز كل ذلك ويبدو ممكنا على الاقل من الناحية النظرية المبدئية ، وعلى هذا فهل يغدو من اليسير علينا — والامر بهذه المثابة — ان نتصور امكانية تكث العقد التي تعترض سبيل النشاط الفكري المغربي ، وتجثم بثقلها على مقدرات هذا النشاط فتخمد جذوته ؟ قد يتراءى ذلك على درجة من السهولة واليسر لو كان الامر يتعلق بمجرد الاعتماد — في تحقيق هذا التطور — على تقديم الجوائز واستحثاث الهمم ، وتشجيع القرائح ، وغير ذلك ، ولكن هل يمكن ان يجزىء ذلك في حل المشكلة الاساسية التي تتجسم في اعراض الجمهور المتعلم ، وصدوده عن استهلاك ثمرات النشاط الفكري ، وخاصة اذا كان يتسم ببعض الجدية في الافادة والتوجيه والا فما هو مدلول رسالة الفكر والادب في مثل هذه الحالة ؟ وما هو الاعتبار الذي يجب ان يعطى لهذه الرسالة اذا لم يكن من نتائجها ايقاظ وعي الجماهير ، ومساعدتها على تلمس الطريق الصحيح الذي عليها ان تسلكه نحو استكمال شروط انسانيتها الحقيقية ، واستيعاب مدلول هذه الانسانية بما فيها من نواح فكرية ووجدانية مختلفة ؟ وعلى هذا فهل هناك ما يبيح الايمان بامكانية جدوى الانتاج الفكري المغربي — على افتراض انه جيد واصيل — والوسائل التي يتادى بها مكتوبة وملفوظة في مقاومة مظاهر التخلف الذهني والوجداني عند الجمهور ، كما هو الشأن بالنسبة لبرامج الانماء والتصنيع الموجهة لمكافحة التخلف في الميدان الاقتصادي والاجتماعي ؟ وهل تتوافر للانتاج الفكري المغربي — على افتراض انه يتوافر على مقومات الانتاج الجيد الاصيل .

هل تتوافر له عوامل وظروف التجاوب مع الجمهور مما يمكنه من اصابة هذه الاهداف الاساسية الضرورية ؟ .

تلك في الواقع مشكلة رئيسية من ابرز ما تواجهه قضية الفكر في هذا البلد من مشاكل ومعضلات، وهذه المشكلة لا تشكل — في الواقع — مجرد ظاهرة خاصة بالمغرب ، فهناك — كما هو ملحوظ — كثير من الاقطار الاخرى تعاني من مثل هذه الحالة بدرجات تتفاوت في نسبة ما تكتسيه من اهمية وخطورة ، بل ان رواج الاثار الفكرية في بعضها يجابه احيانا قدرا كبيرا من المصاعب والمعرقلات الناشئة عن مظاهر الاهمال وضعف الاكتراث لهذه الاثار ، وقد اصبح للقاعات السينمائية والنوادي الثقافية تاثير بالغ في مضاعفة

عوامل هذا الاهمال، وما فتيء المتتبعون في هذه الاقطار يوجهون الكثير من النقد المرير لهذه الظاهرة ويجهدون في ان يجدوا للمشكلات الناشئة عنها حلا وعلاجا ناجعا، غير ان هذا الاهمال — وان كان ظاهرة غير خاصة تنعكس اثارها على كثير من المجتمعات — فانه يتخذ في المغرب شكلا غريبا واستثنائيا يصل احيانا الى حدود الزراية بكل ما للفكر من رسالة تهذيبية وتنويرية وما تكتسيه هذه الرسالة المقدسة من اهمية قصوى سواء بالنسبة للفرد او المجتمع .

لقد لفتت هذه الظاهرة انظار الكثير من المراقبين منذ بعيد ، وكانت في كثير من المناسبات موضوع العديد من الاحاديث المتكاثرة ، والملاحظات المتواترة ، والمآخذ المتعددة المتباينة ، بل انها كانت احيانا اساس كثير من المجاذبات والمناقشات التي استطالت على مديد السنين ، والتي لم تصل — في الواقع — الى نهاية ايجابية واقعية. ولكن الظاهرة لا تزال قائمة باستمرار مع كل ما تنطوي عليه من تعقيد ، وما تعكسه من مشاكل وصعوبات ، بل ان عناصر الوعي العام التي تسربت الى ذهنية الجماهير في عهد الاستقلال ، لم تحل مطلقا دون زيادة استفحال آثارها ، بكل ما لذلك من تاثير على الوضع الفكري والثقافي بالمغرب، وارتفاع نسبة العوامل التي تتجه بهذا الوضع الى المزيد من الانحدار والكسوف .

وقد يبدو لاول وهلة ان هذا الضعف في ظواهر الاقبال على القراءة بالمغرب يتجلى على الاخص وبصورة اساسية في انخفاض مستوى رواج المنشورات الثقافية والتوجيهية وما بسبيلها، وضمور النطاق الذي يتوافر للقائمين على اصدار هذه المنشورات والمطبوعات والمتصلين بها من قريب او بعيد .

قد يبدو اذن العامل التجاري الصرف القائم على اساس التقدير المجرد للارقام والرسوم البيانية والكشوف المختلفة ، قد يبدو هذا العامل مجديا في اثبات النقص الجوهري الملحوظ في نسبة الاقبال على استهلاك النتاج الثقافي بالمغرب ، وليس هناك من ريب في ان هذا العامل له اهميته في الموضوع ؛ الا ان هذا لا يجيز القول بان مطلق الاعتماد عليه — اي على الارقام التجارية الاستهلاكية قد يكون مجزئا في الدلالة على حقيقة الوضع الفكري عند الشعب ، وطبيعة الاتجاه الذي يتحكم في تحديد هذا الوضع ، ويسير به نحو الانحدار او السموق ، فقد يلاحظ في بعض الاحيان نوع من الاقبال على التهام بعض المطبوعات الدورية وما في نوعها، وقد يسجل رواج بعض الكتب المستوردة مثلا رقما قياسيا ربما يدعو — احيانا الى الدهشة والاستغراب ، ولكن ذلك كله لا يجب ان يدرج في عداد الظواهر الايجابية المشجعة التي يجوز الاطمئنان اليها ، والاعتداد بها في هذا المقام، لانه لا يعكس — في الواقع — الا حالة سطحية عابرة لا تعبر — بحق — عن وعي فكري اصيل او شبه اصيل يمكن ان ترتبط مقدماته بنتائج اساسية وجوهرية لها قدر من القيمة والاعتبار

فما هي صورة هذا النوع من الاقبال المظهري على القراءة العابرة ؟ وما هي دواعي هذا الاقبال وبواعثه ؟ انه من الممكن ان نصنف هذه الدواعي والبواعث ونركزها في الصور الآتية :

1 — القراءة الانتهازية وتتمثل في ذلك الصنف من القراءة التي يقتنصها البعض من الناس عندما تعرض له مصادرها بصورة تلقائية عفوية ودون ان يتجشم اي عناء في البحث عنها او التماس سبيلها سواء من الناحية المادية او المعنوية ومن ذلك : الاقبال على قراءة بعض الصحف والمطبوعات الصغيرة عن طريق الاستعارة او التطفل .

2 — القراءة الترفيهية وتتجلى في ذلك النوع من القراءة التي لا يكون هناك من باعث عليها في الغالب الا الرغبة في اصطناع حالات خاصة تتيح الشعور ببعض الالتهاء والتسلي وتوفير ظروفهما واستجلاب العناصر النفسانية التي تساعد على ذلك ؛ ومن الامثلة في هذا المقام (الاقبال على التهام بعض الروايات المثيرة او قراءة مكتوبات تنسجم ورغبات فضولية معينة) .

3 — القراءة الوصولية وتتجسم في ذلك النوع من القراءة التي لا ترتبط الحوافز عليها باغراض فكرية اصيلة او منازع عقلية ووجدانية صرفة ، وانما تتاصل هذه الحوافز — في الواقع — من حالات اضطرارية معينة يوجد فيها المرء مجبرا على الانصراف الى بعض الكتب ، وتصفح ما تضمه من اوراق ، وذلك لاستذكار بعض الفصول المتناثرة هنا وهناك واستيعاب عدد من الفقرات التي تنطوي عليها هذه الفصول (ومن امثلة ذلك : القراءة الاستعدادية لاجتياز مباراة او امتحان او غيرهما) . هذه الحالات المختلفة — التي تعكس بعض ظواهر الاقبال المظهري على القراءة بالمغرب — لا يجوز بالطبع ان تعتبر عنصرا صحيحا لامكانية تعديل صورة المشكلة القائمة بهذه البلد .. هذه المشكلة التي تتمثل في انعدام الظروف الفكرية الملائمة لرواج المنشورات التثقيفية او ما في حكمها ، وذلك

بالقدر الذي يمكن هذه المنشورات من ضمان الموارد الضرورية لتحقيق وجودها واستمرارها ؛ واستنفاذ الاغراض الحافزة على اذاعتها وانفاقها .

ولا غرو ان استمرار حالة من هذا النوع ليس من شانه ان يساعد على توفير الشروط الضرورية لبعث عوامل النهوض بالاداب والفنون وغيرها في اي قطر من الاقطار .

وانعدام الاسس الصالحة لازدهار فكري من هذا النوع يثير في الواقع كثيرا من المصاعب امام تطور بوادر الانتاج الادبي وغيره ، ويعطل ما في هذه البوادر من امكانيات ايجابية ويحيلها الى سلبية مطلقة في اساس هذا الفراغ الفكري الهائل الذي نعيشه باستمرار .

ومن هذه المصاعب ما يتصل بانعدام الموارد المادية والطباعية وغيرها ، ومنها ايضا ما يتعلق بضيق المجالات التوزيعية والانتشارية التي لا تعدو نطاقا ضيقا ومحدودا جدا ، الا ان من اشد هذه المصاعب - باعتبار الناحية الفكرية والمعنوية - هو ذلك الذي يتجلى في انعدام الاهتمام العام بما ينشر من آثار ضئيلة وعدم الاكتراث لها اطلاقا ، والاحجام عن نقدها او التعليق عليها او الادلاء حولها براي او توجيه او غيره.

ومن الطبيعي ان يكون لهذه الحالة انعكاسات سلبية على واقع الحياة الفكرية والانتاجية بالمغرب ومن هذه النتائج :

1 - ضآلة الاقبال على الانتاج المستقل القائم على قاعدة النشاط الفردي الخاص (وضع الكتب والرسائل مثلا) .

2 - انهيار المشروعات الادبية والتثقيفية التي تقوم على موارد خاصة (اختفاء المجلات والمنشورات المختلفة التي عرفها تاريخ المغرب الادبي في العقود الاخيرة) .

3 - اخفاق الكثير من الهيئات والمنتديات والجمعيات الثقافية والفكرية ، وعجزها عن اداء المهام المختطة لها سواء من الناحية الفنية والتنظيمية او من الناحية الادبية والانتاجية .

وقد كان هذا الوضع اساسا لنشوء حالة غريبة نسبيا تكاد تصبح من المعالم الواضحة في تطور الحركة الانتاجية الفكرية بالمغرب ، وتتمثل فيما يلي :

1 - تقلص مجال النشر والاشعاع الثقافي والفكري وتركز ذلك بالتقريب في جهات معدودة ومنحصرة تتوافر لها امكانيات تنظيمية ومادية واسعة، وتستمد هذه الامكانيات من مصادر رسمية او ما في حكم الرسمية .

2 - انعدام النزوع الى التنويع في صور التعبير عن الفكر بالمغرب وتبلور مجموع هذه الصور في شكل المقالة او المقطوعة الشعرية او القصة القصيرة (في احيان قليلة جدا) او غير ذلك مما يندرج في نطاق الانتاج الصحفي على اختلاف مناحيه واغراضه .

ومفهوم ذلك ان الاتجاه الى التاليف من مجال اوسع كوضع الكتب او ما شاكلها لم يعد له في هذا البلد من الامكانيات والظروف ما يخوله اي نصيب من فرص النمو والتطور ، بل ان المحاولات البسيطة التي وقعت المجازفة بها في هذا الميدان خلال فترات مختلفة ... هذه المحاولات قد بلغت مداها فعليا منذ بعيد ، واضحى التفكير في معاودتها غير ذي موضوع ، وعلى الاقل من الناحية التطبيقية العملية .

على ان هذا لا يعني ان الانصراف عن التاليف الكتبي قد اعان على تركيز الطاقات الفكرية الواعية في ميدان الانتاج الفكري الصحفي وادى بالتالي الى ازدهار فن المقالة الادبية والعملية على شكل مرض يثير الارتياح ، ويبعث مشاعر التفاؤل . ان دراسة موضوعية لواقع الانتاج المغربي في هذا المضمار ، قد تحمل المرء على الاعتقاد بان هذا التطور المحتمل لم يتخذ شكلا جوهريا له نصيبه من القيمة والاعتبار ، بل على النقيض من ذلك فان ما يقذف به الى الميدان احيانا من محاولات مختلفة تندرج في عموم هذا الانتاج يمكن ان تعكس في اعين المراقبين كثيرا من المآخذ الاساسية الجوهرية التي تنحدر بقيمته ومداولته احيانا الى دركات مسفة .

ولا محالة ان الاستخفاف الذي تقابل به شؤون الفكر عندنا له دخل كبير - كما اسلفنا - في هذا الامر فبعض افراد الانتلجنسيا المغربية تتوافر لهم بالفعل - وفي حالات عدة - امكانيات واستعدادات انتاجية لا يجوز الغض من قيمتها وصلاحيتها ولكنهم - مع ذلك - وفيهم المتجمدون بالمرة - لا يتوافر لهم الحافز السيكولوجي الذي يبث فيهم روح الحرص على استغلال هذه الطاقات والاستعدادات وتسخيرها لبناء انتاج قوي متين يتسم ببعض الجودة والاصالة والعمق، اما علة ذلك فبسيطة كل البساطة ، وتتلخص في عدم

وجود رقابة فكرية موجهة ــ نتيجة استمرار ازمة القراء ــ تتناول بالنقد والتوجيه اهم ما يمكن ان ينشر من آثار ادبية او علمية وتشكل بالتبعية لذلك عاملا قويا ومهما له تأثيره في تنمية حرص المنتجين على انتقاء عناصر الاجادة والاصالة فيما يبدعون او يحاكون .

والواقع ان انعدام هذه الاجادة والاصالة ، وضعف مدلول الانتاج المغربي بسبب ذلك ، هو من بين التعلات التي يتذرع بها في الغالب لتبرير ظاهرة الاعراض عن القراءة بالمغرب ، وعلى الرغم من ان هذا التبرير قد يتراءى لاول وهلة معقولا وواقعيا فانه ــ مع ذلك ــ لا يكفي لتفسير جميع العوامل والملابسات التي تكمن وراء هذه الظاهرة وتعين على استمرارها وتطورها . ان هذا الاعراض ــ اذا ما حللنا اصوله وبواعثه فاننا سنجد ان منشاه لايرتبط ارتباطا متينا بما يمكن ان يكون هناك من اتجاهات متشددة في نقد الانتاج الحالي ، او مذاهب مغالية في تقييم مضمونه ومدلوله ، الامر الذي يجيز الخلوص الى الاعتقاد بانه نتيجة حتمية لما يمكن ان يوجد عند جمهرة القراء من رغبة جامحة فيما هو افضل وحرص شديد على ورود ينابيع اغنى واجود ، ولو كان الامر من هذا القبيل لادى الى رد فعل ايجابي من نوع آخر يتمثل في شدة الاقبال على مصادر القراءة الاتية من الخارج، والتهافت على ما تحويه هذه المصادر من علم وفن وادب ، لكن الواقع الذي تؤكده الاختبارات المتكررة ان الانصراف عن القراءة الرصينة المتدبرة يكاد يكون عندنا قاعدة اساسية مطردة لاتتخلف الاقليلا بالنسبة للمستوردات الفكرية الاتية من الخارج وحتى هذا القدر الضئيل من ظواهر الاقبال النسبي على هذه المستوردات قد يكون الحافز عليه احيانا مجرد الرغبة في تزيين الرفوف ، او الحاجة الى استقاء معلومات معينة يستوجبها شان من شؤون الحياة العادية او غير ذلك ، ومن الطبيعي ان هذا الضرب من القراءة لا يمكن ان يسهم ــ كما ذكرناه من قبل ــ في توفير الظروف الضرورية لحياة ثقافية حقيقية ، وليس من شانه مطلقا ان يركز روح الرغبة في الاقبال على القراءة المثقفة العقل ، المهذبة للروح الصاقلة للوجدان ، ويخلق عناصر التطور الفكري الصحيح الذي يتيح لهذه القراءة ان تصبح ضرورة ملحة من ضرورات الحياة عند جمهرة المتعلمين .

ومن نافلة القول الاشارة الى ان العمل على تحقيق تطور فكري من هذا النوع في عقلية هؤلاء المتعلمين واتجاهاتهم هو من اولى الوسائل الضرورية للقضاء على مظهر التخلف الفكري الذي يتجسم في تجمد بوادر الانتاج الثقافي ورواجه بين الجمهور في المغرب .

ولكن السؤال سيبقى دائما : من الذي عليه مسؤولية العمل على احداث هذا التطور ؟ الكتاب ام القراء ؟ لقد تطارح الكثيرون مثل هذا السؤال منذ عهد بعيد ، ولم يؤد الجدل الذي استفاض حول هذا الموضوع بالطبع الى حلول واقعية جذرية ، والذي يبدو واضحا ان تواصل الجدل وتعدد الاراء حول هذا الموضوع على اساس توجيه المسؤوليات لهذا الجانب او ذاك لن يصبح على الاطلاق سبيلا لتحديد هذه المسؤوليات وايجاد قاعدة انطلاق عملي لحل المشكل حلا جذريا ، وسيكون هناك مجال ــ على ما يبدو ــ لايجاد هذه القاعدة اذا ما استطعنا ان نزيح عن الموضوع بعض العناصر الجانبية التي ليس فيها من غناء ، ونسلط المزيد من الاهتمام على النواحي الرئيسية التي هي في اساس وجود المشكلة والممدة لها في مجال الصعوبة والتعقد .

ان التزام الواقعية في النظر والاستنتاج يقتضينا ان نستبعد الاعتماد المطلق على جانب القراء والاستناد اليه كثيرا في تقدير الحلول الموضوعية الممكنة ، لان ذلك يوجب علينا ان نفترض وجود جمهور قارىء بهذه البلاد ، له من الاستعداد النفساني التلقائي ما يجعله واعيا لحاجياته الفكرية الملحة ، مقدرا لخطورة النقص الموجود في الوسائل الكفيلة بتلبية هذه الحاجيات ، ملحا على ضرورة تهييء هذه الوسائل وتعميمها .

انه ليس هناك بالطبع ما يستوجب هذه الافتراضات ، واعتمادها اساسا لحل المشكلة الفكرية الماثلة امامنا والا لكان متعينا علينا حينئذ ان نتصور المشكلة على انها مشكلة انتاج فقط يمكن ان نلجأ لتفاديها الى كل السبل المؤدية الى اصطناع المنتجين واستدرار ملكاتهم العقلية الغافية واعتصار مطاويهم الذهنية المنغلقة بالاعتماد ــ كما ذكرنا ــ على وسائل التشجيع والتنشيط ، ولعل القليل من المعاناة للحياة الفكرية بالمغرب تؤدي الى الاقتناع بان ذلك غير صحيح صحة مطلقة ، فهناك بالفعل ــ وكما لا يمكن الاغضاء عنه ــ مشكلة انتاج وابداع ولكن هناك ايضا ــ وكما افضنا القول فيه من قبل ــ مشكلة استهلاك لما يمكن ان يكون هناك من انتاج محتمل ، والتقدير الصحيح للامور يوحي بان المشكلتين ترتبطان بعضهما ببعض ارتباطا عضويا متينا ، وهذا الارتباط يقتضينا بالطبع ان نعير الكثير

من الاهتمام لكليهما على اساس التقدير الصحيح للعوامل الاساسية التي تكمن وراءهما والعناصر الجوهرية التي تشكل وجودهما .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات يمكننا مثلا ان نقدر واقع الحياة الانتاجية في المغرب فنلاحظ ان الكثيرين من ذوي الامكانيات الفكرية يجترون بالفعل حياة سلبية جوفاء تكاد تكون ـ في بعض الحالات ـ عاطلة من اي محتوى فكري صحيح ومجردة عن مدلولها الحقيقي كحياة مخصبة منتجة تسود جوها روح الخلق والابداع وتقودها بوادر الحق والخير والجمال .

وقد تعرضنا ـ من قبل ـ الى بعض الاسباب التي يمكن التعلل بها في تبرير هذه الظاهرة المعضلة ؛ ومن الجائز جدا ان العناية بمعالجة هذه الظاهرة على ضوء تلك الاسباب قد يؤدي الى تعديل الصورة الجافة الباهتة التي تتجلى فيها حياة الفكر بهذا البلد ، وامداد جوانب هذه الحياة ببعض عناصر الخصوبة والمرع .

ولكن هل يكفي ذلك ـ ومع افتراض وقوعه ـ لتحويل مجرى الواقع الذهني الذي يسود اغلبية القراء المحتملين بالمغرب وقلب اسس العقلية التي تسيطر على اتجاهاتهم وتصدهم بسبب ذلك عن الاكتراث للقراءة واعتبارها حاجة اساسية من حاجيات الحياة الملحة ؟ ذلك ـ في واقع الامر ـ الجانب الاكثر تعقيدا في المشكلة والاشد استعصاء على جهود الكتاب وغيرهم ممن يمكن ان يكونوا في حكم المعنيين بمشاكل الفكر والثقافة بهذه البلاد ، وهذا الجانب ـ المتمثل في ازمة القراء ـ هو ما يجب ان يكون موضوع اهتمامنا العميق في اتجاهاتنا الى معالجة المشكلة الفكرية العامة بالمغرب

ولا ريب ان هناك كثيرا من اسباب الاتصال بين ازمة القراء هذه ، وبين المستوى المنخفض الذي توجد عليه حالات التعلم بهذه البلاد وانتشار الامية نتيجة لذلك بين غالبية الجماهير فيها ؛ لكنه ليس من الحكمة ان نغالي في تقدير هذا العامل ـ عامل الامية ونعزو اليه كل مظاهر الازمة وانعكاساتها .

انه من الضروري ـ والانصراف عن القراءة بشكل ظاهرة شبه عامة تشمل غير الاميين ايضا ـ من الضروري اذن ان نعني جميعا بتقدير الحقائق الاساسية في هذه الظاهرة المزمنة والملابسات الاجتماعية والذهنية والاقتصادية التي تعين على استمرارها وتضاعف من حدة النتائج المنبثقة عنها ، ان هناك اساسا للتاكيد بان مشكلة الاعراض عن القراءة تكون في الواقع مظهر تخلف عقلي واجتماعي يتصل وجوده بما يسيطر على مجتمعنا من مفاهيم مغلوطة وخاطئة ، وما يسوده من افكار واتجاهات غير صائبة .

وهذه المفاهيم والاتجاهات هي التي تسهم في تحديد نظرتنا الى المعرفة المجردة وتقييمنا لوسائل هذه المعرفة وادواتها كالكتب والنشرات الدورية بمختلف اصنافها ومحتوياتها .

واذا كانت الرغبة تحدونا الى معالجة مشكلة القراءة بالمغرب فان ذلك يقتضينا التفكير اولا في مراجعة المقاييس الاساسية التي نعتمدها في هذا التحديد والتقييم ، وسنرى حينئذ ان الاساس الذي اصبح ينبني عليه تقديرنا للمعرفة لا يعتمد على قاعدة النظر اليها باعتبارها وسيلة لتحقيق الاهداف التربوية الرئيسية كتنمية الجوانب الانسانية في الفرد وتهذيب غرائزه وميوله ، وتركيز طاقاته واستعداداته الايجابية الخيرة ، واعداده للحياة اعدادا يتفق وهذه الاهداف ، بل ان الغرض البعيد من التعلم ـ كما تتصوره اذهان الكثير منا ـ يكاد ينحصر في دائرة معينة وضيقة جدا كضمان المستقبل المادي للفرد، وتامين ابسط الوسائل له للحصول على امكانيات العيش الميسور المريح ، وتفسيح المجال امامه ليرقى في مدارج السلم الاجتماعي كما يبدو في صورته الراهنة .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات يمكن تعليل الرغبة المتزايدة في ولوج المدرسة واستيعاب قسط ـ ولو كان ضئيلا ـ من محتويات البرامج والمناهج الدراسية المقررة ، والاحراز اخيرا على اية شهادة او اجازة ممكنة ولو كانت ذات مستوى بسيط ووضيع ، انه من المعقول بالطبع مظاهرة بوادر هذا الحرص على التعلم ، والالحاح في الاستزادة منه ؛ الا انه سيبقى من المعقول ايضا تقدير هذا الحرص والالحاح على حقيقتهما واعتبارهما مجرد انعكاس للرغبة العامة في ضمان الحصول على قسط من التطور الاجتماعي والتقدم الطبقي ، والشعور العميق باهمية الدور الذي يؤديه التعلم في هذا المضمار .

ولئن كان علينا ان نعني برعاية هذا الاتجاه الكاسح الى التطور الاجتماعي والتعليمي بين سواد الشعب فان علينا كذلك ان نبذل عناية اوفر بتعميق الوعي الذي ينبثق عنه هذا الاتجاه وربطه بالاهداف التربوية الاساسية ؛ حتى يصبح وعيا فكريا متفتحا تستطيع معه المدرسة ان تضطلع بمسؤولياتها في تحقيق عناصر التحول الفكري المنشود وتركيزه تركيزا قويا متينا .

ان السبل التي يمكن اللجوء اليها لتحقيق مثل هذا التطور على الصعيد الجماهيري العام ليست عليه اية درجة من اليسر والبساطة وتقتضي بالطبع نوعا من التعبئة الفكرية المنظمة ذات النطاق الواسع والتي تتصل اهدافها بميادين التربية الاساسية بكل ما لها من ارتباط بميادين التكوين العقلي والتوجيه الفكري والتهذيب الوجداني وغير ذلك ؛ ولذلك فان العناية بمراجعة الاسس التي تتحكم في توجيه المناهج الدراسية يمكن ان تكون – باعتبار قيمتها التاثيرية العميقة – ذات جدوى عظيمة في هذا الميدان ، ومن الجائز ان تصبح هذه المناهج اذا احسن تعديلها وتطبيقها كفيلة بخلق الظروف الصالحة لاحداث تحول فكري عميق يساعد على تطوير اتجاهات الجيل الصاعد وتاصيل محصوله من الوعي الثقافي المكتسب وتنمية الحوافز النفسانية التلقائية التي تذكي فيه الرغبة على ورود مناهل التثقف الذاتي كالكتب والمجلات والاشرطة العلمية والتوجيهية وغيرها . ومراجعة المناهج الدراسية على هذا الاساس تقتضي منا العمل على تحقيق بعض التوازن المعقول بين الاهداف التعليمية التلقينية ، وبين الاغراض التربوية التوجيهية في هذه المناهج ، والعناية بتجريدها – عمليا – من رواسب المؤثرات التقليدية المترسبة من الماضي ، واقامة بنائها على قواعد اساسية تتفق وحاجياتنا الى معالجة المعضلات التي تواجهنا على الصعيد الفكري والاجتماعي والاخلاقي وغير ذلك .

وكما يتوجب علينا اعادة النظر في واقع الاساليب والمناهج المطبقة وما لها من صلة بالتربية الفكرية فيتعين كذلك ان تبذل نفس العناية بمراجعة الاسس التي يقوم عليها نظام الامتحانات ، وتجديد هذا النظام على شكل يضمن التخلص من عقلية الحفظ والاستظهار الموقت، وما ينشأ عن ذلك من آثار سيكولوجية بعيدة المداول تؤثر في نظرة الكثير من الطلاب الى القراءة والاستفادة وتكون في اذهانهم عنهما مفاهيم سطحية بسيطة ، وتحيلهما عند البعض منهم الى عملية روتينية غير محببة .

على ان ذلك كله سيبقى ضعيف المفعول والجدوى اذا لم نبادر الى تصحيح الاخطاء الاساسية التي تسود عقلية المجتمع عندنا وتحدد نظرته الى قضية الثقافة والتعليم باعتبارها قضية تسام اجتماعي وتسابق طبقي في المحط الاول والاخير . ولاشك ان تصحيح هذه المفاهيم وتقويم تلك العقلية – عن طريق التهذيب الفكري العام المتدرج في مدلول التربية الاساسية – سيزيح عن الجو الاجتماعي الذي يعيش فيه المتعلمون عنصرا هاما من العناصر النفسانية التي تؤثر في تكوين اتجاهاتهم الفكرية ، وميولهم العقلية ونزعاتهم الوجدانية ، وتلون هذه الاتجاهات بالوان سلبية معطلة تفضي بهم الى حالات تناقص معقولية التربية ومفهومها ، ومن النتائج المباشرة لذلك بالطبع ما يبدو على مسلك بعض المتعلمين الصغار من ميل الى الانقطاع المبكر عن الدراسة وجنوح الى الانغمار في خضم الحياة دون سابق استعداد فكري او تهيؤ وجداني او غيره ، ثم الاعراض بعد ذلك عن حياة الفكر والثقافة اعراضا تاما في بعض الحالات ؛ ولا مراء في ان مفاهيم المجتمع ونظرته الواقعية الى مدلول التربية والتعليم لها تاثير كبير في هذا المجا ل، ولهذا كان من الضروري العناية بتقويم هذه المفاهيم وليس من الحكمة – ونحن بصدد النظر في مشكلة القراءة بالمغرب – ان نغفل الدور الهام الذي يلعبه العامل الاقتصادي والمالي في تطور هذه المشكلة وامتدادها بهذه الصورة الواسعة، فالواقع ان نوعا من الرغبة في القراءة وحب الاطلاع قد يكون – احيانا – متوافرا عند البعض من الناس بما فيهم اشباه المتعلمين ، ولكن انخفاض الطاقة الاقتنائية عند هؤلاء الناس قد يحول بينهم وبين الاستجابة لهذه الرغبة ، ويصدهم عن تقدير قيمة الاهمية التي تكتسيهما بالنسبة الى تكوينهم الفكري ووجودهم الانساني ، ومن الطبيعي ان استمرار وجود هذه الحالة يضع على الجهات الرسمية مسؤوليات ضخمة وعريضة ليس هناك من سبيل الى طرحها .

ولا جرم ان المسؤولين الرسميين سيكونون قد تحرروا من قسط كبير من تبعاتهم في هذا المضمار اذا ما صرفوا بعض العناية الى ميادين التربية الفكرية العامة ووجهوا قسطا من الامكانيات المتهيئة لديهم الى العمل على نشر تيار من الوعي الفكري والثقافي بين اوساط الشعب وتوفير الوسائل الكفيلة ببث هذا الوعي واذاعته ، وفي طليعتها الكتب والنشرات الدورية على اختلاف اصنافها والوانها ، وتمايز محتوياتها ومضامينها .

ان هناك مجالا للقيام بمحاولات مجدية في هذه الميادين ، ومن ذلك مثلا الاشراف على وضع بعض الكتب الشعبية الصغيرة للتربية في متناول غير الاميين سواء من حيث المضمون او من حيث التكاليف المادية ثم العناية بطبعها ونشرها بين العموم ، وامثال هذه المبادرات البسيطة – نسبيا – كثير مما يشمله اطار العمل على تقريب مجالات الفكر والثقافة من

اذهان الشعب ، واستدراجه الى الخروج من الدروب الفكرية المظلمة التي لا زال سادرا فيها منذ احقاب طويلة .

وليس هناك ما يحول — من جانب آخر — دون سلوك مثل هذه السبل المنظمة بالنسبة لدنيا المثقفين واشباه المثقفين وذلك عن طريق تنظيم مشاريع انتاجيه وطباعية واسعة المدى وتهييء المجال بذلك لانتشار المطبوعات المختلفة ذات المستويات المستبحرة الضاربة في مجالات الفكر المحلق وميادينه .

وما دمنا بصدد الحديث عن المثقفين فان من الضروري ان نضع في حسباننا مدى الاهمية التي تكتسيها ظاهرة « التأجنب » في المحصول الثقافي والاتجاه الفكري عند الكثيرين منهم .. هذه الظاهرة التي — وان كانت عادية طبيعية من حيث المبدا (لان استقاء المعرفة (1) من الاجانب يعد شيئا مالوفا في العصر الحديث وفي العصور القديمة ايضا) الا انها مع ذلك — وباعتبار الصفة اللاقومية المطلقة التي كان يصطبغ بها التعليم في بلادنا خلال عهد الحماية — قد اصبحت من اكثر نقط الضعف بروزا في كياننا الحضاري القومي ومن اكثر المواطن تاثيرا على حاضرنا النضالي من اجل استكمال الاستقلال ، ومستقبلنا الفكري كامة واعية لذاتيتها ، مقدرة لمسؤولياتها في حظيرة الاسرة العربية والافريقية والشرقية ، وتجاه التحديات الحضارية الضخمة التي تزخر بها حياة العالم في العصر الحديث . ومما لايتطرق اليه الظن ان من بين المهام التي يضعها علينا واجب السعي في توسيع نطاق الانتاج والاستهلاك الثقافي بالمغرب — من بين هذه المسؤوليات مضاعفة الجهود من اجل تعريب هذا الصنف من المثقفين « المتاجنبين » فكرا واتجاها : تعريب السنتهم ، واكثر من ذلك : تسريب عقولهم وافكارهم ووجداناتهم ، ومساعدتهم بذلك على الاسهام — بما يتوافر لهم من امكانيات ثقافية ثرة الينابيع احيانا — في النضال من اجل الانبعاث الفكري والثقافي بهذا البلد ، وبذلك فقط يجوز لنا ان «نسترد» ونضم الى عالم الانتاج والاستهلاك الفكري بالمغرب قطاعا جديدا يمكن ان تكون مشاركته في بناء جوانب من النهضة الفكرية والثقافة المغربية ذات صبغة حاسمة وباتة .

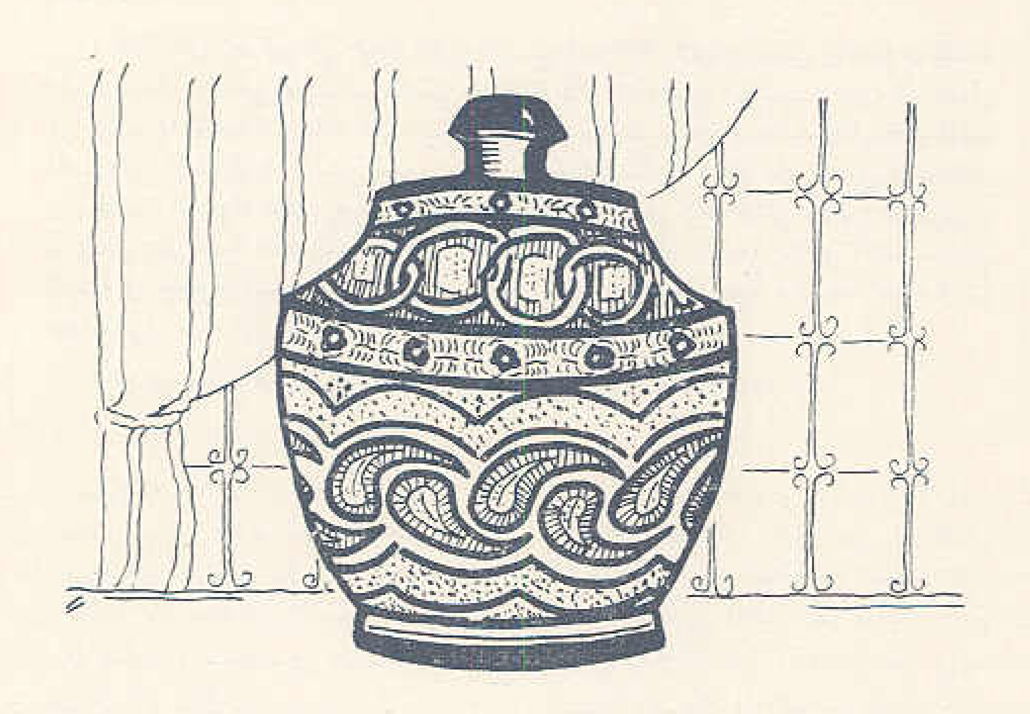
ولا مجال للجدل في ان البناء الفكري عند البعض من هؤلاء المثقفين وغيرهم قد يكون على مستوى معين يمكن اعتباره رفيعا في بعض الاحيان ، وبالنتيجة لذلك فانهم غالبا ما يتطلبون — في مجال حاجياتهم الفكرية والثقافية انتاجا متساميا عميقا ، موغلا في الاطلاق والتجريد من جانب ، او مغاليا في التحليل والتمحيص من جانب آخر ، وليس هناك من اعتراض على ما يمكن ان يكون عند هؤلاء — باعتبار كل هذا — من منازع فكرية مجنحة ، وعدول الى ارتياد مجاهل الفلسفة واللاهوت او آفاق الاداب والفنون او ميادين العلوم التجريبية والمختبرية او غير ذلك ، الا ان كل ذلك لا يجب أن ينسي هؤلاء وغيرهم حقيقة الاوضاع الفكرية والاتجاهية التي تسود غالبية افراد الشعب ، وطبيعة المتطلبات التثقيفية والتوجيهية التي تقتضيها احوالهم وظروفهم ، واذا ما وضع هذا في الاعتبار فان من شانه ان يقود جميع رواد الفكر والثقافة بهذه البلاد — سواء على الصعيد الرسمي او الخاص — الى استيعاب مداول الغذاء الفكري الذي يجب ان يقدم الى الجمهور شبه المتعلم ، وذلك على اساس ان تكون العناصر التي تؤلف مادة هذا الغذاء في مستوى يؤهلها للنفوذ الى صميم عقلية الجماهير (المفروض انها قادرة نسبيا على القراءة) واشباع حاجياتها العقلية الاساسية والاجابة عن تساؤلاتها واستفهاماتها الملحة المتكاثرة ، وتحليل عوامل حيرتها وارتباكاتها الذهنية والوجدانية ، وقيادتها اخيرا الى ميادين اكثر رحابة وفساحة تصبح فيها اشد قوة على استبانة الفهم الصحيح لحقائق الحياة، واوفر قدرة على استشراف آفاقها الواسعة الشاسعة ، وغني عن التوضيح ان بوادر الانتاج الادبي والثقافي المتابية على هذه الاعتبارات والمقتضيات لا يمكن ان تتوافر لها ظروف النجاح من اجتذاب الافراد العاديين الى الانفعال بمؤثراتها ، والتلاؤم مع الايحاءات المباشرة او غير المباشرة ، تلك التي تنطوي عليها ، واذا ما اتيح لها بالعكس من ذلك ان تحصل على بعض النجاح في هذا السبيل فانه لا يعدو — في الغالب الاعم — ان يكون نجاحا سطحيا موقوتا يقصر عن الثبات امام عوامل الزمن ، ولا يستطيع ان يقاوم طبيعة الحقائق التي تشكل الواقع النفساني والعقلي الموجود .

---

1) من الضروري هنا بالطبع التمييز بين سبيل المعرفة المؤدي الى الحصول على مجرد معلومات واكتساب خبرات ومهارات وبين الثقافة بمالها من صلة بتكييف العقل وتوجيه الفكر والتاثير على الوجدان .

ومن هنا كان مصدر اخفاق الكثير من الخطباء والوعاظ والمرشدين وغيرهم من المتصدرين لتوجيه الجمهور والتاثير على ينابيع انفعالاته واختلاجاته ، ومصادر تفكيره وتعقله .

ان هناك امام المثقفين على اختلاف مواردهم ومصادرهم ، وتباين اذواقهم ومشاربهم — التي يجب ان تنصهر كلها فى بوتقة فكر قومي انساني متحرر — ان امام هؤلاء جميعا مجالا واسعا لاداء دور اساسي فى هذا السبيل ، ومما لا مشاحة فيه ان اداء هذا الدور سيبقى ضرورة اساسيةاكيدة لالمجرد توفير الشروط والمعطيات الاساسية الكفيلة بتحقيق انبعاث فكري وثقافي فى هذا البلد بل ايضا لضمان استمرار شخصيته القومية العربية الاصيلة ، وتامين اسباب تطور وعيه الحضاري المعنوي وتوسيع مجالات تعاطيه الايجابي وتفاعله مع التيارات الفكرية العالمية المعاصرة، وتاكيد قدرته على الاسهام بنصيب اساسي فى التعاون الانساني العام من اجل مصير افضل ، ومثالية انسانية ازكى وانبل ، ولكن السؤال سيطالعنا من جديد : هل هناك ما يجيز الاعتقاد بامكانية اجتذاب المثقفين لخوض غمرات ذات طابع نضالي من هذا النوع ؟ ذاك بالطبع غير مستحيل ولكن الخلوص به الى واقعية ملموسة متحققة يقتضي منا التزود برصيد ضخم من عمق الايمان ، وشدة الوعي ، وقوة التصميم .



الإنسان والمدنية الحديثة

للأستاذ مصطفى الازهوري العمري

عند ما يشبه مفكر كبير – كمالك بن نبي(1) – موقف العرب والمسلمين حيال مظاهر المدنية الغربية الحديثة بموقف سيدة سيطر عليها الاعجاب والدهش معا امام واجهة محل تجاري زاخر بانواع الملابس ، فاما ان تقبل على شراء ما تتمنى بسخاء واما ان تذوب حسرات وآهات ، فان هذه التشبيه يحمل فى ذاته معنى بالغ الدلالة : اننا امة فى حاضرها وواقعها تنفعل اكثر مما تفعل وتستهلك اكثر مما تنتج وتعيش على رصيف المسؤولية الحضارية بدل ان تعيش فى قلب تجربة التاريخ ، ولكن رغم سلبية الواقع العربي الاسلامي وموقفه الحيادي المنفعل ، فان هناك الزاما ملحا صادرا عن هذا الواقع ذاته يدعو الانسان العربي المسلم اينما كان الى الانخراط فى العالم والالتزام بكل ما يجري فيه وتحمل تبعات المدنية الحديثة باعتبارها مدنية الانسان قبل كل شيء .

فاذا كان لابد أن ياتي اليوم الذي تكتسح فيه الآلة بلادنا ويتمثل واقعنا ما تقدمه المدنية الحديثة من معطيات تلائم طبيعة ذلك الواقع وتغنيها دون ان تمس من مقوماتها الاصلية ، واذا كان لابد أن نتهيأ تهيئة نفسية واجتماعية وتاريخية لتفهم المسؤولية الحضارية المشتركة ، بمعرفة انفسنا وتنقية كياننا من عوامل الانحطاط والتخلف والانطواء للخروج به من قوقعته الخاصة وتمركزه الذاتي ، فمن الضروري – ونحن على عتبة هذه التجربة التاريخية الضخمة – ان نمتحن بالفكر الانتقادي المدنية فى ايديولوجيتها اليومية المعاصرة – كمفهوم حي من جهة وكقيمة انسانية من جهة اخرى ... اي نثير هذا السؤال الجدي :

ما هو وضع الانسان الحديث فى مدنية تدعى سعادته وفهمه ؟

كل ما يعزى الى الانسان يحمل مفهوم المدنية دون اي اعتبار عرقي او قومي او جنسي ، وكل ما هو خارج تدخل الانسان ولا يكشف عن وجوده بعيد عن المدنية .. بعيد عن الانسان ، فاحقر كوخ فى غابة كافخم ناطحة سحاب فى مدينة هما حادثان من حوادث المدنية يدلان على وجود الانسان ، اما بناء خلية النحل ونسيج بيت العنكبوت مثلا فهذان شيئان طبيعيان لاينمان عن دلالة المدنية ، فكل ما صنعته الانسانية فى امسها وما تصنعه لغدها يدخل فى مدلول المدنية ، وهذا يعني ان المدنية ليست نسيج امة واحدة ومن مغالطات التبرير الادعاء بان ثمة مدنية يجب ان ناخذ منها واخرى يجب ان نهملها لان الاولى تفوق الثانية اصالة وقدما فى بدء المدنيات او اتساعا وشمولا فى الحاضر بل ان المدنيات لا ينفي بعضها بعضا ولا يطرد بعضها امكان البعض الآخر ، وتجربة التاريخ تدل على عملية تحول وتفاعل

(1) من محاضرة قيمة القاها الاستاذ مالك بن نبي فى مدرج جامعة دمشق منذ سنتين تقريبا .

خصيبين يحدثان بالاتصال الحضاري الذي يرفد الثقافة الانسانية الواحدة الشاملة ، فالحضارات فى مجموعها ــ متقدمة ومتخلفة ، منتجة وغير منتجة ــ تتمازج وتتلاقح على شكل حلزوني ، وبتعبير آخر ، ان التاريخ لايعرف للحضارات بداية مطلقة ولا معجزة قومية لاية امة من الامم ، وما التاريخ ذاته الا مغامرة الفكر الانساني فى مختلف الحضارات .

بيد ان حضور مدنية ما يستدعي بالضرورة وجود عاملين اساسين لصنع المدنية : الانسان باعتباره ارادة فاعلة واعية متحررة ، والطبيعة كواقع معطي متصف بالعفوية متهيىء للفاعلية تتعقله وتنظمه وتستقله ، ومن هذين العاملين : الانسان والطبيعة او الفكر والشيء يتم تركيب المدنية ، سببها الفاعل الانسان وسببها المادي الطبيعة وبمعنى واسع ، المدنية هي : نتاج فكري مشترك ومشاع يخلقه الانسان ببذل الجهد الدائب واعمال الفكر فى معطيات الواقع لتتحقق للانسان معظم حاجاته الروحية والمادية .

من تضاعيف هذا المعنى تلوح علاقة الزامية ومنطقية قائمة بين خاصتين انسانيتين هما : الثقافة والمدنية . فالثقافة هي تصميم فكري ينبثق عنه جهاز ــ نسميه مدنية ــ وبواسطته يحقق الانسان معظم حاجاته الروحية والمادية (1) ، ودور الثقافة فى جميع الاحوال هو افساح المجال لظهور المدنية ، ولذا نرى الثقافة تسبق المدنية فى التسلسل السببي والزمني والمنطقي اذا اعتبرنا الفكرة وهي قوام المدنية لايتحقق لها وجود فعلي الا اذا صارت عملا وانتقلت من التجريد الى التشخيص ، فقول جان لاكروا : ان الثقافة بصفة عامة هي تعريف الانسان ذاته يعني ان الثقافة حركة فكرية دافعة تنبجس من الداخل الى الخارج ، من الذات الى الموضوع فتتخذ لها اشكالا حضارية تصدر عن مركز وحيد هو الفكر ، ثم تلتقي على صعيد الانسانية جمعاء ، فالافكار اذا تغدو بواسطة الثقافة ملموسة ومنقولة على شكل رموز ووسائل مادية فى مجال المدنية بتقدم الفكر الموصول فى ميادين استغلال طاقات الطبيعة .. وهكذا فان الثقافة نواة فكرية ــ روحية للمدنية .

والآن ما هو وضع الانسان الحديث .. انسان المدنية الغربية ؟

ان السمة الرئيسية للمدنية فى وجودها المعاصر هي : التقنية ــ عالمنا الحاضر عالم آلي وتقني يطبق العلم بنشاط متزايد فى حقل الصناعة ، وواضح أن الذكاء العملي الصانع كان فى البدء الشكل الاول للذكاء الانساني ، بلغ اوج تطوره فى هذا العصر باعتماده على الآلية والتصنيع ، جاء هذا التقدم الفكري التقني خلال عملية تطور ضخمة اجتازها الانسان قدرها علماء الاجتماع والاثنولوجيا Ethnologie بمائة الف سنة على وجه التقريب ، كانها ثانية من ساعة تطور الحياة على حد تعبير العالم الانجليزي الكبير : جوليان هكسلي Julian Huxly ، ورغم ضآلة هذه الثانية فان الانسان بفضل المدنية ومحاولة تحرره من التقيد الطبيعي قد زادت رغباته كما وكيفا زيادة لايطفا لها اوار من جانب ، كما زادت وسائل ارضاء هذه الرغبات سهولة ويسرا من جانب آخر ، وهذا بالذات هو الدور الذي تقوم به المدنية الحاضرة: نقص العناء البشري بتوفر الآلة وتوغلها فى الحياة اليومية وزيادة السرعة فى ارضاء رغبات الانسان .

فهل الانسان اليوم على عتبة غد مشرق يبشر بتحرره من ثقله ومن كل شيء كما صوره خيال فيكتور هوغو الابداعي ؟ هل نحن فى «بيت سليمان ــ الذي تنبا به بيكون فى كتابه « اطلانتيد الجديدة » من اجل تحقيق سعادة البشر الكبرى والعيش بهدوء وسلام بفضل العلم والسيطرة على الطبيعة فى ــ مدنيته الفاضلة بعد طواف طوبائي utopique طويل ؟ وبتعبير موجز : هل المدنية الحاضرة فى ثوبها التقني وسيلة لسعادة الانسان ... ؟

ان مجرد طرح هذا السؤال يثير قضية الانسان الحديث التي تتارجح بين تفاؤل متحمس عارم وتشاؤم جامع عميق ، ولعل لوحة الفنان المكسيكي ديغو ريفيرا Diego Revera التي تحمل رسم ــ الانسان فى مفترق الطرق ــ تعبر اصدق تعبير عن هذا التارجح العنيف الذي يهز موقف الانسان ، فالانسان الحديث فى لوحة ديغوريفيرا امام طرق

---

1) الثقافة Kultur فى اعتبار الفكر الالماني هي المدنية بالتعريف ، والواقع كما يرى باستيد ان الفرق بين مفهومي الثقافة والمدنية ليس ثابتا ولا معينا .

ثلاثة : طريق اصحاب المعامل ورؤوس الاموال المعتمدين على الفردية الحرة ، وطريق العمال والكادحين المترقبين نهاية شقائهم بوجود الدولة الاشتراكية وزوال التفاوت الطبقي ، وطريق ثالث يجسد عبث سيزيف الذي يكرر دوره الفاسد ويبرز مأساة الانسان الحديث المتردد بين التفكير والفعل والباحث عن معنى الحياة وعن غاية لهذه الحياة يبرر بها عمله ووجوده .

هذه الطرق الثلاثة والمشاهد الثلاثة تقدم صورة واضحة للمدنية الحديثة ، وتبين بالتالي موقفها من الانسان ، فلنحاول بايجاز — ان نكشف عن ملامح هذا الموقف فى مشاهده الثلاثة :

المشهد الاول مشهد الايديولوجية الراسمالية التي تعتمد — من الناحية الفلسفية — مذهب السعادة الذرائعية وهو مذهب انجلوسلسوني يدعو الى قياس الحقيقة بنجاحها العملي ، ويدعي تحقيقا عمليا لما تنبأت به فلسفة فرنسيس بيكون بتوسيع سلطان الانسان وبسط سيطرته على الطبيعة بالكشف عن قوانينها ، فدور العلم هو الكشف عن هذه القوانين الطبيعية ليستخدمها الانسان فى الصناعة والفن من اجل سعادته ورفاهه ، وليكون للبشر عن طريق التجربة والعلم « اكبر قدر ممكن من السعادة لاكبر عدد ممكن من الناس » ، وهذه الصيغة صيغة ستوارت مل بمثابة الدستور الذي يقيم ويدعم مفهوم المدنية فى المجتمع الراسمالي الاوربي ، ومنفذ هذا الدستور هو الفرد الحر يبذل جهده فى سبيل سعادته وسعادة الآخرين (على قدر الامكان) ، يخترع لتحقيق هذه السعادة العلوم والفنون ويوسع نطاق رغائبه باتساع امكان ارضائها ، فالآلة توفر فى جميع المجالات رفاه الانسان بالسرعة ، وانماء فرص النفع للوصول الى اكبر مردود ممكن عن طريق اقل النفقات المادية الممكنة . . وهكذا فان الايديولوجية الراسمالية تؤمن بان العلم والتقدم قد بلغا غايتهما — عن طريق الفرد الحر — فى توحيد اساليب البحث التجريبي واشاعا فى نفس الوقت الثقة بالمستقبل ، والاطمئنان الى تفوق حضارته الحديثة على جميع الحضارات بقدرتها على توفير اسباب الحياة للانسان .

من نتائج الايمان بالعلم والتقدم بدا من المعقول فى نظر الايديولوجية الراسمالية ان يرجى التقدم الخلقي والسياسي للبشر جميعهم تبعا لتقدم المعرفة، فالتقدم — كغاية هنا — اصبح واحدا من المثل العليا التي طالما حن اليها الانسان ، فكل (فرد) يستطيع استخدام ذكائه فى تحسين احواله تحسينا لا حد له وان يقيس اعماله بمقاييس علمية اي ان الفرد بامكانه ان يقيم سلوكه الاخلاقي والاجتماعي عن طريق التقدم الفكري المضمون بالعلم من جهة ، وبالتوكيد على معنى الفردية فى مجال العلاقات الاجتماعية والاخلاقية من جهة اخرى .

فالمشهد الراسمالي مليء بالتفاؤل مفعم بالثقة بغد المدنية الحديثة الضامنة سعادة الانسان وخلاصه، اما المشهد الثاني او الايديولوجيةالشيوعية فهي كذلك تؤمن بقيمة العلم كمبشر بسعادة الانسان فى ظروف المدنية الحديثة ، ولكنها تختلف اختلافا شديدا مع الايديولوجية الراسمالية فى هوية المنفذ الفاعل . فبينا نجد الايديولوجية الراسمالية تلح على اسعاد الانسان ، الفرد ، نجد الايديولوجية الشيوعية تتشبث بالاهتمام بالانسان — الكل — وتبرير هذا الاهتمام قائم لدى الماركسية على الغاء التناقضات الاقتصادية والاجتماعية فى العالم الحديث هذه التناقضات التي تتبدى فى الصراع الطبقي ، وفى الفرق الشاسع بين المالكين والمعوزين ، بين المستغلين وطبقة البروليتاريا ، فحلم الماركسية فى نهاية التحليل هو تحقيق مجتمع بلا طبقات ينسف بؤس العالم وشقاء الانسان ، ويقضي على التناقض الاجتماعي بالقضاء على التناقض الاقتصادي اولا ويجعل المدنية الحديثة فى خدمة الانسان ، فالايديولوجية الشيوعية تزعم انها تحمل البشرى الى الانسانية يبلغها حزب شيوعي ينبغي له حسب مهمته الانسانية ان يحقق امل الجماعات ولكن لايتحقق هذا الامل الا اذا نهض الانسان الماركسي يصارع الطبيعة ويستغلها بتحرره منها من جهة ويصارع الطبقات لازالتها من جهة اخرى بفضل التكنولوجيا والتقدم العلمي المطرد وبعبارة اخرى : ان دور المدنية الحديثة وقيمتها معا يتمثلان فى توجيههما توجيها ماهرا وحازما بواسطة العمل والتقنية والمعرفة العلمية من اجل الانسان الماركسي؛ الانسان — العامل الذي يعيد بناء الانسان الجديد خالق المدنية الحديثة والقاضي على عوامل ضياعه الديني والاخلاقي والفلسفي (المثالي) .

هذان هما المشهدان الاولان امام الانسان الحديث يغريانه بشعاراتهما الواعدة بالسعادة والتفاؤل فى جنة المدنية الحديثة وبارضاء رغباته

المتزايدة باستخدام الآلة في جميع المجالات الممكنة ، فكلاهما يدعي خلاص العالم وكلاهما يتنبأ بميلاد انسان جديد ، ومجتمع افضل ومدنية متجددة ابدا . ومن الواضح اننا لم نحاول ان نأتي على عرض الفلسفة الرأسمالية والماركسية ، او نقدم نقدا ومقارنة بينهما او تاويلا وتبريرا لهما ، ولكن كان قصدنا الرئيسي التقاط الموقف الانساني من خلال ايديولوجيتيهما وقيمة المدنية الحديثة في حياة الانسان واهمية وجود الآلة كعامل ضروري واول لانقاذ الانسان من لعنة « السقوط » وتحقيق العودة الى الفردوس المفقود .

ولكن هل استطاع سيزيف ان يصعد الى قمة الجبل وينهي ماساته العبثية ؟ وهل تحققت امنية فاوست الكبرى في منحه مفيستوفليس النمو والتقدم بواسطة الحياة والشوق العارم الى ما فيها من امتلاء وغنى ؟ ان ماساة هاملت تتجدد مرة اخرى ، بطلها الانسان الحديث ومشهدها مدنية تعظم الفكر وتحس بروعة الحياة وقوة الانسان ولكنها تحس ايضا بالغموض الرهيب يكتنف الانسان ذاته ، فماساة هاملت الجديد هي ماساة الفكر او ماساة التناقض بين الفكر والفعل ، ولهذا ترى الانسان الحديث كالبطل الاسطوري اخيل ، يجهد ويجهد ولكنه لا يرى اي شيء امام ذاته حتى السلحفاة الوئيدة المشي ، بل لقد انهك الانسان الحديث شجرة الطبيعة بجني ثمارها قبل نضجها ، انهكها باسطورة التقدم القائمة على السرعة الهائلة لكسب الوقت .

الانسان الحديث انسان مسافر Homo viator نحو نهاية يراها ولا يراها في ذات الوقت او لا يود ان يراها خوفا من رهبة المصير ، هو في زحمة الآخرين والاشياء عبارة عن رقم مسجل على بطاقة في ملف بجانب عدد ضخم من الملفات موضوع وضعا سيئا او هو حرف فقط لا يحمل اية قيمة وجودية كبطل كافكا Kafka ـ (ك) في (القضية) التي لا يعرف فيها سبب اتهامه .

ان الطريق الثالث التي تشير اليه لوحة ديفورنفيرا طريق رهيب غامض يلفه قلق تراجيدي يسم الانسان والحياة والعصر الحاضر بميسم الخوف ، فالبرغم من الاماني التي فرشتها الايديولوجيتان : الرأسمالية والشيوعية على دروب المدنية الحديثة ، وبالرغم من الوعود الجميلة باسعاد الانسان فان الانسان المعاصر لم يعد يرى في تلك الاماني والوعود الا تخديرا لقلقه الوجودي يهدىء توتره الحاد .

وبعبارة اخرى ان هناك ماساة الانسان في المدنية الحديثة تفجرت في المجتمع الغربي خالق هذه المدنية فتطايرت شظاياها في كل حركة وكل فعل وكل قول ونفذت الى اعماق الحياة اليومية العادية ، وفي هذا الصدد يرى اشبنجلر ان الماساة التي تعانيها المدنية الاوربية اليوم ليست ماساة عابرة بل هي ماساة جذرية تنبثق من اعماق الفكر وتتجلى في تحد سافر في تجليات خارجية متعددة شديدة التعقيد كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والفن والعلم والاخلاق ، لقد اخذت المدنية الحديثة اليوم شكلا معكوسا في ظروفها المادية ووسائلها التقنية بالنسبة للانسان الاوربي الحديث الذي اصبح متشككا في قيمة مدنيته عند ما غدت الوسائل غايات ، والكم هو المعيار لكل شيء ، والآلة غاية في ذاتها ، وتحكمت النزعة الآلية في كل شيء واصبحت تسير بسرعة جنونية فوق طريق شديد الانحدار ، كما بدا الانسان الحديث لناظري غابرييل مارسيل مجرد ظاهرة خارجية او حزمة من الوظائف الحيوية ؛ بل ان فلسفة التاريخ الحديثة تدين المدنية الحديثة بادعائها امكان تحقيق الكمال البشري وسعادة الانسان ادانة فلسفية تاريخية ، فجاك ماريتان يرى ان المدنية الحديثة زرعت في ضمير الانسان قلقا اعتقاديا حادا فاعطته اساليب تجريبية ومنعت عنه قيما اخلاقية ، يقول ماريتان : (لقد بحث العالم الحديث عن اشياء نبيلة بوسائل غير صالحة ، لقد اضر بالبحث عن القيم الصحيحة التي اصبح من الواجب علينا الآن انقاذها بالادراك العقلي) وتلك القيم هي قيم مطلقة ثابتة صادرة عن النظام الرباني وهي التي تمنح الانسان الفرصة لقياس كل شيء بدل ان يعتبر نفسه مقياس كل شيء ، اما رينهولد نيبور فيعتقد ان مشهد المدنية الحديثة يعيد قصة الخطيئة الاصلية ، والانسان الحديث بطل الخطيئة الاصلية المتكررة رغم ادعائه السيطرة على عالم الاشياء ، وسياتي اليوم الذي يرتطم فيه بصخرة القدر التاريخي ويومئذ يكون (الساكن في السموات يضحك ، الرب يستهزىء بهم) فجميع انواع الشر موجودة في التاريخ البشري تؤكد وجود الخطيئة الاصلية وتكرار هذا الوجود ، وهذا ارنولد توينبي يرى ان معنى التاريخ

ليس ازدياد فهم الانسان للطبيعة ولنفسه تدريجيا عن طريق نمو الذكاء وتحقيق السعادة فى هذا العالم ، بل ان معنى التاريخ هو تحويل قيم الناس عن مثل الاهداف الدنيوية الى قيم عليا صادرة عن الدين ، وعلى الانسان الحديث ان يجد الحقائق المطلقة التي يؤمن ان بها خلاصه .

فاذا كانت المدنية الحديثة من صنع الانسان وابداع فكره فقد فرضت عليه انماطا من السلوك فى الحياة ، فالتربية والسياسة والتقنية تضع اليوم النموذج الانساني الذي يمثلها ، والتكنولوجية باعتبارها العنصر المحرك فى المدنية الحديثة تؤثر فى كل شيء ـ من حجم المدنية ومنظرها الى سكانها وكثافتهم وتقسيم عملهم وطبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم الثقافية والجمالية والخلقية وفى نتائج هذا التدخل التكنولوجي تراخي العلاقات الاجتماعية فى الاسرة والكنيسة والمعمل رغم الزيادة فى اوقات الفراغ وارتفاع معدل طول الحياة ، وقد يقال ان التقنية لم تخلق اية ازمة للانسان بل الازمة في الانسانية نفسها ، لان الآلة حررت الانسان من عبودية العمل ومنحته اوقات الفراغ لانماء ثقافته ، ووفرت له الامكانيات لاغناء روحه ولكن كل هذا لايعطي الجواب الشافي على هذا السؤال : ما هو مستقبل المدنية الحديثة ؟ ولا يلغي كذلك عبث تلك الامكانيات، بل ان التقنية والعلم قد جعلا الانسان ذاته موضوعا شيئيا ودفعاه الى العيش فى حالة ازمة مستمرة وعلى حد تعبير جورج غوسدورف G. Gusbort ان الانسان الحديث بدون حقيقة يفرض على نفسه الرضا بهذا العالم (اذ ينبغي له ان يضحك ووجهه ملتصق بالارض) .

ان العلم ذاته هذا الوثن الجديد صلب المدنية الحديثة يتقدم تقدما حثيثا دون ان يعلم الى اين يذهب ، ولذا فانه يتحمل مسؤولية اخلاقية خطيرة عبر عنها العالم الكبير اينشتاين بقوله قبيل وفاته 1955 : (اذا استعملت القنبلة الهيدروجينية بكثرة ، علينا ان نتوقع فناء سريعا لفريق من بني الانسان وامراضا معذبة ثم موتا بطيئا لجميع الكائنات الحية) واكد هذا القول موقف ابنهايمر ، وارنكوفيرمي ، وهارولد يوري ، وجان روستاند ، بل ان كل انسان اصبح اليوم يشعر انه متهم امام نتائج العلم المكتسبة .. الا نذكر هنا قصة ذلك الجندي الامريكي الذي القى قنبلة هيروشيما فاحس هول فعلته وبشاعتها واصابه انهيار عصبي ، ان مبدا هنري بوانكاري : العلم للعلم غدا اجوف امام فشل العلم عند اعتبار الكم دون الكيف وتشويه المعاني الجمالية باعتبارات علمية ، اذ اقام فى القمر الجميل ملهم الشاعر خريطة جغرافية واحال لون الاصيل الى موجات كهرطيسية ، وان الثقة التي وضعها رينان فى (مستقبل العلم) بكونه يستطيع حل جميع مشاكل الحياة الانسانية ويمنح السعادة التي تدعي المذاهب الاخلاقية والروحية تقديمها ، تلك الثقة كانت حلما طوبائيا فوق استطاعة العلم نفسه ، فلم يفشل العلم فى حل مشاكل الانسان وحسب ، بل اساء فهمه كذلك ، فانسان البيولوجيا يبدو كمجموعة عضوية خاضعة لنظام دقيق تفرضه اجهزة الجسم المعقدة ، وانسان داروين نسخة من قرد متطور ، وانسان علم الاجتماع من صنع المجتمع والفرد المتوحد هو تجريد وحسب ، وانسان علم النفس معرض للعقد النفسية والامراض العقلية بل هو مريض فعلا ومرضه كما يرى شواب : كبت الافكار والآراء الذي يسبب ارتفاع الضغط : مرض المدنية الحديثة ، وهذا الانسان اما انسان جنسي لدى فرويد او قطعة من الفيزيولوجيا لدى وطس .. جملة افعال منعكسة وشرطية مجردة من الارادة والانفعال والعاطفة والتفكير ، وانسان المؤرخ هو ملتقى التاثيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية والفنية لمدنية ما وتجربة شخصية تحمل انماط وقيم عصر من العصور ، وهكذا فان العلم جعل من الانسان الحديث اجزاء مجربا عليها فى (مخبره) .

وبعد : فان الانسان الحديث ما فتيء فى مفترق الطرق يقف وسط مأساته العتيقة ، المأساة المجسدة فى الفن والفلسفة ، فالتصوير المعاصر اذ يقدم اشكالا والوانا وخطوطا ورموزا عصية على الفهم يحمل في ذات الوقت معنى عميقا من معاني مأساة هذا العصر، والفنان المعاصر يسقط قلقه الفردي على آثاره وينشيء عالما بعيدا عن الواقع الاليم .. واقع المأساة ، والوجودية كفلسفة تبرز ملامح المأساة من خلال علاقة الفرد بالآخرين الذين يهددون وجوده وهو يحاول ان يحرر وجوده بمقاومة الآخرين ويتمسك به قبل ان يفلت منه فالانسان الوجودي غريب فى هذا العالم دائما يبحث عن معنى الحياة باتخاذ موقف محدد من نفسه ومن الآخرين .

ان الانسان ـ الآلة على حد قول سنكلرلويس يحاول ان يضع لمأساته نهاية ويحيل مدنية الخوف الى مدنية السلام ، ولذا فانه لن يستطيع العيش فى برجه العاجي خارج الوجود والزمان ، فاذا كان مقياس الانسان هو عدم الانقطاع عن الاخذ مرة ثانية لان وجوده لايكفي ذاته بل يحمل دائما علامة زمنه ، فان الانسان الحديث ليس انسان القرون الوسطى المطمئن البعيد عما يجري حوله ، بل الانسان اليوم ملتحم باشتداد بالعالم الحديث ، فليس هناك عزلة فردية لان العالم اصبح صغيرا ، وبتعبير آخر ان الانسان مدعو الى الانخراط فى العالم انخراطا التزاميا والى اتخاذ موقف جدي ازاء معطيات المدنية الحديثة باضافة قدر من الروح الى النزعة الآلية ، وليس بمنقذه البتة ان يستسلم الى احلام ـ المتنزه الوحيد ـ حيث الطبيعة الطيبة السمحة والحياة النامية الخصبة ، بحيث يخيل اليه ان يجد العزاء فى فرح التأمل وغبطة الروح بعيدا عن ضجيج الآلة وجحيم الآخرين ، وقسر المجتمع والدولة والطبقة كانسان روسو الطبيعي الكافر بكل مدنية وثقافة تكونان اصل التفاوت بين البشر ، والذي يرى ان كل شيء يكون جميلا عندما يخرج من بين احضان الطبيعة ولكن كل شيء يفسد عندما تتناوله يد الانسان ، وليس بمنقذه البتة ايضا ان يتخذ الموقف الشوبنهوري فيعتبر العالم ارادة خرساء عمياء تسير بلا هدف ولا ينجم عنها سوى الالم والعذاب والعزاء الوحيد فى الفن والاستغراق فى النرفانا من اجل تهدئة كفاح الارادة الذي لا يتوقف او يتمنى امنية غاندي فى العودة الى البساطة فى الحياة ؛ ان الانسان فى قلب المأساة وقد ابحر فى خضم الحياة شاء ام ابى ، ولا بد ان تعيش كل فكرة من افكاره وكل حركة من حركاته وكل فعل من افعاله فى المدنية وبالمدنية ويكون لهذه الآثار مردود فى اغناء المدنية او افقارها لانه هو الحيوان الوحيد الشاعر بذاته وقيمة وجوده .

وبعد فقد لمسنا وضع الانسان الحديث دون ان نتوغل فى دربه الطويل ووضعنا المشكلة دون ان نقدم حلا لها يقينا منا بان الانسان العربي المسلم عموما والمغربي خصوصا على ابواب المدنية الحديثة للاسهام فى استقرارها ولا عجب فان الاشياء التي تسرع ليست فقط السيارات والطائرات وانما نحن كذلك نسرع فى سباق رهيب مع الزمان ، وليس بوسعنا وسط هذا الاشتداد الحضاري ان نعيش وفق المبدا الرواقي : احتمل وازهد لتنعم بالسلام الداخلي .



نحو ثقافة تسمو بنا

للاستاذ محمد العربي الهلالي

انـــا نحتاج الى تلك الثقافة التي تسمو بنا الى المثالية الصادقة ، وتنتهي بنا الى الكمال البشري الذي يضمن لنا سعادة الحياتين ، ولن نجد مثل تلك الثقافة الا فى التعاليم الاسلامية ، اذا طبقت التطبيق النافع بأسلوب مفيد يتلاءم مع زماننا واهله ، وبشرط ان يراعي فى ذلك التناسب والتوزيع الصحيح ، ويعطي لكل طبقة من المتعلمين ما يناسبها ، وما تحتاج اليه بمقادير وطرق معينة تتفق مع اقسام التعليم وطبقات المتعلمين واطوارهم واعمارهم ومؤهلاتهم ، ولست اعني بالتعاليم الاسلامية فنا خاصا او موضوعا من الموضوعات العلمية ، بل اعني بذلك كل فن عرفه الانسان منذ البدء ، وكلما سيعرفه فى المستقبل مما يفيد الانسان فى احدى حياته الاولى والاخرى ، او فى كلتيهما ، بدون تحديد او تخصيص ، لان الاسلام نظام ثقافة وعلم لايقف من ذلك عند حد او غاية ، وكيف وهو الذي يقول : « وقل رب زدني علما » ويقول : « وفوق كل ذي علم عليم » — فالثقافة التي نعنيها ، والتي نحتاج اليها هي الثقافة البشرية الواسعة ، الثقافة التي لاتنتهي بزمان معين ، ولا تنحصر فى مكان خاص ، ثقافة الابداع والتفنن والاختراع والزيادة والتنوع على ممر الازمان لتزداد فى كل يوم علما ، الا انه لابد لهذه الثقافة من اسس ثابتة ودعائم قوية من الدين ، مشربة بروح الاسلام ، مؤتمرة باوامره ، واقفة على نواهيه ، لان الاسلام هو النظام الوحيد الذي يسير بالنفس البشرية الى اقصى ما يمكن ان تصل اليه من الرقي وسمو درجات المثالية التي تجعل من الانسان مخلوقا طاهرا، وآدميا مكرما ، يصلح ان يحيا حياة الخلود والرفعة فى عالم الخلود مجاورا الله وكرام عباده فى اعلى طبقات العوالم العلوية ، متمتعا بما يصبو اليه وبما خلق لاجله من السعادة والهناء الدائم المشار اليه فى قوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون » . وماذا كانوا يعملون حتى استحقوا ذلك ، كانوا يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر ، ويتواصون بالحق ، وبالصبر ، وكانوا يصدقون فى وعودهم اذا وعدوا وفى حديثهم اذا حدثوا ، ولا يكذبون ، ويحفظون الامانة ولا يخونون ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله ولا يزنون ، وكانوا صالحين مصلحين ، يضمرون الخير ويحبونه ويفعلونه ، ويكرهون الشر ولا يضمرونه ، اولئك الذين هدى الله وحبب اليهم الايمان وزينه فى قلوبهم، وكره اليهم الفسق والعصيان ، اولئك هم الراشدون، فضلا من الله ونعمة ، واولئك الذين تسابقوا وسبقوا الى المثالية فادركوها ، وبلغوا قمتها ، وتنافسوا فى الخيرات وتسارعوا اليها فأوتوا ما راموه منها ، وكانوا عباد الله المخلصين الذين يتبعون نظامه ، ويحافظون على امانته فى ارضه وخليقته فكانوا رحمة للناس لا يريدون فى الارض علوا ولا فسادا ، بل لم يريدوا الا الاصلاح والعمران ، لانهم تثقفوا بتلك الثقافة الصادقة التي اختارها الله لتثقيف عباده ، وتكوين احسن واصلح نموذج يكون قدوة صالحة ومثالا للناس يحتذون حذوه ، ويسلكون طريقه اذا ارادوا الوصول الى السعادة الدائمة بطريق لا عوج فيه ، وهذه هي الثقافة التي نحن فى اشد الحاجة اليها ، ثقافة الخلق الطاهر وتزكية النفس ، وتنقيتها من ادرانها المادية والمعنوية ، والسير بها الى ما يسمو بالانسانية ، ويرفع مستواها الى اعلى عليين ، وينقذها من ويلاتها ويشفيها من اسقامها وآلامها التي ما فتئت تتخبط فيها ينقذها من ورطة البوار والدمار ، ينقذها من الانانية والعنصرية ، وتعالي الانسان على الانسان ، ومن بطش القوي بالضعيف ومن التفاني وسفك الدماء البشرية البريئة بدون حق سوى العتو والنهب والسلب واستعباد الاحرار وتسخيرهم تسخير البهائم بغيا وعدوانا .

تلك هي الثقافة التي نحتاج اليها ، وندعو اليها ، ونؤمن ايمانا لايخامره الشك بانها طريق النجاة ، والدواء الناجع لكل الامراض التي تكابد عناءها الانسانية ، ومثل تلك الثقافة التي نتمنى ان تكون هدفنا في عموم التعليم ، وفي جميع ادواره واطواره ، نعم ، هي الثقافة التي نعتقد بحق انها تعصم امتنا وسائر الامم من الانهيار والفناء ، على انها سلم الرقي وطريق التقدم المستنير ، وهي وحدها فقط التي تكفل لنا حياة الفضيلة والعزة والكرامة — لا تلكم الثقافة الزائفة التي يدعو اليها البعض ، ثقافة الانحلال والخلاعة والتهتك والبهيمية ، واطاعة الشهوات ، والانصياع مع الهوى والغواية ، والاندفاع مع تيار العاطفة التي لاتتقيد بارادة ، ولا يكفكف من جماحها عزم ، وليس لها هدف سوى ارضاء رغبات النفس الامارة بالسوء ، والتي تميل بالانسان دائما نحو الويل والشر المستطير . ولا يرضى بها الا اصحاب الاغراض المفسدون ممن وصفوا بقوله تعالى : « ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما » . وان هذه الثقافة تنزل بالانسانية الى الدرك الاسفل ، وتجردها من معنويتها وتطفيء نورها ، وتطمس معالم جمالها ، وتذهب بجميع خصائص النفس البشرية ، وتجعل منها حيوانا مفترسا فتاكا رائده الهوى ، وغايته ارضاء غريزته الوحشية ، متجردا من الرحمة ، وقوة الارادة والصبر والعدالة ، وسائر الصفات التي تعد قواما للبشرية الراقية .

وان كثيرا من الناس يرون ان الثقافة هي معرفة القراءة والكتابة ، والالمام ببعض المسائل والفنون العلمية او التفوق في بعض المهن والصنائع فحسب ، وليس ذلك من رأيي ، بل اعتقد يقينا ان الثقافة فوق ذلك وابعد ، وليس للبشر غنى عنها لانها الفضيلة ، وتحلية النفس بانواع الكمالات المعنوية والاخلاق العالية التي ظلت وستبقى هدفا وميدانا لتسابق الفلاسفة والعلماء ، وعظماء العالم وعقلائه ، طيلة ازمنة التاريخ ، بل هي التي يطالب الله بها عباده ، وارسل بها رسله وانبياءه الى كافة الامم في المعمورة ، في مختلف الاعصار والامصار ، والتي تعلو بالانسان الى نهاية مقياس الكمال من قوة الارادة وصدق العزيمة ، والثقة بالنفس والشجاعة والصدق ، وحب الخير والاصلاح العام ، وجلب النفع لجميع الخلق ، لانهم عيال الله ، ، ثم دفع الضر عنهم ، ونصب ميزان المساواة بين بني الانسان ، مع الرحمة والعدالة ، وما الى ذلك من الصفات والاخلاق الفاضلة لتي ظلت ولا تزال نبراسا لرقي الانسان وعنوان مجده وسعادته وفخره ، بل سبب وجوده وبقائه ، وبالفضائل تفاضلت انواعه ، وتميزت جماعاته وافراده ، واليها يرمي كل تعليم ، وهي هدف كل ثقافة صالحة منذ القدم ، اذن فالثقافة والتعليم الذي تحتاج اليه هو ما يؤدي الى الفضيلة التي هي عماد سعادة الانسان ، وسلم رقيه الى اقصى حد من العبقرية والكمال البشري ، والتي كانت الحد الفاصل بين الانسان والحيوان ، وسائر العوالم التي دونه ، والتي لولاها لما كان شيئا يذكر ، ومن اجلها اكرم وفضل على كثير من الخلق ، واستخلف في الارض ، وسخر له ما في السماوات وما في الارض ، فهي سر عزه وبقائه ، وضمان سعادته ، تلكم هي الثقافة وتلكم غايتها التي طالما تنافس العقلاء في نيل قصب السبق فيها ، وكل ثقافة لا تهدف الى ذلك لهي ثقافة عمياء صماء جوفاء ، مصيرها الضلال البعيد والخسران المبين ، وغايتها الهدم والتخريب ، ثم الاضمحلال والفناء والذل والصغار ، الشيء الذي يأباه الطبع السليم ، ويتجافاه العقل .

اذن فنحن في حاجة الى ثقافة تنتشل مجتمعاتنا من كل ادران الفساد ، وسوء التدبير وضعف التفكير، وتذكي فينا الوعي الصادق ، وترفع مستوانا الى اعلى درجات الكمال ، كي نأخذ مكانتنا السامية امام صفوف الامم الراقية ، لان الانسان يعيش لاقتناء الشرف وعلو المنزلة وتخليد الذكر وبناء المجد وغير ذلك من المعاني التي هي غذاء النفس ، وقوة املها ، ومبعث رغبتها في الحياة ، كما قال الشاعر :

لغير العلى مني القلا والتجنب
ولولا العلى ما كنت في العيش ارغب

هذا هو الانسان ، وهذا هو معنى الانسانية ، اما من يظن ان الحياة هي الاكل والشرب والتفنن في اللذات وانواع الشهوات المادية ، فليتأمل فيما تئول اليه ليعرف قدره منها ، ومقامه بين اجناس البشر .

هذا ولو شئنا ان نتبع العز ونتمسك بالمعاني السامية لكان ذلك قريب المنال منا متى صدق عزمنا ، وتاقت اليه نفوسنا ، وتناولته بالفعل ارادتنا ، ونحن نملك من اسبابه ما يغبطنا عليه الغير ، نملك القرآن الذي يهدي الى فوق ما تسمو اليه نفوس البشر من خير وسعادة ، ونملك الثقافات الاسلامية على اختلاف انواعها وتعاليمها ، ولكن ، هل تفهمناها ؟ هل اعرناها

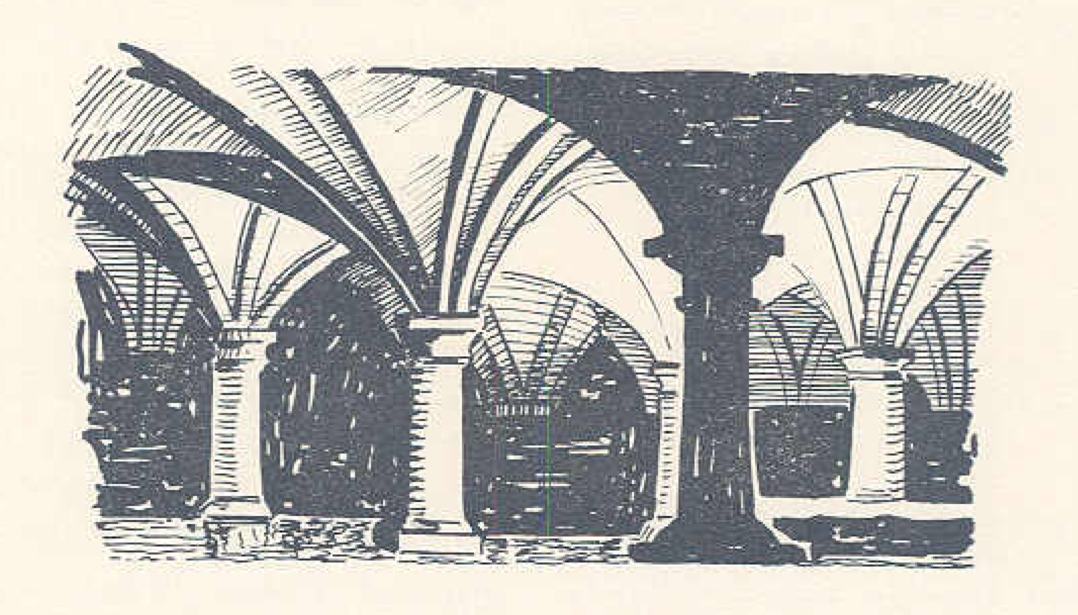
اهمية تذكر ؟ هل حاولنا تطبيقها تطبيقا صالحا ؟ هل استثمرناها الاستثمار النافع ؟ ام نبذناها وراءنا ظهريا معرضين عنها حتى عفت معالمها ، مع انها الدواء الذي ياتي على جميع الادواء ، او ليست الثقافة التي نحتاج اليها احتياج النبات الذابل الى الغيث المنهمر. ان ثقافتنا التي اهملناها كانت ولا تزال الباعث لكثير من مدنيات الامم ، من مرقدها ، وبها وصلت ان كانت وصلت الى شيء ، ولا تزال الى اليوم ماخذا واصلا صحيحا من الاصول المعول عليها في بناء الحضارة ، عند من يقدرها حق قدرها ويعرف كيف يقتطف من ثمارها الدانية ، فمالنا لاتمد ايدينا الى استغلالها والانتفاع بها وجعلها اسسا ثابتة لبناء الثقافة التي نحتاج اليها ؟ تلك الثقافة التي تضمن لنا سعادة دائمة تفوق كل سعادة في العالم .

وليت شعري كيف اصبحنا في دركة من الجهل بالتعليم ومواده وطرقه الى حد اننا لا نحسن شيئا من الاختيار ، ولا كيفية العمل والتطبيق ، مع وفرة المواد وغزارة المنبع ، ولكن البناء الذي يجهل البناء لاتغني عنه الادوات والمواد شيئا ، بل لاتزيده الا هما ، وان امة تملك الثقافة الاسلامية التي على راسها القرآن ، ثم تدعي الفقر والحاجة الى الثقافة ، لهي امة يرثى لها ، ويجدر بها ان تبكي على عقلها وفهمها السقيم الذي اصبحت معه لاتميز بين الصالح والطالح ، ولا تعرف ما تحتاج اليه ، وما يتفق مع حياتها ونفسياتها ، بل اقتنعت بان تكون عالة على الغير كالعجلة الخلفية ، في اكثر شئون حياتها ، تسير ولا تسير ، وتستغل ولا تستغل ، كاليتيم الغني المضروب على يده المغلوب على امره يتمتع الغير بماله وثروته ، ولا يناله منها الا الفتات ، والفضل ، فها نحن اولاء نملك ثروة طائلة من الثقافة والتعاليم الحكمية والروحية التي تهز الجماد ، فلم تغن عنا شيئا لانها مقبورة في بطون الكتب والدفاتر تنتظر من يثيرها من الاجانب الباحثين ، وينفض عنها الغبار ويبرزها للنابهين من ابناء جنسه ، فلا نزيد على ان نطلق العنان لالسنتنا بمدحه والثناء عليه مكبرين فعله وهمته ، دون ان يحرك ذلك شيئا من شعورنا فنتدارك خطيئتنا ونفعل كما فعل فيما بقي من المدخر ، واذا تجرا احد منا على ذلك او حاوله ، سلقناه بالسنة حداد ورميناه بكل سقم وعقم ، وانفتحت لنا عيون لاستخراج عيوبه وتثبيط همته حتى لا يعود الى مثل ذلك ، ولا يجرا غيره على مثل فعله ، كل ذلك بغضا وحسدا لبعضنا البعض ، فاني يحق لنا ان نلهج بالتقدم والرقي مع مخالفة نهجهما الذي هو الخلق القويم والتنزه عن الدنايا والادران الخلقية ؟

وها هو التعليم الذي هو اكبر وسيلة فعالة للنهوض بالامم ورفع مستواها والسير بها نحو كل فضيلة ، لايزال عندنا سقيما لايمكن ان يؤدي الفائدة المطلوبة من ايقاظ الامة المغربية ، والنهوض بها في اقرب اجل ممكن ، لان تعليمنا انما هو شكليات جوفاء، واسم بلا مسمى وجسم بلا روح ، ونظمه ومناهجه تعتمد على اقيسة وتراجم غير واقعية بالنسبة الينا ، ولا تلائم روح الشعب المغربي ، ولا تفي بحاجته كما لاتتمشى مع نفسيته وخصائصه ومقوماته ، اذ الشعب المغربي له طبيعته ومواهبه الفطرية ، وثقافته المكتسبة ، فهو كما يدل عليه تاريخه شعب ماجد شجاع ، تواق دائما الى القوة والعظمة والفخر ، وهو مع ذلك شعب مسلم ما زال يعتز باسلاميته ، احب الاسلام ورضيه دينا منذ القرون الطوال ، فورثه كابرا عن كابر ، وخلفا عن سلف ، وتثقف بثقافته التي خالطت منه الدم واللحم والمخ الى ان اصبحت جزء لا ينفك عن فطرته وطبيعته ، وناضل عن دينه مئات السنين نضالا مدهشا لم يعرف فيه كللا ولا مللا ، فهو يطلب التقدم والاندفاع بانيا على اسس ثقافته السالفة ومجده التليد ، واصلا بين حلقات سلسلة جهاده سواء في الماضي او الحاضر او المستقبل ، دون ان يحيد عن فطرته وخصائصه المطبوعة بطابعها المغربي العربي فهو في حاجة الى تعليم رشيد يحفظ له كيانه ومميزاته ، وينمي فيه الغرائز الجميلة التي عرفه بها التاريخ ، فيحتاج مثلا الى ثقافة تحيي فيه الثقة بنفسه ، وتعرفه بمزاياه وتذكي في نفسه التضحية ، والجلد والصبر ، وتحفظ عليه اسلاميته المثالية بعد تطهيرها من البدع والخرافات التي تتنافى مع تعاليم القرآن والسنة الصحيحة ، وتزيد في عبقريته وتهديه الى الفضيلة والسعادة العامة ، وهذا يحتاج الى تنظيم التعليم تنظيما محكما ، ثم تعميمه واقامته على اسس ثابتة تهدف الى غايات ونتائج معينة تدريجية ، لا كالتعليم الموجود الذي تنخره الفوضى ويهدده الاضطراب فيظهر كل يوم في شكل ، ويتلون تلون الحرباء ، وما بني اليوم يهدم غدا ، والمرحلة التي نقطعها في هذا العام قد نعود اليها في العام التالي ، بدون غاية ولا هدف نرمي اليه ، سوى الصور والاشكال ، ولم يكن هذا شان التعليم والتثقيف في اي امة من الامم او بلد من البلدان ، بل

التثقيف هو اصلاح النفس البشرية ، ونقلها من ظلمات الجهل والطيش الى نور العلم والعقل ، ثم من حال حسنة الى احسن منها وهكذا حتى نهاية الكمال المطلوب الذي تسود معه الفضيلة وتموت الرذيلة ، وتعم الرفاهية والاخاء والطمانينة ، ويتم نضج العقل والاحساس ويكمل الوعي فيدرك كل واحد ماله وما عليه ، فيؤدي ما عليه ويأخذ ماله ، ويعمل للصالح العام من تلقاء نفسه ، ويكون رائده في ذلك هو ضميره وحده الذي يأمره بالخير فيأتيه ، وينهاه عن الشر فينتهي عنه ، وللوصول الى مثل هذه النتائج يجب ان يسقى تعليمنا بروح خلقية دينية تعلم باسلوب حكيم جذاب مؤثر على المتعلمين والعاملين ، فنحن اذا في حاجة ماسة الى ثقافة تقلب الوضع الحالي الى ما هو اوفق واصلح ، وتغير الاتجاه الموجود الى اتجاه يجمع شمل الامة ويوحد كلمتها ، ويجعل منها كتلة صالحة متماسكة متحدة يشد بعضها البعض تعمل لخير نفسها ولخير غيرها متعاونة متساندة بعطف واخلاص ، تهدف الى غاية واحدة وغرضها واحد تشترك في دفع الضر عن الجميع وجلب النفع للجميع.

وليس ثمة ثقافة تكفل لنا ذلك سوى تعاليم الدين الكامنة بين آيات القرآن ، وحكم سيد المرسلين تلك التعاليم التي تذكرنا بقوله : «انما المومنون اخوة»، وبقوله عليه السلام : «المومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وقوله : «لايومن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه» ، وامثال ذلك من الآيات والاحاديث التي كونت من قبائل العرب المتنافرة المتعادية امة رحيمة متعاطفة دكت الارض وجابت العالم فاتحة ناشرة العدل والبر ، والثقافة الصالحة والعلم ، واملت على امم الارض درسا من المساواة والرحمة والاخلاق ، وبنت صروحا مشيدة من العز والحضارة في ربوع العالم الفسيح ، وخلدت ثروة من العلم والثقافة لا تفنى على ممر العصور والاجيال ، ذلك مجدنا الذي لايزال يشع من وراء القرون ، واولئك آباؤنا الصالحين ، ومثل تلك الثقافة هي التي نحتاج اليها ، ونطالب بها (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) .



واقع الثقافة المغربية

للأستاذ عبد الله كامل الكتاني

لا يستطيع احدنا ان يطمئن الى تلك الاحكام العادلة الظالمة التي يطلقها الادباء والعلماء وسائر الباحثين فى الثقافة المغربية والفكر المغربي . لاننا ـ بطبيعتنا ـ لا نقبل ان يكون الادب العربي فى المغرب مثلا عالة على الادب العربي فى المشرق ، ونثور حينما يرددون بزهو وفخر وبملء الافواه على ملء الاسماع كلمة ابن العميد المشهورة فى الكتاب العربي ، المغربي التاليف ، المشرقي الموضوع ، كتاب « العقد الفريد »: (بضاعتنا ردت الينا) .

والحقيقة انه يحق لنا ان نثور ونغضب لهذا الذي يقال ويقال ويكرر ، ولكن ثورتنا ينبغي لها ان تكون على قدر ما فى هذا الحكم من عدل ، لا على مقدار ما فيه من ظلم ، وهكذا فان غضبتنا ينبغي لها ان توجه وجهة انسانية قومية ، وجهة ايجابية خالية من الحماسة والاندفاع العقيمين ، وجهة فيها تسامح وتنافس فى العمل والانتاج تستفيد منهما الامة كلها ، ولا يغلق الاندفاع علينا سبيل العمل المنتج الواعي .

والواقع اننا اذا قعدنا نلتمس العناصر الايجابية لثقافتنا القديمة او المعاصرة ، لم نصل فى ذلك الى امر ذي بال : اما ثقافتنا القديمة فقد فرغ من البحث فيها حينما دفعها ابن العميد بحكمه السابق الذكر ، هذا الحكم الذي سار مع الزمن مسير الامثال وطارت شهرته فى الآفاق كما يقولون ، فلننظر الى ثقافتنا المعاصرة ، وواقعها البئيس ، فنجدها ـ فى هذا الوقت الذي نعده وقت انبعاثنا ونهضتنا فى هذا الزمن الذي نعتبره زمن ثورتنا على الجمود ـ نجدها فى حالة لا ترضي جدا .

هذه ثقافة القرويين ، وهي البقية الباقية من ثقافة المغرب التقليدية التي وصمها ابن العميد بقولته المشهورة ، تاخرت بمراحل عما كانت معروفة عليه ايام ابن العميد ، والمثقفون المتخرجون منها اصبحوا فى مفترق الطرق ، لم ينتفعوا بالطريقة القديمة فى الثقافة وانما اقتنوا سائر ما فيها من عقم وجمود ، وتركوا ما فيها من نافع مفيد ، ولم تسمح لهم ظروفهم ان يعرفوا من المناهج الجديدة فى الثقافة ما يسايرون به التيارات الثقافية الحديثة فيما يقابل جامعة القرويين عند غيرنا من الاقطار كالجامع الازهر ، وكلية اصول الدين فى مصر ، وكلية الشريعة فى دمشق ...

وتلك الثقافة العصرية التي يتلقى طلابنا اسسها فى مدارسنا ، ثم ينطلقون منها الى معاهد الغرب يستكملون ثقافتهم فيها ، هذه الثقافة لاغبار عليها ، ولا يمكن لاحد ان يجابهها بالمعارضة ، ويواجه المثقفين بها بالنكير ، ولكن نعارض الطريقة التي تبدو فيها هذه الثقافة فى بلادنا : الناس اليوم وفى كل مكان يسعون الى الغرب ، والى معاهده يتثقفون فيها ، ولكنهم يعودون الى بلادهم لينشروا تلك الثقافة ، فيلقونها الى شعوبهم ـ رغم انها نتاج امم غريبة عن هذه الشعوب ـ فى ثوب وطني صريح ، هذا ما عمله المثقفون فى بلاد كثيرة كبيرة كاليابان ، وفى بلاد اخرى صغيرة كسورية الشبيهة بالمغرب عادات وتقاليد واخلاقا الى حد كبير .

المثقفون فى بلادنا غالبيتهم من فرنسا ، وبعضهم من اسبانيا ، وبعض من انجلترا ، وآخرون من المانيا ، هؤلاء جميعا يدرسون ثقافات تلك البلاد المختلفة ، ثم يأتوننا بتلك الثقافة دونما « تمثل » .

ان المغرب فى هذه الايام يتلقى الوانا من الثقافات الفرنسية والالمانية والاسبانية والانجليزية بمقدار ما يدخله من متخرجين من مختلف هذه البلاد ، مشكلتنا مع هؤلاء انهم لا « يتمثلون » ما يتعلمون

كمشاربة ، انهم اذا لم « يمغربوا » ما علموا ، وما داموا مقتنعين بان ما تعلموه لايمكن ان « يتمثل » من قبلهم « تمثلا » مغربيا ، لن يفيدوا المغرب شيئا ، ولن يجني المغرب من ورائهم نفعا ، ولن تتقدم ثقافتنا بوجودهم شبرا ، واحسن للمغرب ان يستورد مثقفين نامي الثقافة من مختلف هذه البلاد من ان ينتظر تخرج هؤلاء المثقفين الذين لايزيدون عن كونهم نسخة منقوصة من ثقافة اجنبية ، عملية تمثل الثقافة الاجنبية تجعل مثقفينا يلتقون على صعيد واحد في التفكير ، ويجتمعون على طريقة واحدة في الاصلاح ، وعلى منهج واحد في الثقافة ومن مزاج هذه الثقافات المتنوعة تكون الثقافة المغربية ، ويكون الفكر المغربي الذي ياخذ بقدر ما يعطي .

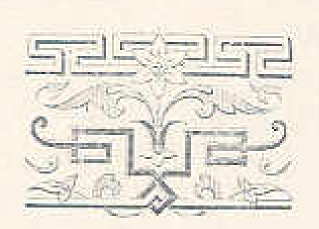
الى جانب هذين النوعين من الثقافة ، هنالك نوع ثالث من الثقافة نطلق عليه اسم « الثقافة العربية » واصحاب هذه الثقافة قد تلقوها في المدارس الوطنية الحرة قبل الاستقلال ، او في بيوتهم ، او في الكتاتيب « المسايد القرآنية » واتيح لبعضهم ان يشاركوا في الحياة العامة ، بثقافتهم هذه – على ضعفها – وسمحت الظروف لطائفة اخرى منهم ان يتابع دراسته في الخارج .

ان الطريقة الغالبة على تفكير هؤلاء هي الطريقة الادبية ، فهم يعيشون في جو (رومانسي) خيالي مع كتاب او قصة او رواية ، يدورون في فلك مؤلف من المؤلفين ، وطريقته في الكتابة والتاليف ، ويحسبون ان ذلك كل شيء في الثقافة وان العالم هو « الحرف » او « الكلمة » او « السحر » كما يعبرون ، هذا الفلك الضيق ليس شيئا ، وهو اضيق انواع الثقافة التي تنتشر في المغرب في هذه الايام ، واصحابه اكثر اندفاعا وحماسة نحو « المغربة » والتعريب وغير ذلك من الشعارات الوطنية التي لا يحققها الصياح او الصراخ ، وانما تحققها الثقافة العلمية المنظمة التي يعتد بها عندنا وعند غيرنا من الناس . ثقافة هؤلاء ضررها اكثر من نفعها ، هم الى الجاهلين المتعلمين اقرب منهم الى اي نوع آخر من المثقفين ، هم اكثر غرورا واقل عملا .. وكلما قل علم الانسان او عمله ، زاد غروره ، وقويت دعواه .

واما الطائفة الاخرى التي تلقت تعليمها العالي في الاقطار العربية ، فلا يسعنا الا ان نسلكها في زمرة اخوانهم الآخرين من المثقفين ثقافة تقليدية او عصرية، ولكنهم – هم الآخرون – بحاجة الى تمثل بعض ما يتلقونه في الشرق اذا لم نقل كل ما تلقوه من ثقافة هناك ، ليستطيعوا التفاهم مع اخوانهم المتخرجين من الغرب ، ومن القرويين ، والا فسيكونون لونا ثقافيا جديدا يضاف الى الالوان الاسبانية والفرنسية والانجليزية وتدعوه باللون العربي المترجم .

هذه الطائفة يقع عليها عبء ثقيل في تقريب وجهات النظر الثقافية والفكرية ، وربط الصلة بين هذه الالوان الملونة من الثقافات الحديثة منها والقديمة ، بحكم ما لهم من دراسات اخذت من الحديث بنصيب ، كما اخذت من القديم بمثل ذلك . وعليهم تقع تبعة القيام بهذه المهمة والنجاح في القيام بها .

تلك هي التيارات المختلفة التي تتكون منها الثقافة المغربية ، وهي كما عبرت ، ليست ثقافة مغربية خالصة ، وانما هي تيارات مختلفة ، وعناصر متعددة في ثقافة تحتاج الى التمثل ، والى الملاءمة ، والى المزج ، والى تاليف بعضها مع بعض ، لتكون منها ثقافة مغربية ، تستفيد وتفيد .



الأسس النفسية الاجتماعية للنهضة المغربية

للأستاذ جمال بغدادي القادري

ان المصلح الاجتماعي حينما يخطط طريق السير في الاصلاح، يجعل عمله هذا مسبوقا بتشخيص المرض واظهار الهنات الاجتماعية السائدة قبل التمريض والتطبيب ، وهو ان فعل فسيجد صعوبات جمة في العلاج لان الوجود الاجتماعي كيفما كان حاله فهو معقد الظاهرة متداخل العوامل يستعصي على كل تحليل ، جذوره ضاربة في الماضي السحيق ومنحدرة نحو آفاق قائمة لا يحدها البصر ، عند التمييز جمع من النفسيات الفردية ولكنه في التركيب شيء آخر لا يمت الى الافراد فقط وانما الى روح الجماعة والى ضميرها الغامض ، والظاهرة الاجتماعية لا حاضر لها لانها كالسيل الجارف يسعى نحو غده حثيثا وفي احشائه رواسب من الماضي السحيق .. اذن كيف نبحث ما لا يحده بصر او يحيط به عقل . اننا مهما فعلنا فلن يكون عملنا الا كمشية الاعشى يتخبط في الدياجي ومهما قلنا : هنا الداء وهذا هو العلاج فهيهات ان نتلمس جوهر المجتمع وحقيقته ولذلك وجب علينا ان نتحدث عن الناس والمجتمع بتحفظ شديد وتواضع كبير .

والنظرة الاولى على مجتمعنا العربي المغربي تعكس التقابل والتنافر بين فئة واخرى وبين اتجاه واتجاه ، محافظون ومجددون ، شباب لا يبالي اندفع وراء المتعة والاستمتاع ، وشيوخ يذرفون الدموع على الخسارة والضياع ، قوم مشرئبون للمستقبل الساحر الذي طلق الماضي او يكاد ، وقوم لا هم لهم الا التحسر على مخلفات الاباء والاجداد ، فكيف التوفيق والتنسيق

ان المجتمع المغربي يعيش على الاستهلاك كثيرا وعلى الاختراع والانتاج قليلا فما السبيل الى تفتيق العقلية المغربية على الابتكار والمبادرات ، والمجتمع المغربي في حاجة الى مزيد من صلات الحب والمزيد من روح التضحية والفداء ، فاين هي تلك العصا السحرية التي تنشر الحب في القلوب ؟ ان هذه العصا العجيبة كامنة في التربية النفسية الاجتماعية ، فاساس النهضة قائم على اصلاح النفس اولا ثم اصلاح المجتمع ثانيا اي ان الاتجاه يكون من داخل انفسنا الى العالم الخارجي، من الفرد الى المجتمع ، ونحن لا نبتدع جديدا فان الاسلام – وهو رائدنا الدائم – اهتم اولا بتركيز العقيدة وتقوية الايمان وتطهير النفس قبل ان تشرع الانظمة والقوانين ، واذا كان اسلوب الاسلام في الدعوة خالدا فهو في هذا المخطط خلاق من حيث السير المنظم الهادف اي انه اتبع طبيعة الاشياء في التركيب والتكوين .

والنهضة النفسية الاجتماعية تومن باسبقية الروح على الجسم والنفس على المادة ، لان الحضارة ثمرة الروح المفكرة لا المادة الخرساء البكماء ، والمادة لا تؤثر في الانسان بقدر ما تتلقى تاثيره هو ، فنحن نصنع المادة ونخترع الآلة ولكن الآلة لم تخترع الانسان فهي تؤثر فيه فقط وفرق بين التاثير والتكوين، وجناية الفلسفة الماركسية انها تبني النهضة على اسطورة المادة جاعلة من العقل والروح تابعين منفعلين ، وقد اوضح العالم المؤرخ الانجليزي ارنولد توينبي بدامغ الحجة كيف ان اعرق الحضارات القديمة والحديثة قامت على الدافع النفسي في تحدي صعوبات الطبيعة وضيق المجالات الحياتية وكيف ان الخطر الدائم يحفز الانسان على تلقي التهديد بالمجابهة والتحدي ، فالعالم العربي تسلح وتقوى بفضل وجود خطر اسرائيل ، والاسلام انتشر في بقاع الارض بفضل ذلك الدافع النفسي في نشر الرسالة ، وقد كانت بداية النهضة في المغرب قبسا من هذا المفهوم النفسي للحضارة حينما عزم الشعب على التخلص من وجود المغتصب الظالم بقوة العزيمة التي كانت الحافز على الانطلاق الحر نحو البناء السليم والنهضة الحقيقية ولكن الاستعمار ترك وهو يبارح البلاد بعض الاثر في انفس عدد غير قليل من شبابنا ، لقد ترك في انفسهم الشعور الدائم بالضآلة والانبهار

امام حضارة الغرب عموما وحضارة فرنسا خاصة ، ثم الشعور بالنقص والاستصغار عند المقارنة والمقابلة، وهذا الرادع النفسي الخطير من شانه ان يعطل القوة الحية فينا ويقعدنا فنكف عن الانتاج والتسابق مع الامم الحية الراقية ونكتفي بحياة التبعية والاستهلاك ، هذا الشعور بالعقم الثقافي والحضاري سلاح الاستعمار في كل بلد محتل لانه ضمان على ابقاء العهد البائد وضمان لسطوته على عقولنا ، ونحن لو نظرنا قليلا في ماضي حضارتنا لتأكدنا اننا شعب خلاق مبدع تركنا آثارا خالدة في العمران والفكر الانساني ، واننا اليوم بدانا هذا الزحف المقدس فنحن لا نقل ذكاء عن اعرق الامم حضارة ولسنا اقل استعدادا للبناء الدائم وانما عاقتنا ظروف قاهرة فلجانا الى الركود والى ما يشبه العطالة اما اذا آمنا بانفسنا واسترجعنا تلك الثقة بمواهبنا لرايتنا نحقق المعجزات في كافة ميادين النشاط البشري ، اننا لفي حاجة الى تذكير بعضنا بهذه الحقيقة الملموسة ، وتطعيم الجيل الناهض بهذا الاحساس بالقوة والكرامة والاصالة .

واذا كانت بالنفس دوافع نحو البناء والتحقيق فهي لا تكفي في العمل الحضاري الذي يقوم اول ما يقوم على المجتمع كهياة تعرف وظيفتها وتشعر بوجودها ولذلك لابد للاصلاح الاجتماعي اولا وقبل كل شيء ان يكون ملائما لطبيعة المجتمع منسجما مع مقوماته الاساسية ، فلا نعمل كما فعل مصطفى كمال في محاولته القضاء على آثار الاسلام في تركيا ، فكانه حاول اخماد غرائز في اعماق الشعب التركي وهيهات ان يستطيع ، وكذلك الحركة الشيوعية التي حاولت ازالة الطبقات تامة ومنع الملكية الفردية وابدال الايمان بالله بالايمان بالحزب ، ومحاولة الاستعمار ببلادنا ليست بعيدة عنا حينما صمم على اهانة اللغة العربية وقتل كل احساس بالكرامة الوطنية المتحررة وادخال عادات تتنافى مع تربيتنا الاسلامية ، فالاصلاح الناجح هو الاصلاح الذي ياخذ مواد البناء من الواقع الاجتماعي الحي القابل للبقاء اما ان نحاول التغيير الجذري والبناء في الهواء فهذا عمل فاشل يحتضر وهو في المهد قبل النمو والتكامل .

والاصلاح الاجتماعي الحقيقي يبدا من اللبنة الاجتماعية الاولى والخلية الاساسية في كيان المجتمع وهي الاسرة ، والمتتبع لتطور الاسرة يكاد يستنتج انها في طريق الانحلال ، ونحن نعلم جيدا ان وجود الاسرة امر ضروري ولازم في سلامة المجتمع ، وانحلال الاسرة الظاهري آت من ان الاسرة فقدت ثلاثة اركان اساسية : فقدت افرادها وفقدت وظيفتها وفقدت سلطة الزوج .

لقد كانت الاسرة في الشعوب البدائية تضم كافة افراد القبيلة بناء على علاقة الدم والجوار والعصبية وكلما ارتقى المجتمع كلما تخلص من تبعية الجوار والعصبية مكتفيا بعلاقة الدم التي كانت هي بحد ذاتها واسعة النطاق تشمل الاقرباء الابعدين والاقربين، ولكن التطور فعل فعلته حتى في هذه العلاقة اننا اصبحنا اليوم من الاسرة الحديثة الزوج والزوجة والاولاد فقط بل ان الاسرة في البلاد الاشتراكية اصبحت تعني الزوج وزوجته على اعتبار ان الدولة هي التي تضم اليها الاولاد ، ونحن لو سرنا في هذا المنطق التسلسلي لحكمنا على ان الاسرة ستنعدم في المستقبل وتبقى العلاقة بين الزوجين علاقة استمتاع فقط ، والجانب الثاني لانحلال الاسرة آت من انها فقدت كل الوظائف التي كانت تتمتع بها فيما مضى لان الدولة والمؤسسات الاجتماعية الاخرى اخذت منها هذه الوظائف : كانت الاسرة تقوم بكل شؤون الحياة ولا تعول على احد ، فكانت تربي وتعلم الاولاد وتدربهم على حرفة من الحرف وكانت الزوجة تخيط الثياب وتحيك المفروشات وتربي الدواجن والاغنام وكان الزوج يقوم بوظيفة النجار والحطاب والبقال والحذاء والقاضي والبوليس الخ. اما في المجتمعات الحديثة نرى هيئات اخرى تسلمتهذه الوظائف واختصت بها، وهنالك جانب ثالث طرا عليه الكثير من التغيير وهو المتعلق بسلطة الزوج وبتبعية الزوجة والاولاد ، لقد كانت سلطة الاب او الزوج فيما مضى مطلقة عنيفة لا تقبل المهاودة كانت له الكلمة العليا وهو صاحب القول المطلق الذي لا يناقش ، اما اليوم فبفضل التعليم والحياة الديمقراطية وخروج المراة الى الحياة العملية واستقلالها المادي نرى سيادة الاب او الزوج تتقلص ويكاد يصبح شخصا غير موجود لا كلمة له ولا امر ، واذا كانت سلطة الاب هي الرباط للاسرة فان رابطة اخرى تقوم مقامها اليوم بعد ان حصل استقلال افراد العائلة ؟ وهل معنى هذا ان الاسرة اصبحت تحتضر ؟ ان علماء الاجتماع يؤكدون بشكل يكاد يكون اجماعيا على ان الاسرة يجب ان تبقى ولو بمفهومها الحديث الضيق وان ضياعها وانحلالها هو ضياع المجتمع برمته ودليل هذا ان جميع المجتمعات البشرية القديمة والحديثة كانت مرتبطة بوجود الاسرة ولا يعرف التاريخ امة كانت الاسرة فيها معدومة ، واذا كانت

الاسرة تطورت الى هذا الحد الذي نراه اليوم فليس معنى هذا انها في طريق الزوال اذ على الاقل نجد الاسرة اليوم تقوم بالوظائف الآتية :

1) العمل على ابقاء الجنس البشري .

2) اشباع الغريزة الجنسية اشباعا منظما .

3) ايجاد المسكن الذي تأوى اليه الاسرة .

4) القيام باوليات التربية والمحافظة على سلامة الاولاد .

والذي يجب ان يبقى من كل هذه الوظائف الباقية هو الحب بين الزوجين والجو العاطفي الدافىء الذي يملأ حياة الاسرة من كل جانب ، ويؤكد علماء النفس وعلماء التحليل النفسي ان اولاد الذين لا يشعرون بهذا الحب او لا يجدون هذا الجو العاطفي المنعش سرعان ما تراهم يموتون (فى السنة العاشرة على الاكثر) او يصابون بعاهات نفسية دائمة كالحسرة والانطواء والبلاهة والجنون فلابد اذا من المحافظة على سلامة الاسرة وبقائها صحيحة المبنى والروح ، وان تكون التشريعات والقوانين فى خدمتها وسلامتها .

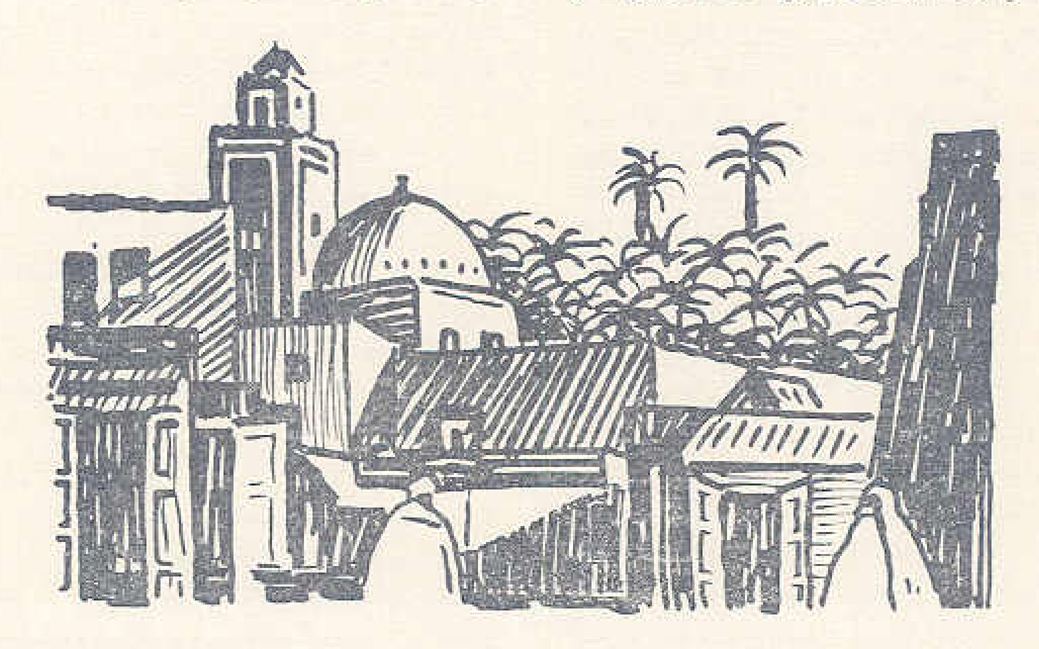
ومع الاسرة لابد من ذكر جانب آخر له هذا التأثير الفعال فى اية نهضة وهو يأتي بعدها مباشرة فى الاهمية وهو دور المدرسة فى التكوين الحضاري ، وقد كان بودي الاطالة فى هذا المضمار ولكن هنالك زميل آخر فصل القول فى مكانة المدرسة واهمية التربية ، ومع ذلك اشير الى بعض الملاحظات التي تذكر فى هذا المجال

ان المدرسة المثالية والتربية السليمة هي التي تقوم بوظيفتين جامعتين : التربية الفردية والتربية الاجتماعية .

والتربية الفردية لها ثلاثة جوانب : تربية الجسم وتربية العقل وتربية النفس ، واذا سلمنا ان المدرسة فى المغرب تعتني بالجانب الاول والثاني فهي تكاد تهمل الجانب الاخير فى التربية النفسية وهذا الجانب هو الذي يخلق الشخصية الكاملة ، فتربية الوجدان والكشف عن القدرات والمواهب وتربية الملاحظة وتدريب الذاكرة وعلاج العيوب النفسية لا تقل اهمية عن درس الجغرافيا والحساب .

وفى التربية البدنية يجب ان نلاحظ ان الهدف منها هو تكوين العادات الجسمية الصالحة وتدريب العمل اليدوي ، اما التربية الاجتماعية فهي تهدف الى تكوين المواطن الصالح لانها اعداد للمجتمع وتأهيل للعيش المشترك .

فالنهضة الناجحة هي التي تقوم اول ما تقوم على الانسان اولا ثم على المادة والوجود المحسوس ثانيا، وبفضل قادتنا وعزم المسؤولين على العمل الجدي النافع يمكن لنا ان نأمل فى نهضة شاملة تكون وتبقى آية للناس ومثالا يحتذى .



الإسلام وحرية الفكر

للأستاذ عز الدين عبد القادر

اذا دققنا فى البحث فيما كانت عليه حياة الفرد فى مختلف العصور المتاخرة والمجتمعات القديمة وما كان يسودها من شرائع وانظمة .. لما وجدنا فيها اية ضمانات للحريات الشخصية .. واهمها واخطرها .. حرية الفكر ..

لقد كان الناس خلال تلك العصور المظلمة يعيشون فى مجتمعات بدائية او قبلية ، نهبا لطغيان الطغاة واباطيلهم .. وعبيدا لاسيادهم المستبدين واهوائهم من زعماء وامراء وملوك .. ممن جعلوا الخصومة متصلة بينهم وبين حريات شعوبهم جميعا قرونا متوالية ..

وقلما كان يستطيع احد اتباعهم ان يرفع راسه بحركة .. او ان يفتح فمه بكلمة .. فضلا عن ابداء راي والدعوة لفكرة ..

وكثيرا ما كان جزاء من يجسر منهم على ذلك .. ان يحرق حيا .. او يقتل صلبا .. او يلقى الى السباع الجائعة المفترسة .. وانا لنرى امثلة كثيرة على ذلك تملأ تاريخ الاقدمين .. وصحف التوراة .. وكتب المسيحية ..

ورغم ذلك كله .. فان من اعظم ما ورثته الحضارة الحديثة من ماضي الانسانية المجيد .. ومن اسمى ما خلفه العقل البشري فى انطلاقه وتطوره من تراث .. للاجيال المتعاقبة .. هو ما جاء به الاسلام .. للناس من تحرير الروح والعقل والفكر ..

وتعتبر حرية الفكر فى حد ذاتها .. من اهم المقومات الحيوية التي بنيت عليها حضارة الاسلام .. هذه الحضارة العظيمة التي اشرقت مع بزوغ فجر الاسلام وظهور دعوة الحق .. وامتد نورها فى مشارق الارض ومغاربها منذ اللحظة الاولى .. عبر الاجيال .. حتى شمل الحضارة الحديثة فى عصرنا هذا ..

اسلام علي بن ابي طالب

كان سيدنا علي امير المؤمنين اول صبي دخل الاسلام فى ايامه الاولى .. وذلك عندما فاجأ الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يصلي بالسيدة خديجة سرا فى داره ورآهما يركعان ويسجدان ويتلوان ما تيسر مما اوحاه الله تعالى يومئذ من قرآن .. فلما سأل الصبي ابن عمه العظيم دهشا لمن يسجدان؟ اجابه : « انما نسجد لله الذي بعثني نبيا وامرني ان ادعو الناس اليه .. » ودعاه الى عبادة الواحد الاحد والدخول فى الدين الجديد .. ونبذ عبادة الاصنام .

فاستمهله سيدنا علي حتى يشاور اباه .. وامضى علي الليل ساهرا يفكر فيما سمعه من آيات بينات انشرح لها صدره وتفتحت عليها افكاره .. وفى الصباح اسرع الصبي الناشيء الى ابن عمه الرسول الكريم .. واعلن اسلامه قائلا ببساطة : « لقد خلقني الله من قبل ان يشاور ابا طالب ، فما حاجتي انا الى مشاورته لاعبد الله ؟ .. »

وهكذا اختار علي الاسلام ودخل فى الدين الجديد بحرية وامعان فكر .. متاثرا بروح الدعوة المحمدية التي جاء بها القرآن .. وبشر بها محمد صلى الله عليه وسلم ..

وقصة كل مسلم

هذه قصة اسلام سيدنا علي .. وهناك قصة اخرى لمسلم آخر .. هي قصة كل مسلم .. وهي تجري في مسجد المدينة حينما وقف عمر بن الخطاب يخطب على منبر رسول الله في المسلمين حتى جاء الى قوله المشهور : (يا ايها الناس .. من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه ..) .. فوقف رجل من المسلمين وشهر سيفه واجاب عمر صائحا : والله .. لو راينا فيك اعوجاجا .. لقومناه بسيوفنا ..

هذا الرجل ما كان ليقول هذا الكلام .. الا تشبعا منه بروح الدعوة المحمدية التي يؤمن بها هو وعمر وسائر المسلمين في كل زمان ومكان .. دعوة الحق والحرية والقوة .. قوة العقيدة .. وحرية الفكر ..

عمالقة الفكر الاسلامي

هذه القصص المضيئة تصور لنا تصويرا دقيقا مقدار عظمة القرآن .. والدعوة الاسلامية .. واثرهما البالغ في تحرير الروح والعقل والفكر الانساني ..

وفي هذه الصور الصغيرة نفسها .. نقطة الانطلاق العظيم للفكر المتحرر الذي شيد مع الزمن صرح الحضارة الاسلامية عاليا ..

من هنا بدا مجد الاسلام الفكري والعلمي .. ومن هنا كانت انطلاقة اعلام الفكر الاسلامي من امثال الغزالي والفرابي وابي العلاء المعري وجمال الدين الافغاني وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم وغيرهم ..

ولولا ما في الاسلام ودعوته من حرية الفكر .. لما كانت هناك انطلاقة علماء الاسلام الاعلام من امثال ابن خلدون في بحوثه العلمية التي جعلته أول رائد في العالم لعلم الاجتماع وفلسفته ..

وفي ظل هذه الحرية الفكرية المشعة عاش عمالقة الفكر الاسلامي على مر الايام وكر العصور ائمة يهدون العالم كله الى نور العلم .. ونذكر منهم ابن سيناء وحسن بن الهيثم من الخالدين الذين اعترف العالم في عصرنا هذا بفضلهم على الانسانية .. والحضارة الحديثة ..

وحسب المسلمين فخرا .. ان الاسلام يحمي العلم والعلماء .. والفكر .. والمفكرين .. في نفس الوقت الذي كانت تشهد اوروبا مصرع علمائها ومفكريها بتهمة الزندقة والكفر والالحاد ..

الاسلام بين الجمود والانطلاق

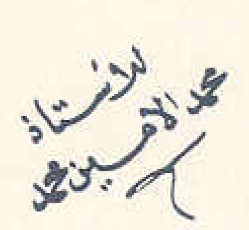
ان حرية الفكر .. هي امل كل مسلم .. والاسلام الذي احاط هذه الحرية الغالية بكافة الضمانات حماية للحضارة .. واحتراما للكرامة الانسانية نفسها .. يحث معتنقيه على توفير هذه الحرية للناس جميعا لانه بدون حرية الفكر .. لاتكون كرامة لانسان .. ولا تكون حضارة زاهية ينعم فيها الناس بامنهم وحقوقهم وامالهم ..

وشاء الحظ العاثر ان يجعل من المسلمين او قل بتعبير ادق يجعل من بعضهم حجر عثرة في طريق التطور والانطلاق .. وعامل هدم في كيان الاسلام .. وذلك بدعوة هؤلاء المتزمتين الى الجمود وتقييد الحريات .. وخاصة حرية الفكر .. الامر الذي ادى بالحضارة الاسلامية الى التوقف عن النمو والذبول .. والتعرض للانهيار ..

فاذا عرفنا هذا .. عرفنا بيت الداء .. وسر تخلفنا عن ركب الحياة .. بعد ان سرنا طويلا في الطليعة وما علينا اليوم الا ان نحارب هذا الجمود فينا حربا لا هوادة فيها .. وان نقف لدعاة الجمود والتخلف .. بالمرصاد .. وان نغير موقفنا من جمود وتردد .. الى تحرر وانطلاق بايمان وقوة .. استجابة لدعوة القرآن .. الذي جعل الاسلام .. الحصن الحصين للحريات جميعا .. وفي مقدمتها حرية الفكر ..

ان الله لا يغير ما بقوم .. حتى يغيروا ما بانفسهم ..

الثقافة التي نحتاج إليها





نجتاز اليوم مرحلة دقيقة من مراحل حياتنا الثقافية ، وتغمرنا تيارات متباينة من القلق حينا والاشفاق حينا آخر . . القلق من الواقع ، ثم الاشفاق من المستقبل ، ولعل مرد هذا القلق وذلك الاشفاق يرجع الى ما نحس به من التخمة الثقافية التي اخذت علينا كل مسالكنا الفكرية والشعورية فأصبحنا لا ندري ماذا ناخذ وماذا ندع ، يستهوينا هذا اللون من الثقافة تارة فنتهافت عليه تهافت الفراش على النار ، وننكر ذلك اللون تارة اخرى فنصدف عنه ؛ ونحن فى اعجابنا بهذا وانكارنا لذلك لانحكم غير اذواقنا وامزجتنا ؛ ولا نكاد نحسب اي حساب لمقومات مجتمعنا الذي نعيش فيه ، ولا لمقتضيات البيئة التى تحيط بنا ، بل ولا الدين الذي نعتنقه ؛ ومن ثم فقد اصبحت ثقافتنا كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الالوان مختلفات ، اي ان ثقافتنا ليست صورة صادقة لنا ، وليست تعبيرا دقيقا عنا كمسلمين توجهنا شريعة اسلامية ويسوسنا قرآن .

لقد تفتحت عيوننا منذ مطلع هذا القرن او قبل ذلك بقليل على ثقافة الغرب نسعى اليها او تسعى الينا ، وناخذها مختارين او تفرض علينا كرها ، ثم كان الاستعمار فمسنا مسا عنيفا فى مختلف جوانب حياتنا الثقافية حتى اوشك ان يفسد علينا السنتنا ويطمس معالم لغتنا ، وظلت معركتنا مع الاستعمار محتدمة منذ ان حمل لواءها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده حتى تحررت الامة الاسلامية فى النهاية او كادت ، وخرجنا بعد هذا الصراع العنيف منتصرين ولكننا لم ننتصر بعد على انفسنا ، واعني لم نستطع بعد ان ننفض ايدينا نهائيا من سيطرة الاستعمار الفكري الذي ملأ رؤوسنا واتخذ له مقاعد فى مشاعرنا؛ ومن اجل ذلك اصبحنا نشعر باننا متخمون ، ولو نحن ادركنا الحقيقة لعرفنا باننا واهمون فيما تصورنا، مخطئون فيما ظننا ، فنحن قد افدنا من الثقافة الغربية قليلا ولكنا فى مقابل ذلك اضعنا الكثير الذي كنا نملك ، اضعنا روحانيتنا السامية واكتسبنا مادية بغيضة والروحانيات فيض من الله وهي قمة المثل الانسانية العليا ، والمادية انحدار بالقيم الانسانية الى احط مداركها ، ومن ثم يمكن لنا ان نرد كل خلل نراه فى مجتمعنا او نحس به الى المادية التي جاءتنا من الغرب فافسدت علينا كل شيء حتى الروابط السامية التي كانت تربط الفرد بالفرد ، والفرد بالمجتمع ، وافراد الاسرة الواحدة بعضهم ببعض فى مجالات من الالفة الجامعة والتعاون الهادف والتفاهم الواعي .

انا لاندعو الى رجعية جامدة ، كما انا لاندعو الى تقليد اعمى ، فقد استطاع اوائلنا ان يفيدوا من كل الثقافات التي احاطت بهم من فارسية وهندية ويونانية ، ولقد انصهرت هذه الثقافات فى الثقافة العربية الاسلامية على نحو جعلها تتخذ شكل ثقافة عربية اسلامية متجددة المظهر ، قومية الروح والمنزع، ولكن ذلك لم يجعل العرب يتنكرون لمقوماتهم او ينسون كيانهم الحقيقي ، بل هم الذين حملوا مشعل

الثقافة شرقا وغربا ينشرون الهدى والمعرفة ويردون الشعوب الضالة الى الحق والفضيلة والاخوة ، ولعل سر نجاح الاولين انهم كانوا يؤمنون بانفسهم ايمانا عميقا جعلهم ينطلقون الى اهدافهم كالقذائف فكان النصر دائما حليفهم .

نحن اليوم تسودنا دعوة آثمة الى نبذ كل ما هو عربي لانه عربي والتعلق بكل ما هو اجنبي لانه اجنبي، ومن ثم فقد اصبحنا نلبس ما ليس لنا ، فنبدو في مظهر من الغرابة لانظير له مظهر يستدر الرثاء حينا والسخرية حينا آخر ... قال له صاحبه وهو يحاوره انه ليس هناك مايسمى بثقافة عربية . . والمسألة لاتعدو ان تكون اسما قد انتزع من اللغات الاجنبية واستعمل عندنا في غير مدلول ظاهر كما استعملنا اسماء اخرى كثيرة ليس لها مسميات ، وكان صاحب هذه العبارات ذا نصيب من الثقافة الاجنبية لايكاد يعدو نصيب من اغترف بيديه غرفة من ماء فخانته فروج الاصابع وهو لايدري ، ولم يكد يتم عباراته هذه حتى لوى لسانه متمتما ببعض كلمات من فرنسية عرجاء مستقلا جهل صاحبه بالفرنسية ، واذ ذاك استغرق صاحبه في ضحكات ساخرة من ذلك الذي يجهل لغة آبائه واجداده ثم هو يدل عليه بما يعرف من لغة الغير او ثقافته .

فمشكلتنا في الحقيقة هي مشكلة الرواسب الاستعمارية الفكرية قبل ان تكون مشكلة الثقافة نفسها ، ولذا فعندي انه ينبغي الا يسمح بالاتصال بالثقافات الاجنبية الا للراشدين فكريا الذين يستطيعون ان يحكموا عقولهم ازاء ما يتناولون من ثقافة الغير ، اما الذين يجهلون قيمة ما لدينا من تراث ثقافي فان الخطر كل الخطر في ان يفتحوا عيونهم باديء ذي بدء على ثقافة اجنبية ايا ما كانت منزلة تلك الثقافة ، لان النتيجة المحتومة هي ان تتوافر لدينا جماعات من الشباب تتنكر لتراثنا الفكري عن جهل به ، وتحارب مقوماتنا طبقا لما تلقنته من اولئك الذين نصبوا انفسهم منذ قرون للقضاء على ثقافتنا وعلى مقدساتنا ثم طمس كل ما يستدل منه على اننا امة قد اشاعت الحضارة يوم ان كان العالم اجمع يغط في سبات عميق من الجهالة الجاهلة ومن الانحراف المعوج ، اننا لانهدف الى ان نغلق علينا مجتمعنا فنكون بمعزل عن التيارات الثقافية المختلفة لا ناخذ منها ولا نفيد من جوانب الخير فيها .. كلا ، بل نريد ان نفتح عيوننا جيدا ونتناول ما نتناول بحذر كبير .. فالكنيسة الكاثوليكية مثلا تشرف اشرافا يكاد يكون مباشرا على توجيه الثقافة في كل دول اوربا او معظمها اليوم ، وليس من شك في ان ثقافة كنسية كهذه ليست مما يلائمنا كأمة مسلمة وبالتالي ليست مما نحتاج اليه ، ومن ثم كان على قاريء هذه الثقافة ان يقراها وهو متيقظ لما تشتمل عليه العبارات والكلمات من مطاعن على الاسلام قد لاتكون صريحة في كثير من الحالات وانما يحتاج ادراكها الى شيء كبير من الروية واعمال الفكر لان الدافع الذي حدا بالشعوب المسيحية أن تشن على الاسلام والمسلمين حروبا صليبية في الماضي ما يزال قائما وان تكن الحرب قد اتخذت لها ميدانا آخر ومظهرا آخر كذلك .. اقول هذا بعد ان فرغت من قراءة كتاب بعنوان (الرجل والمراة) للكاتب الاسباني (خوسي ماديا كابوديفيا) والكتاب دراسة حول الزواج والحب الانساني كما انه ضمن مجموعة الكتب التي تشرف عليها الكنيسة في اسبانيا اشرافا مباشرا ، هذا وقاريء الكتاب يستطيع ان يتبين بين صفحاته مطاعن على بعض جوانب الشريعة الاسلامية ولا سيما فيما يتصل بتعدد الزوجات وبالطلاق ولن تجد هذا صراحة في الكتاب ولكنك تستطيع ان تصل اليه من فحوى العبارات ومن الحديث عن الرابطة الالهية التي تربط بين المراة والرجل ولا يمكن الانسان حلها على حد تعبير المؤلف ، هذا وكثير من الكتب غيره تلقى الينا باسم الثقافة وهي في نفس الوقت جزء من حملة مدبرة منظمة ضد الاسلام وتعاليمه .

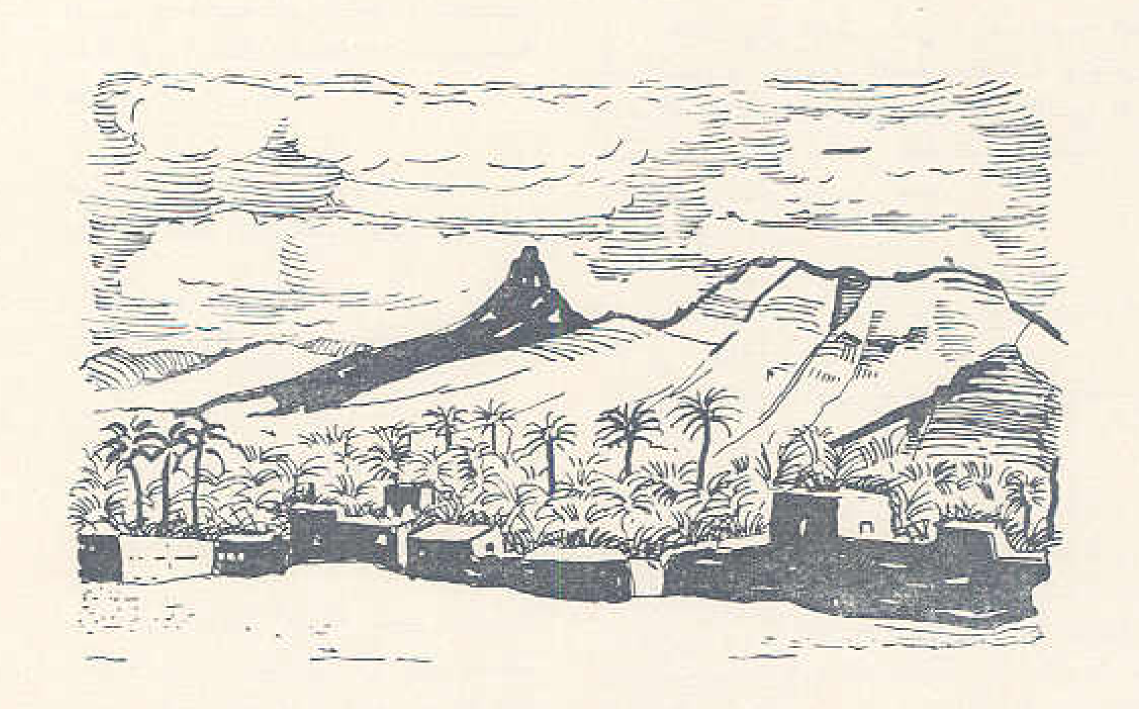
وبعد فما الثقافة التي نحتاج اليها ؟ ان الثقافة التي نحتاج اليها هي كل ثقافة لا تتعارض والمباديء الاسلامية السامية هي الثقافة التي تبني المجتمع على اساس من الحب المتبادل ونكران الذات والتعاون بين افراد الامة على اساس تكافيء الفرص للجميع وليس

على اساس سيطرة راس المال بل على اساس المساواة التامة بين الجميـــع .

والثقافة التي نحتاج اليها كذلك هي الثقافـة التي تحمي مقوماتنا الخلقية وتسمـو بالفضيلـة ولا تنظر الى المراة على انها متـاع فقـط ثم هي تنسـى الحدود المشروعة وتتعدى المباديء الثابتة ، والثقافة التي نحتاج اليها هي التـي تمنحنـا القـدرة على ان ننتقد ولا نجرح ونعرف ما يجب ان يعرف ونسايـر ركب الحضارة الزاحف ونكـون اعضـاء عامليـن فى مجتمع حر متطور يسوده الامـن ويحكمـه النظـام وتقوم فيه المحبة مقام القانون .

ونحن نحتاج من الثقافة كذلك الى ما يجعلنـا نؤمن بان المعرفة بحر لاتحده شواطيء ، وان الغـرور وليد الجهل وان اعتماد الانسان على غيـر مواهبـه سفاهة وعجز ، وان التماس الامور بغيـر وسائلهـا الطبيعـية لحاجة لامعنى لها ، نحن فى حاجة الى كـل ثقافة تخلق منا امة قوية تذود عن حقوقها وتحمـي ارضـها وتقف على قدم المساواة مـع كافـة شعـوب الارض فـلا تهن عن ذلـة ، ولا تخضع عن مسكنة ، تاخذ حقوقها ولا تستجديها وتعتنق مبدا التسامـح مختـارة لا مكرهـة . . .

هـذه هي الثقافـة التي نحتـاج اليهـا نحـن كمسلمين . . نحتاج اليها على انها جزء من تعاليمنـا ثم على انهـا وسيلـة تقـوم عليها نهضتنا الحضارية التي ناخذ باسبابها لتصل ماضينا بحاضـرنا ، ولنبني عليها اسـس مستقبلنا كامة عريقـة ترعـى امجادهـا وتحمـي مقدساتهـا .



خواطر حول انتاجنا الادبي

للاستاذ عبد الله الجراري

كل من درس تاريخ المغرب لا سيما القرنين الاخيرين التاسع عشر والعشرين ـ يدرك لا محالة مدى المراحل التي قطعها الادب ، والادوار التي لعبها الادباء على اختلاف مشاربهم والوان مستوياتهم نثرا وشعرا ـ فيجدهم قد تناولوا النوع القومي من الشعر الذي كان يفيض ايمانا وروحا حماسيا يذكي فى قارئه مبدا المقاومة ، وتهييء النفس للمستقبل والاستعداد للطواريء التي اخذت سحبها تدنو من اجوائهم مطلة على الحدود فى قرب يحتم على الاديب الحر ان يرفع القلم ويقولها مدوية نافذة الى قلب الشعب الذي لايلبث ان ينتفض مستجيبا لرسالة الادب مؤمنا بمبادئها القائمة على الحق والصدق ، رافعا راية المعركة التي خاضها ابطال القول كالوزير ابى عبد الله بن ادريس فى داليته التي انفجرت عنها شاعريته المتمكنة يوم احتلال تلمسان الشقيقة المجاهدة فقالها صرخة من الاعماق :

ياساكن الغرب الجهاد الجهاد
فالكفر قد شارككم في البلاد

ويا اباة الضيم هل نهضة
تسربل الكفر ثياب الحداد

الى ان قال :

تذكروا وقعة اندلس
وابصروا منها سبيل الرشاد

وعلى غرار هذه الدالية الطويلة النفس المطبوعة بطابع القوة والملهبة صدور المومنين من ابناء الشعب الاباة نسج ابو عبد الله محمد غريط فى نونيته ذات المطلع :

مالي ارى جفن اهل الغرب وسنانا
من بعد ما اخذ الروم تلمسانا

الى ان يقول :

لا عذر للمسلمين في التكاسل عن
جهاده حسبة منهم وايمانا

ان تنصروا الله ينصركم فلا تهنوا
ولتخلعوا فى ابتغاء النوم ارسانا

بيعوا نفوسكم واغزوا عدوكم
كفى بصفقة من لم يغز خسرانا

هكذا نرى الادب يشق طريقه نحو الحقيقة التي يحتويها مضمون كلمته الخفيفة فيقوم باداء الرسالة حسب الدواعي والبواعث التي تفرضها الظروف عليه فى شتى المقامات والمناسبات بطولة وعاطفة ووصفا ومدحا وهجاء .

وما اخال هذه البواعث التي تحرك من الاديب كوامن الاندفاع نحو القول والابداع فى فنونه الانشائية الا عن تشجيع دولي ، او اقبال من قراء الشعب المتحمس لجذوة القول الصادق ، او ولوع نفساني ، او انتقام يتجلى فى شعر الهجاء خاصة .

وطبعا يجد الاديب ابن ادريس والمغرب آنذاك حر مستقل ـ من مخدومه المولى عبد الرحمن محركا للقول ودافعا للتعبير عن احساسات الدولة والشعب المتشبعين بروح التضحية والحرية والانطلاق حيث لا تتسع صدورهما للاستغلال والاختناق ـ كما يجد بعده الاديب العربي المشرقي دافعا نفسانيا للهجاء المقذع فيرسلها قنبرة لاذعة فى صدر القاضي العراقي

وقد يعلم الله سبب تلك الرائية المنبعثة من اعماق قلب لتنفجر فى قلب . وقبل نجد الكاتب المؤرخ ابا القاسم الزياني يكتب مقامة كلها بذاء وفحش صوب سهامها لاحد معاصريه من ابناء البيوتات الفاسية انتقاما منه لشيء شخصي تافه يتحاشى عنه امثال الزياني ــ الكاتب الخطير فى الدولة .

نعم ينفق هذا الانتاج المليء اقذاعا وسخطا فى بساط تهيأ عشاقه للتشفي قائلين : « لم آمر بها ولم تسؤني » ثم ما دالية شاعر الحمراء المرحوم ابن ابراهيم فى المطعم البلدي بطنجة ببعيدة عن اذهان قرائه ، الدالية التي رمى بها قذيفة دوت فى جنبات النزل فضعضعت اركانه وزلزلت انتعاشه واقتصاده حالة كاد يشرف معها على الاصباح فى خبر كان تاثرا من قوة قذيفته الحادة .

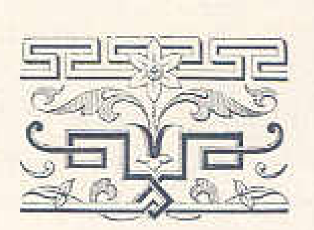
فكانت هذه وما اليها من مجالس ادبية واندية علمية يعقدها الادباء دوريا من آن لآخر فى مقدمة بواعث النهضة الادبية بالمغرب يجري اغلبها فى فن المساجلات والمطارحات المذكية روح التنافس والبحث فى مضامين الادب الرفيع والكشف عن ينابيع ثروته الشالية رغبة فى رفع مستواهم الثقافي ، واحاطته باطار الدقة والتمكن والخروج بمدرسته من مضيق الاعتزالية الخانقة الى ساحة الانطلاق والتفتح، والعيش بين افانين روضته اليانعة ، واظنني لست فى حاجة الى تسمية بعض هذه الاندية والتعرض لمن كان يحضرها من الكتاب والادباء ولا لشيء من انتاجهم الذي كان كثمرة من مجالسها لا زالت لذاذتها تعاود من ساعدهم الحظ بالمشاركة فى خواتمها ، غير انه ويا للاسف لم يقدر لتلك النهضة ان تعيش وتترعرع فى احضان مجالسها المثالية بل كبتت لوجهها فغمرتها موجة الاحتلال واقبر معالمها الاستعمار الفرنسي الغاشم واخمد فورتها الفكرية وضرب عليها حصارا سميكا خنق انفاسها ، واوقف نشاطها واوغر فى صدر حركتها رعبا شتت انديتها ، وباعد ما بينها وبين افرادها فتفرقوا على ابراجهم متعلقين بأهداب الانفرادية التي قل ان تنتج واذا قدر لها ذلك فانتاج لا تستسيغه افكار جمهرة الكتاب والادباء حيث يكون من النوع الهزيل البعيد عن الاشعاع المشرق والمنبعث عن الاخذ والرد واعمال البحث المشاع بين آراء واذهان تبدع لا محالة انتاجا يتلاءم والحياة الانسانية المتجددة ، اضف الى هذا ما نشأ عن هذا الكبت فى صفوف الادباء الناشئين من افكار بالية قامت على ساق الاوهام والخرافات ــ وان الادب فن لا يدخل فى عريق المعرفة وجذورها ، حسبه انه فن يتلهى به كل شخص عضه الدهر بنابه ، وركعت به عواصف الزمن ، وتناولته الفلكة فيمن تناولته حتى قيل « فلان ادركته حرفة الادب » الى هذا الحد يصل الادب عند المائعين ممن جفت قرائحهم ، وتحجرت اذهانهم ، وبعدوا عن مضمون الادب الحق ــ فانثالوا عليه انثيالا يكيلون له انواع الحط والرمي بكل ما يمكن ان يصبح معه ذريعة تفت فى عضد الناشئين الذين انبتهم العصر ، وهيأهم بجبلة النشأة الاولى وشرخ الشباب الرطيب لينغمروا فى زمرة الادباء ويحتكوا بفنية الادب فى جدته وطراوته ــ

هكذا نرى هذه الفكرة تتسع فى اذهان المجموع من انصاف المثقفين او ارباعهم فيضعون الادب وفنونه الاساسية على الهامش جهلا منهم بأصوله التي فرعها رجال الثقافة من الاول ــ الى اثني عشر فرعا ، فى مقدمتها علوم البلاغة واللغة والتاريخ وهي بطبيعتها من العلوم الانسانية الكفيلة بتلقيح الافكار وتلطيف العواطف وتجويد الراي ــ فكرة اعان على بثها الاستعمار ، وسعى فى نشرها بشتى وسائله المخزية ، فصادفت عقولا خرفة وخيمت فى خلاياها الفارغة ، وعاد الادب فى نظر هذه الطائفة المائعة حديث خرافة ، واحاجي مسلية يتفكه بها كل من اتسع فكره للمضللين والمحاربين للغة الضاد والعروبة ومقاومة ابناء الثقافة العربية الذين هيأهم القدر للحفاظ على تراثها الادبي الخالد ، والعمل على صيانته ولو من اعلى ابراج عاجية وفوق شرفات انعزالية ، فليهمس التاريخ فى ءاذان هؤلاء العملاء والمغرورين ممن عملت دعاية الهدم فى نفوسهم ووجدت منفذا للتسرب الى ادمغتهم فتنكروا للعروبة وآثارها ، واصبحوا معاول هدامة فى يد الاستعمار يسخرها فى اغراضه ويستخدمها فى مناواة القومات الاسلامية ، وتحطيم قيمها الثابتة ــ انهم لا محالة آئبون بالفشل الذريع والخزي المردي ، وياليت شعري لو منحت افكارهم ادنى اشعاع لادركوا من بعيد ما يحاك لهم انفسهم ولآدابهم فى العلن والخفاء من مكايد وشرور تنذر بتقويض معنوياتهم ، وتنغيص حياتهم ، والتطويح بهم فى مهاوي التنكر لقومياتهم العربية ، والرمي بها نهائيا فى احضان العجمة التي لاتنفك تناصب العداء لهم وللغتهم ، والعمل باقوى الجهود لتشويهها ، وطمس معالمها ؛ وليشهد التاريخ الامين كذلك لا فتا نظر هذه الفئة الطائشة او الجاهلة ان شئت ان بعض

ائمة الاسلام كابي عبد الله الشافعي عكف على دراسة الادب قرابة عشرين سنة يتصفح فنونه ويتعمق اسراره متلمسا من بين سطوره ما تهدف اليه فنيته الانسانية وترمي اليه طاقته الحيوية فى عالم الروح والسلوك جميعا مع ما يضفيه من قدرات علمية على الابتكار والتصوير لما يجول فى خلجات الضمير ، ويدور فى قرارة النفس من ترتيبات وافكار لا يقوى على مصاولتها الا من طبعت نفسه على الادب الحر . وحذق فنون القول على اختلاف افانينها والوانها ـ ولو لم يكن من حجة لاصالة الادب وعراقته الفنية الا هذه العناية من امام فذ فى امة الاسلام ـ لكان كافيا فى خلود الفن ، ووجود ذاتيته فى الحقل الثقافي المغدق ؛ لذا كان كل ما المعنا له من كم الافواه ، وخنق الحريات ، وحظر الاندية والاجتماعات ايا كان نوعها ، والاستهتار بالفنون خاصة الادب الذي تمرد على ارومته ادعياء المعرفة ، والصق الهزيليون بفنيته ما الصقوا من خرافات كانت حجر عثرة فى تقدم دولته ، وركود نهضته ، والوقوف عقبة كاداء فى طريقه ـ مما سبب فقرا مدقعا فى الانتاج الادبي ـ وعكر جو حتى من ساعدته كفاءته الفنية على الانتاج حسب قدرته على القول ـ فاعترض طريقه نقد مر انقبع من اجله فى زوايا الانعزال متندما على الظهور فى ميدان القول ، ومتحسرا على المشاركة بقلمه فى حلبة الادب المشاعة ، والمبنية فى نفس الواقع على نوعية المشكك الذي تتفاوت الوانه اسلوبا وتفكيرا ، فكان اذا على الناقد ان يؤمن بهذه الحقيقة ، ويضع نصب عينيه الوسط الذي تاثر به الكاتب والمحيط الذي عاشه الاديب المغامر ؛ وعلى ضوء ذلك يصوب سهام نقده كحاكم لا نراه يعدو جوهر الحقيقة ، ومقياس الواقع اللذين يجعلان من المنتقد (بالفتح) رجلا مؤمنا بالواقعية البعيدة عن التاثر .

ونظري ان مجهودا فرديا كهذا (لاسيما فى التاليف والكتاب) مع ندرة المنتجين يجب ان يقابل بالتحبيذ والتشجيع واتساع الصدور لحقبة محدودة يتتابع فيها الانتاج وتفرز بضاعته وعندئذ يشعر المنتجون انفسهم بالحاجة الى رفع مستواهم الكتابي تحريرا وترتيبا وتركيزا للموضوعية ـ ومن تلقاء انفسهم يخرجون من مضيق الاسفاف وتتكيف اقلامهم بالوان براقة ترتفع فى اسلوبها الى اوج الجدة، ووضع المعاني فى قالب فني يصور ماتحسه الاعماق من جمال ، وتشعر به النفس من رائع الاخيلة الراقصة فى قرارة الضمير .

واذ تنبثق هذه الظاهرة فى الاديب المتخلف ـ يكفي بالطبع عن كل ما وجه او يوجه اليه من سهام مؤلمة قد تكون سببا قاسيا فى انطوائه على نفسه وانزوائه فى غرفته قابعا منكمشا .



دقات الساعة

مسرحية في فصل واحد

للاستاذ
عبد القادر المقدم

المنظر حجرة صغيرة تقع فى وسط حديقة انتثرت فى مختلف انحائها شجيرات .. وفى جانبها من ناحية المدخل حظيرة الحمام – الوقت صباح مبكر – الاشخاص .. ماح وهو فتى فى ريعان الشباب قضى سنوات فى التعليم ثم اخذ يكرع من معين الحياة ولم يلبث ان استفاق من غشيته على صراخ ضميره فاذا بـه يغير وجهته فى الحياة ونظره الى الاشياء .

اما زكية فهي شقيقته وهي فتاة وديعة تبالغ فى العناية بشؤون شقيقها وتعلق على مستقبله آمالا عظاما .

❋ ❋ ❋

(حركة ساعة كبيرة)

هي – الا تزال تعتزم تلبية الدعوة ؟

هو – (يفكر قليلا ثم يجيب) لا مانع من ذلك .

هي – ولكني اراك فى هذا الصباح على خلاف العادة التي عهدتك عليها فى سائر الايام

هو – (متسائلا) أي عادة ؟

هي – ان تبادر الى حماماتك تنثر لها نصيبا من الحبوب فتتاطاير من حواليك ترتل تحيات الصباح فى وداعتها المعهودة .. حتى اذا ما اذنت لها بالتحليق حومت فوق اشجار الحديقة ثم سبحت فى فضاء الرياض المجاورة لضيعتنا ..

وكم يحلو لي ان ارقب هذه الساعة المبكرة لاشهد هذا المنظر الرائع الذي يسوده جو من الانسجام والتفاهم بين انسان رفيق وطيور مجنحة بشوشة عطوفة ..

هو – آه .. لاتتغير عادة المرء الا اذا طرأ عليها أمر ذو بال .. و و .

هي – (تقاطعه) وهل حدث لك مثل هذا وانت لم تغادر المنزل بعد .

هو – (يتوقف عن الجواب لحظة ثم يقول) على كل حال لست خالي البال كما عهدتني قبل اليوم .

هي – وهل الامر من الخطورة بحيث تحتفظ بسرك .

هو – هو كذلك ..

هي – ولو كنت شقيقتك المخلصة . !

هو – ليست المسألة مسألة اخلاص أو ..

هي – (تقاطعه) او خيانة . !

هو – (فى صلابة ..) لا .. لا ..

هي – انت وما بدا لك .

هو – ومن اللائق الا تتساقي مع الظنون .. غير اني استطيع ان اطمئنك بانني لن اقدم على مغامرة حتى اطمئن على سلامتك ..

هي – وحماماتك .

هو – ما شأنها .

هي – هل تعتزم مقاطعتها منذ اليوم ؟

هو ـ لا .. سأحاول تلقينها عادة جديدة .

هي ـ وكيف تلك ؟

هو ـ اذا ما دقت ساعة اللقاء ولم يتم فانها ستحلق وتحلق ثم تنطلق سابحة حرة طليقة وبهذا ستكتسب عادة جديدة .

هي ـ (تتوقف عن الكلام لحظة ثم تصيح) ها هي ها هي تحوم حول المكان باحثة عنك .. انظر اليها . !

(تصفق باجنحتها وهي تهدل هديلا)

هو ـ ولكنني آخذ في تنفيذ ما قررت ..

هي ـ انها في انتظارك في انتظار دقات الساعة في انتظار لحظة اللقاء .. فهي على ما يظهر تفهم معنى الزمان وتحافظ على الموعد ..

هو ـ جربي منذ اليوم ان تحولي دون سماعها دقات الساعة ..

هي ـ لا يستطيع مخلوق ان يوقف سير الزمان ..

هو ـ انت محقة فيما تقولين . أنا شخصيا اشعر بدبيب الزمان يتمشى في كياني .. واكون احيانا في غمرات الانشراح واشعر بعقرب الزمن تلتهم ساعتي الهنيئة .. فلا البث ان اشرف على نهايتها .. وهي سريعة الانقضاء..

هي ـ ان دقات الساعة تهدد كل شيء بالانتهاء . واشد الناس اشفاقا منها على ما اظن اولئك الذين يحسبون للزمان حسابه ويقدرون العواقب حق قدرها ..

هو ـ اخشى ان تدق الساعة قبل ان اتاهب للموعد المقترب .

هي ـ ومتى هو ؟

هو ـ هو قريب قريب جدا . !

هي ـ الا تلبس بذلتك الجديدة اذا كان لذلك موجب .

هو ـ ارجو ان تمدي لي الحقيبة ، واجعلي فيها البذلة وبعض الاقمصة وما يليق بها من اربطة الرقبة .. واحرصي على أن تستمر حالة البيت طبيعية من غير ان يطرأ عليها ما يشوش بالي ..

هي ـ انت اذن على اهبة السفر ؟

هو ـ ان شاء الله .

هي ـ لم تحسن مفاجاتي في هذه المرة ..

هو ـ يبدو انك تمانعين في سفري .. وهذا ما توقعته سلفا .. ولا احسبك الا مشجعتي على تلبية الدعوة . اليس كذلك ؟

هي ـ بلى انني فاعلة ذلك اذا كان للدعوة موجب :

هي ـ قد يهون على الامر اذا كان هذا الموجب مشرفا .. والا كان عبثا واغفر لي هذا التدخل فانما اريد تبصرتك بالعاقبة وليس من اللياقة ان القنك مبادىء الجبن ولكن الوقت يتطلب من المرء أن يتزن في خطاه والا يبرم ما يعسر نقضه عند اللزوم .

هو ـ قبيل دقات الساعة اعلن لك سري واود أن اوصيك خيرا بنفسك أولا ، ثم بالبيت ثانيا ، ابذلي قصارى جهدك في أن تعطي لحماماتنا فرصة كي تكتسب عادة التحليق في الفضاء ، ولا تدخري وسعا في ان تحولي دون سماعها دقات الساعة فانها تذكرها لحظة اللقاء حتى لا ترسل هديلها حنينا والتياعا ..

هي ـ وهل تلومها اذا فعلت ؟

هو ـ اخشى ان يتسرب الى قلبي ذلك ، فتخور عزيمتي فيما انا ماض اليه . وانت أدرى بعواقب الخور في ميدان الواجب .

هي ـ اذا ابيت الا ان افعل فما يمنعني غير شيء واحد وهو عجزي عن ايقاف عجلة الزمان عن المضي في سبيلها .. فهمت ؟

هو ـ نعم .. نعم .. (في حنان) شجعيني ما تستطيعين الى ذلك سبيلا .

هي ـ وهل ترى ان واجبي انا يقف عند هذا الحد ؟

هو ـ كل له واجب ينتظره . فليتريث حتى تدق ساعته .. كما ستسمعين عما قريب دقات ساعة واجبي انا ! .

هي ـ (تضع يدها على قلبها متأثرة من الموقف) لم أعتد قبل اليوم ان اجزع لدقات الساعة.. قلبي يخفق خفقانا .. انها لحظة رهيبة .. ولعل للحديث الذي دار بيننا في موضوع الزمن والساعة اثر في هذا الجزع .. ولكن لامناص من التشجيع ..

هو ـ وهذا قلبي بدوره يختلج في صدري اختلاجا شديدا ارجوك الا تستمري في الحديث عن الساعة ..

(فترة صمت .. تسمع حركة عقرب الساعة)

هي ـ انها تقترب .. (في تأثر) الا تبوح لي بسرك قبيل الساعة .. الى اين ؟ . الى اين ؟ .

هو ـ الى تلبية نداء الواجب .. الواجب المشرف.. الى التعبئة العامة .. الى نصرة الحق .

(دقات الساعة ..)

هما معا ـ دقت الساعة .. دقت الساعة ..

(الحمام يرفرف بأجنحته .. ويرسل هديلا مؤثرا مشجيا)

هي ـ الى اللقاء يا ماحي .. الى اللقاء هنا او هناك ..

هو ـ الى اللقاء القريب ان شاء الله ..

(محرك السيارة ...)

ستار



مناقشات

حول قصيدة: إننا أخوان

تعليق للأستاذ محمد الحلوي

انتاج الاديب نبضات قلبه وعصارة فكره وقصائده بناته اللاتي يوزع الحب بينهن على السواء فليست احداهن عنده باثر من الاخرى ، وكما يحمي الوالد بناته ويصد عنهن كل يد عادية فكذلك يثار الشاعر لكرائمه ويحميها من كل اعتداء وتشويه ... من اجل هذا احببت ان افتح هذا الحساب مع الشاعر التواتي مع التاكيد بانه ليس بيني وبين هذا الصديق ما يستوجب تحقيقا ولا محاسبة ، وانما هي حرفة الادب ـ عافاك الله ـ وهواية الشعر التي جمعت بيننا (على رغم انفنا) قد تخلق لاصحابها احيانا بعض المتاعب عن قصد او غير قصد .. وقد كان في وسع الاخ الشاعر ان يحترم نفسه ويصون للادب ذمامه وحرمته فيعفينا من هذا النقاش او الحساب ، اما وقد فعلها فالظن به انه لن يضعف عن تحمل النتائج مهما بلغت مرارتها وقسوتها .

تسلمت من موزع البريد العدد الاخير من هذه المجلة ، ولم امض في تصفح مقالاته وقصائده حتى وقعت عيني في الديوان على قصيدة للشاعر التواتي يوجهها كنداء الى الذين يريقون دماءهم من غير وعي دفاعا عن الاباطيل والاوهام فشدهت واتهمت عقلي وعيني ، فهل هي حقا قصيدة للشاعر التواتي تنشرها له دعوة الحق ؟ ام هي قصيدتي تعيد المجلة نشرها لمناسبة ؟

هذه هي القصة فما وراء هذه القصة من سر ؟.

ان السر يعرفه الشاعر التواتي نفسه ، ويعرفه القراء الذين يتتبعون الشعر في ديوان هذه المجلة ؛ فقد سبق ان نشرت في هذا الديوان قصيدة تحمل اسم (نداء) وكان ذلك في شهر نونبر 1957 وفي العدد الرابع والخامس والمجلة في سنتها الاولى ...

وكانت حقا من الشعر الانساني الرقيق ومن احب قصائدي الى نفسي والى الذين اسعدني الحظ بهم وقراوها فاشتركوا معي في هذا الاحساس ، وتنسلخ اربع سنوات على نشر هذه القصيدة فينساها الكثير ولا يذكرونها الا اليوم اي بعد ان طلع عليهم التواتي بقصيدة اننا اخوان ولقد رايت اتفاقا اخوانا هنا وفي الرباط سالوني عن القصيدة واستغربوا اعادة نشرها وقد سبق لهم ان قراوها ونسوا صاحبها فابتسمت وفهموا ان وراء القصة سرا .. لست احب ان اطيل فقد ابتدات قصيدتي (نداء) هكذا :

يا اخي نحن في الحياة على رغم هوانا واننا اخوان
فعلى ما نعيش في هذه الدنيا ذئابا في صورة الانسان ؟
نتساقى كاس الصداقة والحب بايد مضرجات البنان

وفي منتهى البساطة والاستخفاف يتصرف التواتي في مطلع القصيد فيغير على كلماته ويغير قليلا من اوضاعه فيستعمل انني وانت مكان (نحن) ، ويستعمل الدنى بدلا عن الحياة ويبدع فياتي من عنده بكلمة الديانات جديدة طريفة كانما يحاول باقحامها مغالطة نفسه ومغالطة الواقع فيقول :

يا اخي انني وانت على رغم الديانات في الدنى اخوان

ولا يبتعد الا قليلا حتى يضع البيت نفسه صدرا لمقطعه الرابع بقليل من التحوير فقط فيقول :

يا اخي انني وانت على رغم هوانا واننا اخوان
وحدت بيننا المصائر والاقدار مذ كنا في ضمير الزمان

ويمضي التواتي مترسما معاني القصيدة متتبعا لقوافيها في كل بيت يحورها ما استطاع ويمطط منها

ما كان ايماءة مختصرة ، ويسهب فيما قصدت فيه ان يكون لمحة دالة ، فقد تساءلت فى (نداء) مستعملا اسلوب الاستفهام فى هذه الابيات :

لم نحيا على اختلاف ونسعى فى افتراق كاننا ضدان ؟
لم نذكي اجيج نار فنصلاها كانا من عابدي النيران ؟
ولماذا نهيج شوقا الى الحرب نعاني من نارها ما نعاني؟
لم نبني ونحن نهدم جنات من الفن رائعات البيان ؟

وفى نفس هذه المعاني ووراء هذا الاسلوب ينساق التواتي بوعي او بدون وعي فيقول :

فلماذا اخي تنكر قلبانا لما وطدت يد الرحمان ؟
ولماذا ندوس فى فورة الجهل تماثيل حبنا الفينان ؟
ولماذا اخي نحطم باليأس دنانا كاننا بالسان ؟

وعندما يسمو ويبدع الاخ التواتي مبتعدا عن الاحتذاء والاستيحاء يكفر بالمباديء والقيم المثلى التي يقدسها الانسان اي انه يهدم الجانب الروحي الذي يسمو بالانسان عن البهيمية فيزعم الناس ولنفسه انها الفاظ بلا روح واتها كلمات جوفاء اصطنعها الانسان لخداع اخيه الانسان ، اما القوميات والدساتير والقوانين التي وصلت اليها عبقرية الانسان لحماية المجموعة المتساكنة على هذه الارض فهي فى راي شاعرنا التواتي من وضع عابدي الاوثان ليس غير

«المباديء واللون والجنس الفاظ بلا روح او بدون معان
والقوميات والدساتير والاعراف من وضع عابدي الاوثان»

لا لا ياخانا التواتي ان اي عربي يعتز بالقومية العربية ويفخر بها لن يسمح لك بحال ومن اجل بيت من الشعر ان تجعله من عبدة الطاغوت والاوثان ، وان اصغر رجل من رجالات القانون وواضعي الدساتير لن يرضى له علمه وعقله المتفتح ان تؤلهه او يستعبده وثن اعمى ، وقد نسلم لك هذا فى النزعة الى الالوان والاجناس ، اما المباديء التي آمن بها الانسان والقوميات التي اعتز بها وناضل عنها والدساتير التي احتكم اليها فهي ليست من وضع عابدي الاوثان وساكني الغاب والادغال ... ومن التناقض الغريب ان يتحدث التواتي للمستمعين عن القومية وعناصرها : اللغة والتاريخ والدين على امواج اذاعة فاس حديث المومن بها والمناضل عنها وهو الذي يقول عنها فى (قصيدته) انها خرافة من خرافات الانسان ومن وضع الهمج وعابدي الاوثان .

لقد حلا للاخ التواتي ان ينظم شعرا يهيب فيه بالانسانية لتسترجع صوابها ووعيها ، فاهتدى آليا الى البحر الذي نظمت فيه قصيدتي والى الروي الذي بنيتها عليه والى شكلها ومضمونها والهم اخيرا من غير ان يشعر بعض ابياتها ، فهل يستطيع الشاعر بعد هذا ان يؤكد انه لم يقرا قط قصيدتي نداء ؟ وهل يستطيع القول بان كل ما فعله كان من توارد الخواطر ووقع الحافر على الحافر كما يقول الاقدمون ؟

احسن الظن ان التواتي احتال لفتح شهيته للنظم فقرا (نداء) وقرا غيرها ثم انخرط فى صوغ خواطره وافكاره ولما يتخلص من آثار ما قراه فانعكست على شعره ظلال وانطباعات لم يتفطن الى انها طارئة عليه وغريبة عنه ، ومن اجل هذا المعنى لم يجز خلف الاحمر لتلميذه ابي نواس بعد ان حفظ آلاف الابيات لغيره من الشعراء ان يبدا هو فى النظم الا بعد ان ينسى كل ما حفظه اي بعد ان يتخلص من شخصيات الشعراء الذين حفظ لهم وتقمص شاعريتهم ، فاذا نظم بعد هذا كان واضح الشخصية مستقل الشاعرية وقديما الحى الناس باللائمة على ابي تمام لانه اغتصب بيتا كاملا لشاعر مدح معبدا صاحب الغناء بقوله :

اجاد طويس والسريجي بعده
وما قصبات السبق الا لمعبد

اخذه ابو تمام فقال :

محاسن اصناف المغنين جمة
وما قصبات السبق الا لمعبد

وعاتبوا ابا نواس لنفس السبب قال معبد :

لهفي على فتية ذل الزمان لهم
فما اصابهم الا بما شاءوا

اخذه ابو نواس فقال :

دارت على فتية ذل الزمان لهم
فما يصيبهم الا بما شاءوا

ولم ينج البحتري مما وقع فيه ابو تمام قال علي بن جبلـــة :

للعيـــد يـوم مـن الايـام منتظـــر
والناس في كـل يـوم منـك في عيـد

اخذه البحتري فقـــال :

كـــل عيـد لـه انقضـاء وكفـى
كـل يـوم مـن جـوده في عيـد

على ان هؤلاء قد يكون لهم عذر فيما ارتكبوه ، فقد يتسرب الى الشاعر ابيات لغيـره يدرجهـا في شعره من غير ان يعي انها لغيره ولكنه على كل حـال لا يجوز ان يتكرر منه ذلك ولا يجوز ان يسير في ظل غيره يتسقط قوافيه ومعانيه . ومن بعيد الاحتمـال ان يكون الاخ التواتي قصد ان يعارض بقصيدتـه (نـداء) فان اوضح شروط المعارضات الادبيـة ان يحتفظ فيها المعارض بشخصيته وذاتيته والا كـان عمله طبعة ثانية للعمل الادبي الذي يعارضه ، وليس على التواتي غضاضة في ان يعارض اي اثر ادبي ، فقد تبلغ المعارضات احيانا من الجمال والقوة ما لم يبلغه الاثر المعارض ، لقـد عارض شوقي البوصيري وابن زيدون وعارض الكثير الحريري في المقامات فكـانت هذه المعارضات في كثير من الاحيان ناجحة وقوية .

فهل كانت قصيدة التواتي معارضة صحيحة متوفرة الشروط ام كانت شيئا آخر غير المعارضة ؟.

لقد اختار التواتي لقصيدته بحرا جميلا هـو بحر الخفيف لانه شاعر محافظ يلتزم تفاعيل الخليل ولكنه مع الاسف كثيرا ما يتعثـر في هذه التفاعيـل يثبت الفاتها اذا كانت لاتثبت ويحذفها اذا وجب لها ان تثبت واحيانا يكسرها كسرا فظيعا يبتعد بها عن اخواتها واني لاستسمحه لاضع امامه كنمـاذج مـن هذا الانحراف الابيات التالية :

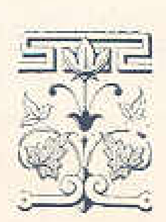
1) والقوميات والدساتير والاعراف من وضع عابدي الاوثان
2) يااخي لم يقاتل البعض منا البعض ظلما كاننا عدوان
3) فلنسـر في طريقنا نحقق في صبر رجاء الحياة في الانسان

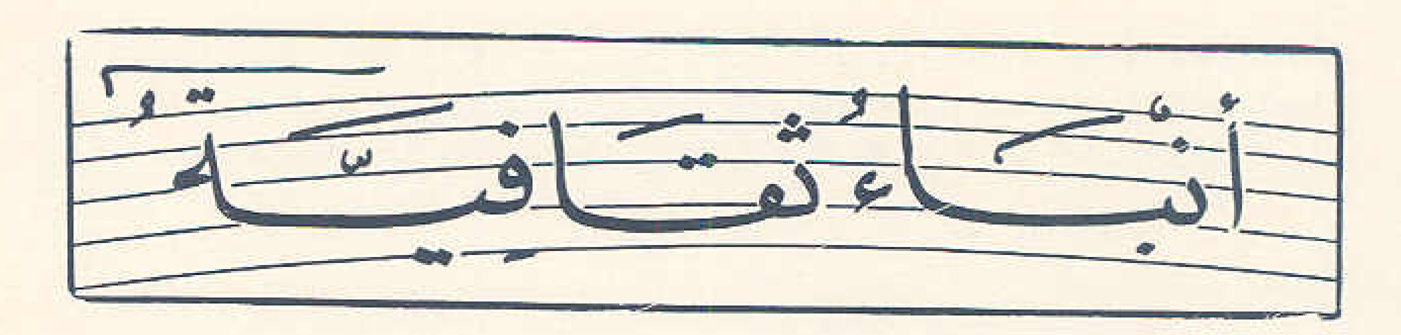
ويتحدث الشاعر عن البسمات ذات الالحـان والرنين المشرق (كذا) فيقول :

وتهادى جمالها الرائـق الاخاذ كل الوجود والنيران

فما هذه النيران المتقدة يا اخـي ؟ واي تناسب بين الجمال الرائق المعجب وبين النيران المحرقـة . افلا يكون اجمل وانسب في لغة الشعر والجمال لـو استعملت مكانها الانـوار والاضـواء ، ثم ما هـــذه الركاكة في الاخاذ كل الوجـود والنيران ، لحــا الله القافية كم تصنع من مضحكات ومبكيـات .

وبعد فاني لست متجنيا على الاخ التواتي ، ولا محتكرا الشعر لنفسي او محرما على احد ان ينظم في بحر نظمت فيه وعلى قافية اخترتهـا ولكنـي اتهم ولقسم حماية الآثار الادبية الكلمة الفاصلة ، وللناس ان يقرأوا ويحكموا ، وعلى الاخ التواتـي ان يتحمـل نتائج الحكم بصبـر واحتمـال .





* قام وفد رسمي يشتمل على نخبة من علماء المغرب بزيارة الاتحاد السوفياتي تحت رئاسة معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الاسلامية الاستاذ علال الفاسي . ودامت هذه الزيارة ما يقرب من شهر عقدوا خلالها ندوات صحفية فى شتى البلدان السوفياتية وكلها تهدف الى التعريف بالمغرب فى جميع تياراته والدفاع عن الجزائر والقضية الموريطانية . وقد سجل الوفد نجاحا كبيرا فى هذه الزيارة . وكان يتالف من السادة العلماء : الحسن بن العباس ، رشيد الدرقاوي ، محمد داود ، محمد بن شقرون ، علي الصقلي من وزارة الخارجية ، محمد برادة مدير ديوان السيد وزير الشؤون الاسلامية .

* اهدت الحكومة السوفياتية الى جلالة الملك الحسن الثاني نسخة من مخطوطة المصحف الكريم الذي يقال عنه انه مكتوب بيد عثمان بن عفان ، وذلك بمناسبة زيارة وفد علماء المغرب الى روسيا . وقد اهدى هذه المخطوطة النادرة لينين الى ولاية طشقند عندما انضمت الى الاتحاد السوفياتي ، وتعد هذه النسخة هي الاولى من نوعها التي اخذت عن الاصل ، وهي مكتوبة بخط كوفي ، وتزن ما يقرب من عشرين كيلو ، ويلاحظ عليها آثار دماء الخليفة المذكور ، ويوجد خلاف بين العلماء والبحاث والمحققين فيما اذا كانت هذه المخطوطة مكتوبة بخط يد عثمان بن عفان ام لا ؟ .

* سافر وفد من اتحاد ادباء المغرب العربي مكون من السادة : الدكتور محمد عزيز الحبابي ، ومولود معمري ، ومحمد الصباغ ، ومحمد برادة ، الى روما لتمثيل المغرب فى مؤتمر ادبي هناك ، عقد من 14 الى 21 من اكتوبر . حضرته وفود من جميع الاقطار العربية ، وبعض الاقطار الاوربية ، وكان موضوع المؤتمر (الثقافة العربية ازاء الحضارة الغربية) .

* كان من جملة ضحايا كارثة الطائرة التي سقطت فى الرباط اخيرا المرحوم الشاعر مصطفى المعداوي الذي طار الى بروكسيل لتمثيل اتحاد ادباء المغرب العربي فى المؤتمر الشعري العالمي الذي عقد هناك . رحم الله الفقيد ، واسكنه فسيح جناته ، وتعزيتنا الحارة لمقدريه واصدقائه وذويه .

* عقد فى الرباط فى منتصف الشهر الماضي المؤتمر الخامس عشر للجمعية الدولية للسينما العلمية دعت اليه وزارة الانباء والسياحة والفنون الجميلة . ولاول مرة ينعقد هذا المؤتمر فى بلد افريقي .

* عقد باكرا فى منتصف الشهر الماضي مؤتمر الاذاعات الافريقية . وقد شارك فيه وفد عن المغرب ، الا انه انسحب احتجاجا على قبول موريطانيا فى عضويته .

* يعد الكاتب المعروف محمد يوسف مقلد كتابا دراسيا عن « شعراء موريطانيا » ستتولى نشره « مكتبة الوحدة » بالدار البيضاء .

* ستشرف منظمة اليونيسكو على انشاء معهد للدراسات الادارية والاجتماعية ومعهد آخر للدراسات العليا بالمغرب . وسيتم تحقيق هذين المشروعين فى سنة 1962 .

* عقد بكلية العلوم بالرباط اول مؤتمر للاتحاد العام لطلبة افريقيا السوداء تحت شعار « الكفاح ضد الاستعمار » .

* وافقت وزارة التهذيب الوطني المغربية على اقتراح العراق الخاص بانشاء معهد عال فى الرباط لاعداد اساتذة للمدارس الثانوية .

* وافقت حلقة تيسير تداول الكتاب العربي على اقتراح قدمه وفد المغرب يقضي بتوصية الامانة العامة لجامعة الدول العربية بتخصيص جائزتين سنويتين لاحسن كتابين يصدران بالعربية في العلوم والآداب تشجيعا للادباء على اختيار الموضوعات التي تهم العالم العربي في الوقت الحاضر .

* حضر المغرب لاول مرة في المؤتمر العالمي الكشفي الذي عقد في اواخر شهر شتمبر في عاصمة البرتغال.

*** نوهت مجلة ((الاديب)) اللبنانية في عددها الصادر في شهر شتمبر بمجلة ((دعوة الحق)) والمجهودات التي تقوم بها في سبيل نهضة فكرية في المغرب .**

* تمت الحملة التي قامت بها وزارة التهذيب الوطني خلال الصيف الماضي ببناء الف وستمائة وخمسين فصلا .

* جاء في احصاء وزارة التهذيب الوطني حول تسجيل التلاميذ في هذه السنة الدراسية ما ياتي :

300 الف في المدارس الابتدائية

15 الف في الثانوي

20 الف في التعليم التقني .

* اشترك المغرب بالاضافة الى دول افريقية وآسيوية واميركية اخرى في تدريب دولي للدراسات حول دور التليفزيون في الميدان التربوي . وقد جرى هذا التدريب من ثامن اكتوبر الى الثاني عشر منه في جامعة بوردوي بولاية انديانا الاميركية .

* زار المغرب مؤخرا العالم السينغالي الشيخ ابراهيم نياس ، وقضى فيه بضعة أيام متنقلا في أهم مدنه .

*** صدر في لبنان للاستاذ عبد الكريم غلاب كتاب ((نبضات فكر)) يضم موضوعات ادبية شيقة . نهنيء الاستاذ غلاب ونتمنى لكتابه النجاح والرواج وبعد الصدى .**

*** أصدرت دار الفكر العربي كتابا بعنوان ((تقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذيتهم لاوربا)) لمؤلفه الاستاذ عبد الله بن العباس الجراري .**

* تنتظر الاوساط الفكرية المغربية صدور الطبعة اللبنانية الجديدة لكتاب « النبوغ المغربي » في ثالث شتمبر الماضي بمقر اليونيسكو بباريس .

* شارك المغرب بوفده في المؤتمر الخامس للجمعية الدولية للعلوم السياسية التي عقدت من 26 الى 30 شتمبر الماضي بمقر اليونيسكو بباريس .

*** ستقوم احدى دور النشر ببيروت بطبع كتاب للقاص المغربي المبدع الاستاذ عبد الجبار السحيمي يضم مجموعته القصصية التي كان ينشرها في الصفحات الادبية لجريدة ((العلم)) . نامل أن نقرأ مجموعته القصصية قريبا ، وننعم بها .**

* « القاموس السياسي الديبلوماسي » هو قاموس جديد صدر مؤخرا للاستاذين شكري السكري واحمد مختار ومحمد الخطيب . ويحوي هذا القاموس جميع الكلمات السياسية والديبلوماسية باللغتين العربية والانجليزية .

* تقرر ايفاد 25 مدرسا عربيا في مختلف العلوم للتدريس في مدارس غينيا في هذا الموسم الدراسي .

* عقد بالقاهرة مؤخرا مؤتمر طلاب آسيا وافريقيا .

* يعد المجلس الاعلى للعلوم سبعين بحثا ستصدر في كتاب بالاشتراك مع وزارة التربية القاهرية .

* « الليلة الاخيرة » مجموعة قصصية صدرت بالقاهرة لمؤلفها القاص السوري فاضل السباعي .

* صدر مرسوم يقضي بتعيين الاستاذين محمد فريد ابو حديد والدكتور شكري فيصل في دائرة المعارف الاسلامية بوزارة الاوقاف بالقاهرة .

* صدر للاستاذ ابراهيم المصري كتاب بعنوان « المرأة في حياة العظماء » وذلك في سلسلة « كتاب الهلال » .

* صدر قرار بانشاء كلية للطب البيطري في جامعة اسيوط .

* تاسست في القاهرة « دار مكرم عبيد لحضانة الاطفال » كمصحة للاطفال المعوزين كيفما كان يتمهم .

* يستعد المختصون بجامعة القاهرة في تحضير مشروع لانشاء معهد عال للطب الصناعي .

* اصدر الشاعر عزيز اباظة مسرحية شعرية جديدة بعنوان « قيصر » .

* عقد في الشهر الماضي في القاهرة مؤتمر التربية والتعليم لدراسة الاستعدادات اللازمة لافتتاح العام الدراسي 61 – 1962 .

* طلب سماحة الشيخ احمد محمد الهاردي مفتي جامع الازهر الشريف اقامة دعوى امام المحاكم الدولية ضد الشركة السينمائية التي ارادت اخراج شريط سينمائي في ايران لتشخيص حياة محمد (ص) .

وقد ذكرت صحيفة الاهرام في هذا الصدد ان لجنة القوانين الدينية في جامع الازهر قد عقدت اجتماعا جددت فيه معارضتها التامة لعرض شخصية النبي محمد (ص) في دور السينما وشاشات التلفزيون والمسارح .

* اصدر وزير التربية والتعليم بسوريا مرسوما ينص على تقديم منح شهرية للطلبة التونسيين والمغاربة والجزائريين والعمانيين والليبيين الذين يتابعون دراساتهم بالجامعة والمدارس الثانوية بدمشق

* انهى الاستاذ خليل الهنداوي كتابه علي ابن ابي طالب من خلال نهج البلاغة . وقد نهج المؤلف في دراسته لابي طالب نهجا جديدا .

* احتفل المجلس الاعلى للفنون والآداب بحمص في مهرجان كبير بذكرى شهداء المدينة المذكورة .

* طابع بريدي يمثل صورة الشاعر ابي تمام وضع للتداول . وهذه ثاني مرة تخلد فيها ذكرى شاعر عن طريق الطوابع البريدية في سوريا . اما المرة الاولى فكانت في ذكرى المعري .

* احتفل في دمشق في هذه الايام بذكرى البحتري

* نعت حماه شاعر العاصي بدر الدين الحامد .

* « الارض خطيئة » رواية ثالثة صدرت مؤخرا للكاتبة كوليت سهيل الخوري .

* صدرت في دمشق مجموعة قصصية عنوانها « عفوا يا كومشك » للقصاص السوري صالح درويش

* اصدرت وزارة الثقافة بدمشق ديوانا بعنوان « جزائريان » للشاعر خليل الخوري .

* فازت مسرحية « شيطان في بيت » لمراد السباعي بالجائزة الاولى لمسابقة لجنة المسرح في سوريا والجائزة الثانية الشعرية فاز بها هنري بيطار عن مسرحية « لن تغيب الشمس » .

* « حب وبطولة » آخر ما صدر للشاعر القومي سليمان العيسى .

* عقد في 23 من الشهر الاخير مهرجان شعري بمسرح معرض دمشق الدولي تحت اشراف المجلس الاعلى للفنون والآداب . اشترك فيه شعراء من مصر والعراق والسودان والمغرب وتونس وليبيا واليمن والسعودية والكويت والبحرين واستمر المهرجان اسبوعا كاملا .

* صدر في دمشق للاستاذ سعيد الجزائري كتاب « ايام وناس » ارخ فيه للاجيال الادبية التي عاصرها .

* تعكف ليلى البعلبكي على كتابة مشاهداتها وانطباعاتها عن باريس التي قضت فيها سنة كاملة .

❊ آخر قصيدة نشرها نزار قباني هي « القصيدة البحرية » .

❊ سيعقد في دمشق في شهر مارس من السنة القادمة مؤتمر للجغرافيين .

❊ اكتشف احد العمال بحماه أثناء عمله عظاما لحيوانات غريبة منقرضة قبل عشرات الآلاف من السنين فقدمها الى مدير الآثار الذي صرح بأن هذه العظام هي عظام لحيوانات فيل الماموت وقسم منها لحيوان غير مألوف . ولربما كان من النوع المسمى ديبلو دوكس .

❊ اكتشف القائم باعمال السفارة الاسبانية في عمان دون خوسي انطونيو ، مغارة بالقرب من وادي الزرقاء بالاردن ، وقد اعتبر هذا الاكتشاف من أهم الاكتشافات التي ظهرت في العالم ، ذلك ان هذه المغارة كما ثبت لدائرة الآثار بعمان ، وحسب التقرير الذي قدمه عالم الآثار الاسباني الاب يواكيم اشفيراي ، هي اقدم مغارة في هذه البقعة من العالم . ان تاريخها يعود للعصر الحجري عندما اتخذها رجل ذلك العصر ملجأ له ، وهذا التاريخ يعود الى 450 الف سنة ق.م.

❊ تعتقد دائرة الآثار في الاردن ، بان لدى بعض الاشخاص في منطقة قمران وما يجاورها مجموعة من المخطوطات ينكرون وجودها بحوزتهم املا في الحصول على تعويض مالي لقاء اكتشافها وتسليمها للدوائر المختصة بها ، وكانت الحكومة الاردنية قد رصدت 25 الف دينار لشراء هذه المخطوطات ، وفوضت لجنة خاصة للاتصال بالوسطاء واتمام هذه الصفقة ، وذكر ان بعض الاشخاص يخفون هذه المخطوطات خشية المسؤولية الرسمية ، ولكنهم مستعدون لتسليمها مقابل مكافأة مالية ، وخشية تسرب المخطوطات الى الخارج استقر الراي على تخصيص مبلغ لشرائها .

❊ قامت نخبة من رجال القلم في دمشق بتاليف كتاب « الشيوعية عارية » .

❊ تألف في المركز الثقافي العربي بحمص مجلس استشاري من الادباء يشرف على شؤون المراكز القومية والفكرية والادبية والفنية .

❊ صدر للفقيه اللبناني ميشال ابو شهلا من « عصبة العشرة » ديوان بعنوان « انفاس العشيات » بمقدمة يوسف ابراهيم يزبك .

❊ انتهت دار العلم للملايين من طبع كتاب « رواد الفكر الاشتراكي » للبروفيسور ج.د ـ ه.كول قام بترجمته الى العربية الاستاذ منير بعلبكي .

❊ تصدر قريبا الطبعة الثالثة من كتاب « حرية الفكر وابطالها في التاريخ » .

❊ اصدر الاستاذ ميشيل أسمر « مفكرته الادبية » في عدة اجزاء تشمل تاريخ حياة ادباء جيله من عصبة الاثني عشر حتى الندوة اللبنانية وخاصة سلوكهم واخلاقهم .

❊ صدر لرينه حبشة كتاب « لبنان 1961 » .

❊ تصدر قريبا لعبد اللطيف شرارة دراسة مطولة في كتاب عن الاخطل الصغير .

❊ سيصدر قريبا للكاتب اللبناني يوسف ابراهيم يزبك كتاب بعنوان « داود سمحون » ارخ فيه حياته ونضاله الى جانب مجموعة من شعره التي نظمها في مناسبات مختلفة .

❊ جاء من لبنان خبر يتضمن انشاء جمعيات للصداقة العربية في عدد من العواصم العربية ثم تعميمها في بعض البلاد الاوروبية ودول اميركا اللاتينية

❊ سينعقد في بيروت من 6 الى 12 نوفمبر مؤتمر حول التصميم الاجتماعي في البلدان العربية .

❊ نعت بغداد العالم الروسي ستيفان كاشورا عضو البعثة الجيولوجية السوفياتية الذي كان يعمل هناك في الحفر عن الآثار .

❊ صادرت حكومة العراق كتاب « المحمدية » المستشرق السير هاملتون جيب كما صادرت كذلك كتاب « استراتيجية السلام » للرئيس الاميركي كيندي

❊ سيصدر قريبا في العراق ديوان الشاعر الفقيد محمد باقر الشبيبي باشراف اتحاد ادباء العراق .

❊ اختارت لجنة من اتحاد الادباء العراقيين مجموعة قصصية لقصاصين عراقيين واصدرتها فى كتاب بعنوان « قصص مختارة » .

❊ اكتشفت اسس مبنى فنيقي قديم يعود الى العام 750 ق . م . بالقرب من طرابلس الغرب من قبل فريق من علماء الآثار تابع لمتحف جامعة بنسيلفانيا ، وهذا المبنى الذي يسود الاعتقاد بانه كان مستودعا اكتشف فى نفس المكان الذي كانت تقوم فيه مدينة ليتس ماغنا ـ وهي مدينة كبيرة بناها الرومان ، وتقول تريسا هاورد كارتر مديرة بعثة التنقيب ان الجدران المقدودة من الصخر تختلف فى مظهرها وواجهاتها عن الجدران الرخامية اليونانية .

❊ اعلن الدكتور بابا ديمتريو المدير العام لمصلحة الآثار فى اليونان انه تم العثور على 15 او اكثر من اوعية الزينة وهي مصنوعة من الخشب ، ويرجع عهدها الى القرن الخامس ق . م . وقد عثر على هذه الاوعية فى معهد ارتميس ، ويبعد عن شرق اثينا بنحو 23 ميلا ، ويقول الدكتور بابا ديمتريو الذي اشرف على اعمال الحفر فى هذه المنطقة خلال العشر سنوات الماضية انه اكتشاف فريد فى نوعه فلم يسبق ان اكتشف فى اي مكان اوعية للزينة صنعها قدماء اليونان من الخشب ، وقد صنعت هذه الاوعية من اخشاب والوان مختلفة ، وهي من احجام مختلفة ايضا وعليها بعض النقوش ، والمعروف ان الآثار القديمة المصنوعة من الخشب تتحلل على مر القرون، ولكن هذه الاوعية بقيت حوالي 2 500 عام لانها كانت مدفونة فى الطين .

❊ صدر لمحمد بسيم الدويب ديوان بعنوان « صدى السنين » .

❊ يقوم الاستاذ محمد امين يحيى بكتابة « تاريخ المملكة العربية السعودية » وذلك فى 23 مجلدا . ابتداء من عهد النبوة الى يومنا هذا .

❊ بعد اربع سنوات من العمل المتواصل اتم بعض الفنانين فى فورموزا بناء تمثال لبوذا قيل انه من اكبر التماثيل التي بنيت له فى العالم ، اذ يبلغ ارتفاعه 72 قدما وهو اعلى بـ 30 قدما من تمثال بوذا الشهير فى اليابان الذي يعود تاريخه الى اكثر من سبعمائة سنة والتمثال مجوف بداخله سلالم يستطيع الانسان ان يصعد درجاتها حتى يصل الى عيني التمثال وينظر منها الى الخارج .

❊ سيحتفل العالم المسرحي فى كل عام بيوم المسرح العالمي وذلك على اثر قرار اتخذه مندوبو المؤتمر التاسع لمعهد المسرح الدولي الذي انعقد فى فيينا فى صيف هذا العام برئاسة منظمة اليونسكو . وقد تقرر ان يوافق يوم المسرح العالمي يوم افتتاح الموسم السنوي لمسرح الامم المتحدة فى باريس . كما وافق المؤتمر على اقتراح من مندوب اليونان بعقد حلقة دولية عن الفن المسرحي باعتباره من اهم الظواهر الاجتماعية والثقافية .

❊ تركت وفاة السيد هامرشولد الامين العام لهيئة الامم المتحدة اثر حادثة الطائرة المشهورة حزنا شديدا فى الآفاق الدولية لرسالة الخير والسلام والتعايش السلمي الذي كان يحملها .

ولد السيد داج همرشولد فى جونكو بونيغ بالسويد سنة 1905 من اسرة دينية برزت فيها عدة شخصيات سياسية وعسكرية . وبعد ان اتم دراسته فى الحقوق والاقتصاد التحق ببنك السويد ثم بوزارة الشغل . وبعد عين سنة 1939 سكرتيرا للمالية . وفى سنة 1941 عين رئيسا بادارة بنك السويد وفى سنة 1945 عين فى وزارة الشؤون الخارجية برتبة وزير مفوض . وفى سنة 1949 عمل سكرتيرا عاما بهذه الوزارة ، ووزيرا للخارجية بالنيابة . وفى نفس السنة اصبح نائبا لرئيس المجلس التنفيذي للمنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي . وفى 7 ابريل 1953 انتخب امينا عاما لمنظمة الامم المتحدة وكان انتخابه باجماع اصوات مجلس الامن الذي اوصى المجلس بانتخابه .

❊ يحتفل الادب الالماني والعالمي فى هذه الايام بمرور 15 سنة على وفاة الكاتب الالماني المعروف غرهارت هاوبتمان .

❊ نشر اخيرا فى المانيا كتاب باسم « كتاب هتلر الثاني » وقد اطلق عليه هذا الاسم نظرا لان مؤلفه لم يكن قد اعطاه عنوانا . والكتاب يقع فى 228 ويهدف الى شرح المبادىء والاهداف النازية والفاشستية .

* اصدرت امارة موناكو تأييدا للحملة الدولية لانتشال آثار النوبة بانشاء طابعا بريديا يحمل صورة ابي الهول في وادي السبوعة بالنوبة .

* شب حريق كبير في هذه الايام في معرض للرسم الخاص باللوحات الايرانية بباريس .

* تحتفل مدينة بون موطن الموسيقي العالمي بتهوفن بالمهرجان الثالث والعشرين احتفالا بذكرى هذا المؤلف الموسيقي وللمرة الاولى ستقدم جائزة بتهوفن الدولية وقدرها 5 000 مارك .

* تم اخيرا اكتشاف 230 قبرا من الصور الرومانية التي يرجع عهدها الى القرنين الاولين بعد الميلاد وذلك قرب مدينة ايد برج الجامعية الواقعة في جنوب غرب المانيا .

* اكتشفت بعثة ايطالية في خرائب مدينة قيسارية التي تقع على بعد 35 كلم الى الجنوب من حيفا ، اول بينة ملموسة عن اسم بيلاطس البنطي ، فقد اكتشفت هذه البعثة بلاطة طولها 20 بوصة وعرضها 15 بوصة تحمل اسم بيلاطس البنطي . ويعتقد بان هذه البلاطة استعملت في تكريس مسبح في قيسارية التي اتخذ منها الرومان عاصمة لليهودية في العصور القديمة ، وقد حملت البلاطة ثلاثة اسطر كتب في الاول منها كلمة (طيب ريوس) وربما كان الامبراطور الروماني في عهد المسيح ، وكتب في الثاني (بيلاطس البطر) .

* اعلن مرصد جامعة هارفارد نبأ اكتشاف مذنب، سيحمل اسم العالم الفلكي الذي اكتشفه وهو ستيوارت ولس ، وقد اكتشف المذنب ويلسون يوم 23 يوليو ويرى في اميركا الشمالية في الجانب الشمالي بين الساعة السابعة ونصف والثامنة حسب التوقيت الفرنسي .

* جاء في جريدة ايطالية بأن احدى الشركات الايطالية ستنتج فيلما حول حياة الرسول محمد (ص) بمشاركة الاميرة ثريا الزوجة السابقة لشاه ايران . ومما يذكر في هذا الموضوع ان شخصية الرسول لن تظهر في هذا الفيلم وسيرمز اليها بكرة من نور .

*حضرت الآنسة خديجة عبد القادر الكاتبة الليبية التي من المنتظر ان يصدر كتابها « النساء وحياة الريف في ليبيا » باللغة العربية في لبنان قريبا ـ المؤتمر النسوي لاتحاد المكتبات الذي عقد في هنتنغرب بانجلترا في الايام الاخيرة .

* يقوم المستشرق الانجليزي دنيس جونسون بترجمة قصة « بداية ونهاية » لنجيب محفوظ الى اللغة الانجليزية .

* ظهر في لندن كتاب جديد من تاليف مونيك ستيرلنغ يتحدث عن شخصية أم نابليون .

* « الموت شنقا »كتاب جديد للروائي العالمي ارثر كوستلر صاحب « ظلام في النهار » وهو يبحث في المشكلة القائمة في ايطاليا حول الغاء عقوبة الموت او ابقائها .

* براتراندرسل الفيلسوف البريطاني دخل السجن لمدة سبعة ايام عقابا له على الدعوة التي نادى بها ضد الحرب الذرية قائلا ان للشرق والغرب هدفا واحدا شريرا هو افناء البشر .

* خلال الاسبوع الذي قضاه المفكر البريطاني براتراند رسل في السجن بدا بتاليف كتاب جديد « هل للانسان مستقبل ؟ » . ومن المنتظر ان يطلع هذا الكتاب في مطلع العام القادم .

* جاء في تقرير للامم المتحدة أن خمسين في المائة من المطبوعات العلمية الخاصة بالبحوث المبتكرة تصدر باللغة الانجليزية و 16 في المائة منها باللغة الروسية و 12 منها باللغة الالمانية و 10 في المائة باللغة اليابانية و 5 منها بالفرنسية .

* عرضت شركة اميركية آلة للترجمة تعمل بسرعة 60 000 كلمة في الساعة . وقد اجتمع في ترينجتون قرب لندن خبراء اللغات والعلماء من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان لمعالجة النقص قبل المضي في انتاج آلة الترجمة الميكانيكية المضبوطة .

* عقد في جامعة مينسوتا بالولايات المتحدة مؤتمر الطلبة العرب العاشر .

* ابتكر احد الاخصائيين جهازا يغني عن «الدليل» الذي يقوم بشرح الآثار او اللوحات الفنية للسائحين ورواد المتاحف . ويتركب الجهاز من آلة تسجيل يسجل عليها واف بعدة لغات لمعروضات البهو ويتصل هذا الجهاز ـ بسماعات ـ حالما يضغط الزائر على اذنه يسمع التسجيل باللغة التي يعرفها .

* قررت هوليود اخراج قصة حياة الكاتب أرنست هيمنجواي بعنوان « الرجل الصغير » .

فهرس العدد الاول - السنة الخامسة

الصفحـــة

منـــاقشـــات :